جامعة الأزهر
كلية أصول الدين
والدعوة الإسلامية بالمنوفية

من خصائص الخطاب القرآنى فى العهد المكى

دكتور/ عبد الرحمن محمد عبد المتعال
مدرس التفسير وعلوم القرآن
فى كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية

مستلة من
حولية كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية
العدد التاسع والعشرون، لعام ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠م
والمودعة بدار الكتب تحت رقم 2010/6157

دار الأندلس للطباعة-أمام كلية الهندسة-عمارات الزراعيين-شبين الكوم ت ٠٤٨٢٢٢٢٠٩٠

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

الحمد لله الذى أنزل القرآن بأيسر الوجوه، وأفصح اللغات، وفَصَّل آياته وأتْقَنَه وأحْكَمه، وتَعَبَّدنا بتحريره وإتقان قراءته وتدبُّره، وجعل ذلك من أعظم القربات، وأسبغ علينا نعمه، وأفاض لدينا مِنَنَه، وجعلنا من خُدَّام شرعه الذى عَلَّمَنا فروضه وسننه، وخَصَّنا بإرسال أكرم الخلق عليهِ الذى طَهَّر قَلْبَه وأظْهر لسانه وجعل خير الناس أُمَّته، وخير القرون قرنه الذى بوجوده شَرَّفه أبو القاسم سيدنا ونبينا محمد بن عبد الله ورسوله صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم البررة الكرام والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد: فإن القرآن الكريم كلام الله ﷻ الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، أنزله الله على رسوله ﷺ هداية للناس، ومرشداً إلى الصراط المستقيم، وتكفل الله بحفظه إلى يوم القيامة، قال تعالى: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ (الحجر: ٩).

ولقد قام رسول الله ﷺ بتبليغ هذا الكتاب وتعليمه لأمته، كما قام صحابته ﷺ من بعده بِحَمْل تلك الأمانة إلى من بعدهم، وهكذا تستنير به الأجيال جيلاً بعد جيل، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ**﴾ (الإسراء: ٩).

وحسبك فى شرف هذا الكتاب أن تَعْلم أنَّ المكتبة الإسلامية كلها بعلومها المختلفة الكثيرة إنما انبثقت عن هذا القرآن وتَفَرَّعَت عنه، قال الإمام الزركشى: (وكل علمٍ من العلوم مُنْتَزع من القرآن وإلا فليس له برهان)[1] ومِنْ هنا اعْتَنَى المسلمون بهذا الكتاب الكريم عناية فائقة، والناظر فى المكتبة الإسلامية يرى ثمار جهودهم تلك فى تصانيفهم المتعددة، فمنهم من اعتنى بأسباب نزوله، ومنهم من اعتنى بناسخه ومنسوخه، ومنهم من اعتنى بذكر مكية ومدنية، ومنهم من اعتنى ببيان ألفاظه الغريبة وإعرابه، ومنهم من اعتنى بذكر أحكامه، ومنهم من اعتنى بمحكمه ومتشابهه .... إلى غير ذلك من العلوم القرآنية التى عُرِفَتْ باسم (علوم القرآن).

وكان هدفهم الأساسى فى خدمة تلك العلوم خدمة هذا الكتاب الكريم، وتسهيل فهمه ومعانيه، ولعل المقدمات التى تضمنتها بعض كتب التفسير كالطبرى، وابن عطية، والقرطبى، وابن النقيب، وابن جُزى خير شاهد على ذلك.

ولما كان موضوع (المكى والمدنى) مبحثا من تلك المباحث القرآنية المهمة اخترت أن يكون موضوع بحثى: (من خصائص الخطاب القرآنى فى العهد المكى).

وتتلخص أسباب اختيارى لهذا الموضوع فيما يلى:

أولاً: رغبتى فى المشاركة فى خدمة هذا الكتاب وعلومه التى هى أشرف العلوم وأجلها.

ثانياً: أهمية هذا الموضوع من بين الأبحاث الأخرى، مما جعل سلفنا الصالح –ﷺ- يعتنون بهذا الموضوع أيَّمَا اعتناء.

فهذا هو الصحابى الجليل عبد الله بن مسعود ﷺ يقول: (والله الذى لا إله غيره ما أُنْزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت، ولو أعلم أحداً أعلم منى بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه)[2].

ثالثاً: أهميته فى معرفة تاريخ التشريع، والناسخ والمنسوخ، والأحكام الفقهية، يقول أبو جعفر النخاس -رحمه الله - (وإنما يذكر ما نزل بمكة والمدينة، لأن منه أعظم الفائدة فى الناسخ والمنسوخ، لأن الآية إذا كانت مكية، وكان فيها حكم، وكان فى غيرها مما نزل بالمدينة حكم غيره عُلِم أن المدنِيَّة ناسخة للمكية)[3].

رابعاً: أن معرفة المكى المدنى من المباحث المهمة التى يحتاج إليها من يتصدى لتفسير كتاب الله تعالى. أخرج الخطيب البغدادى رحمه الله فى "الفقيه والمتفقه"، بسنده عن الشافعى قال: (لا يَحِلُّ لأحد أن يُفْتى فى دين الله إلا رجلاً عارفاً بكتاب

---

[1] البرهان فى علوم القرآن للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى ١/ ٣٥ تحقيق: د/ زكى محمد أبو سريع، طبع: دار الحضارة للنشر والتوزيع.

[2] صحيح البخارى مع فتح البارى لابن حجر العسقلانى فى كتاب فضائل القرآن - باب القراء من أصحاب النبى ﷺ ٨/ ٦٦٢ رقم ٥٠٠٢ طبع: دار الريان للتراث.

[3] الناسخ والمنسوخ فى كتاب الله واختلاف العلماء فى ذلك لأبى جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس ت٣٢٨هـ ٢/ ٦١١، تحقيق: د/ سليمان بن إبراهيم اللاحم، نشر مؤسسة الرسالة، ط١ ١٤١٢هـ/ ١٩٩١هـ.

الله ناسخه ومنسوخه، وبمحكمه ومتشابهه، وتأويله وتنزيله، ومكية ومدنية، وما أريد به وفيما أنزل، ثم يكون بعد ذلك بصيراً بحديث رسول الله ﷺ، وبالناسخ والمنسوخ، ويعرف من الحديث ما عرف من القرآن ...)[1].

وأفصح عن أهميته أبو القاسم النيسابورى[2] فى كتابه: "التنبيه على فضل علوم القرآن" فقال: (من أشرف علوم القرآن علم نزوله وجهاته، وترتيب ما نزل بمكة ابتداء ووسطاً وانتهاء، وترتيب ما نزل بالمدينة كذلك، ثم ما نزل بمكة فى أهل المدينة، وما نزل بالمدينة فى أهل مكة، ثم ما يشبه نزول المكى فى المدنى، وما يشبه نزول المدنى فى المكى، ثم ما نزل بالجحفة، وما نزل ببيت المقدس ... إلخ"[3].

خامساً: أشار إلى جدارة هذا الموضوع بالبحث والدراسة غير واحد من المتخصصين فى علوم القرآن فى عصرنا هذا يقول الشيخ الزرقانى رحمه الله فى حديثه عن المكى والمدنى: (ليس من غَرَضِنا فى هذا المبحث أن نَسْتَقْصِى بالتفصيل والتدليل آيات القرآن الكريم وسوره، وأن نُحَقِّقَ ما كان منها مكياً وما كان منها مدنياً، فتلك محاولة كبيرة جديرة أن تُفْرَدَ بالتأليف)[4]. ويقول الدكتور صبحى الصالح رحمه الله: (ولعلنا لا نرتاب - إذا وَضَعْنا العلوم القرآنية موضع الموازنة - فى أن العلم بالمكى والمدنى أحوجها إلى تمحيص الروايات وتحقيق النصوص، والتحاكم إلى التاريخ الصحيح)[5].

كل تلك الأسباب التى أشرت إليها جَعَلَتْنى أختار هذا الموضوع، وعلى الرَّغم من قلة زادى وقصر باعى، فقد استعنت بالله تعالى فى كتابة هذا البحث، وأسأله التوفيق والعون والسداد، كما أسأله سبحانه أن يكون خالِصاً لوجهه الكريم ويجعل فيه النفع للمسلمين.

وبإذن الله تعالى سيكون منهج البحث على النحو التالى:

أولاً: سأذكر أشهر التعاريف فى المكى والمدنى عند العلماء، وأُرَجِّحُ أشهر الآراء عند الجمهور، وهو اختيار الزمان، لأن هذا التعريف يَتَمَيَّز بالضبط والحصر، وسَأَجْعَله منهجاً لى فى جميع الآيات والسور بإذن الله.

ثانياً: سأُعَدد الخصائص الموضوعية والأسلوبية للمكى إن شاء الله.

ثالثاً: سأقوم بذكر الضوابط للسور المكية القديمة، والإضافية المطلقة، والإضافية الغالبة.

رابعاً: سأقوم بتحديد المكى من القرآن الكريم.

خامساً: أما أهم المراجع التى استفَدْتُ منها بعد القرآن الكريم.

١- فبالنسبة لكتب علوم القرآن استفَدْتُ كثيراً من البرهان للإمام الزركشى والإتقان للإمام السيوطى وغيرهما.

٢- استفدت من معظم كتب السنة المطهرة وبخاصة الصحيحين.

٣- رجعت إلى كثير من كتب التفسير مثل تفسير ابن كثير، وتفسير القرطبى، والطبرى، والرازى، والألوسى، والتفسير الحديث، وظلال القرآن إلى غير ذلك مما هو مثبت فى فهرس المراجع.

خطة البحث:

اشتمل البحث على مقدمة وخمسة مباحث وخاتمة على النحو التالى:

المقدمة: بَيَّنْت فيها السبب الدعى لاختيار هذا الموضوع وأهميته، كما بَيَّنْتُ فيها المنهج الذى التزمته عند كتابة البحث.

المبحث الأول: مراجعات تأصيلية، ويشتمل على أربعة مطالب:

المطلب الأول: حول المصطلح.

المطلب الثانى: مباحث المكى والمدنى.

المطلب الثالث: أهمية دراسة المكى والمدنى.

المطلب الرابع: طرق العلم بالمكى والمدنى.

المبحث الثانى: الخصائص الموضوعية للقرآن المكى، ويشتمل على تمهيد، وأربعة مطالب.

---

[1] الفقيه والمتفقه لأحمد بن على بن ثابت الخطيب البغدادى ت٤٦٣هـ، ٢/ ١٥٧. تصحيح وتعليق: الشيخ اسماعيل الأنصارى، نشر دار إحياء السنة النبوية ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

[2] هو الحسن بن محمد بن حبيب النيسابورى، المفسر الواعظ، صنف تفسيرا، وعقلاء المجانين، والتنبيه على فضل علوم القرآن توفى سنة ٤٠٦هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبى ١٧/ ٢٣٧ - ٢٣٨ تحقيق: شعيب الأرناؤوط وزملائه، نشر مؤسسة الرسالة، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، طبقات المفسرين للداودى ١/ ١٤٤ - ١٤٦ نشر دار الكتب العلمية بيروت.

[3] البرهان فى علوم القرآن للزركشى ١/ ٢٨٧، وينظر: بصائر ذوى التمييز للفيروزآبادى ١/ ١٠٠ نشر دار الكتب العلمية بيروت.

[4] مناهل العرفان فى علوم القرآن للشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى ١/ ١٨٥ طبع: عيسى البابى الحلبى وشركاه.

[5] مباحث فى علوم القرآن للدكتور صبحى الصالح ص١٦٧ دار العلم للملايين بيروت، وينظر أيضاً: المدخل لدراسة القرآن الكريم للدكتور محمد محمد أبى شهبة ص٢١٩، دار اللواء للنشر والتوزيع الرياض.

أما **التمهيد**: الدعوة والواقع المكى.
وأما **المطلب الأول**: الخصائص المتعلقة ببناء العقيدة.
المطلب الثانى: الخصائص المتعلقة بأسلوب الدعوة.
المطلب الثالث: الخصائص المتعلقة بالجانب الأخلاقى.
المطلب الرابع: الخصائص المتعلقة بالجانب التشريعى.
المبحث الثالث: الخصائص الأسلوبية للقرآن المكى، ويشتمل على تمهيد، وثلاثة مطالب:
المطلب الأول: تحدد البناء وقوة الإيقاع.
المطلب الثانى: تكثيف اللغة التصويرية.
المطلب الثالث: صيغ وتعبيرات مكية.
المبحث الرابع: ضوابط السور المكية، ويشتمل على تمهيد، وثلاثة مطالب:
المطلب الأول: ضوابط قديمة.
المطلب الثانى: ضوابط إضافية مطلقة.
المطلب الثالث: ضوابط إضافية غالبة.
المبحث الخامس: تحديد المكى والمدنى من السور والآيات القرآنية، ويشتمل على ثلاثة مطالب:
المطلب الأول: المتفق عليه من السور.
المطلب الثانى: المختلف عليه من السور.
المطلب الثالث: الآيات المستثناة.
الخاتمة: وفيها ذكرتُ أهم النتائج التى تَوصَّلتُ إليها.

المبحث الأول
مراجعات تأصيلية

المطلب الأول: حول المصطلح:

للمكِيِّ والمدنِيِّ فى كتب علوم القرآن اصطلاحات ثلاثة مشهورة:

الأول: يرتبط بالزمان، وهو أن المكِّى من القرآن ما نزل قبل الهجرة، والمدنِيَّ ما نزل بعدها.

والثانى: يرتبط بالمكان، وهو أن المكِيَّ ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة، والمدنِيَّ ما نزل بالمدينة.

والثالث: يرتبط بالمخاطبين، وهو أن المكى ما وقع خطاباً لأهل مكة، والمدنى ما وقع خطاباً لأهل المدينة[1].

ولعله من الواضح أن أوَّل هذه الاصطلاحات هو أدقها وأضبطها، **فالاصطلاح الثانى** يربط مكى القرآن بمكة نفسها، ومدنيه بالمدينة نفسها، مع أن المعلوم أن تَنَزُّلَ القرآن لم يقتصر على هذين المكانين بل وقع أيضاً فى أماكن متعددة خارج حدودهما فى الإقامة والسفر[2]. **والاصطلاح الثالث** يربطهما بالمخاطبين، مع أن توجه القرآن للناس كافة أمر واضح فى كثير من آياته سواء منها المكى أو المدنى، ومع أن صلة القرآن بالمَكِّيِّين أو بقضايا المرحلة المكية لم تنقطع تماما فى المرحلة المدنية كما سوف يتضح لنا فى مُقْتَبَل هذا البحث.

أما **الاصطلاح الأول** المرتبط بالزمان فإنه يستند على الضابط الموضوعى، أى على الخصائص الموضوعية لكل من المرحلتين المكية والمدنية، ومادامت كل مرحلة تتميز عن الأخرى بالفعل فى هذه الخصائص -كما سوف يتبين - فإن ربط هذا الاصطلاح بالحدود الزمنية هو الأضبط والأدق، فالهجرة فاصل زمنى بين مرحلتين تتميز كلتاهما عن الأخرى تميزاً واضحاً من حيث أسلوب الدعوة وقضاياها المختلفة.

ومن ثم فإن الشيخ الزرقانى قد وضع لهذا الاصطلاح صياغَةً أدق، وهى أنَّ المكى ما نزل قبل الهجرة ولو كان نزوله بغير مكة، والمدنى ما نزل بعد الهجرة ولو كان نزوله بمكة[3] فهذه الصيِّاغة تؤكد على استبعاد الضابط المكانى، فيكون المكى ما نزل قبل الهجرة ولو كان خارج مكة، ويكون المدنى ما نزل بعد الهجرة ولو كان فى مكة نفسها أو فى جوف الكعبة[4].

وقد ذكر الإمام الزركشى فى البرهان، هذه التعريفات الثلاثة - التى مَرَّتْ - غير أنه صاغ التعريف الأول منها - وهو الثانى عنده - صياغة غريبة حيث قال: (والثانى - وهو المشهور - أن المكى ما نزل قبل الهجرة، وإن كان بالمدينة، والمدنى ما نزل بعد الهجرة، وإن كان بمكة)[5]. فقوله: (وإن كان بالمدينة) فى تعريفه للمكى قول غريب لا أساس له إذ من المعلوم أن الرسول ﷺ لم يقم بالمدينة إلا بعد الهجرة، فكيف ينزل قرآن مدنى قبل هذه الهجرة؟!

والإمام الزركشى -بلا شك - خير من يعلم ذلك، لكِنَّه دُفِع إلى ما قال بناءً على تَصَوُّر ذِهْنِىٍّ بحت لمجرد إكمال التقابل المنطقى، أى أن كون المدنى هو المنزل بعد الهجرة، ولو كان بمكة اقتضى عنده أن يقابله المكى مقابلة منطقية صادقة، فيكون هو ما نزل قبل الهجرة ولو كان بالمدينة، وهذا أثر من آثار الشغف بالتقسيمات المنطقية الذى سوف يظهر بصورة أجلى فى التقسيمات التالية بمباحث علم المكى والمدنى.

المطلب الثانى: مباحث المكى والمدنى:

فى بداية حديث الإمام السيوطى "ت ٩١١هـ" عن "المكى والمدنى" نصان يحتاجان إلى وقفة متأنية ومراجعة دقيقة: أما **النص الأول**، فهو الذى نقله عن كتاب "التنبيه على فضل القرآن" لأبى القاسم النيسابورى حيث يقول: (من أشرف علوم القرآن علم نزوله وجهاته، وترتيب ما نزل بمكة والمدينة، وما نزل بمكة وحكمه مدنى، وما نزل بالمدينة وحكمه مكى، وما نزل بمكة فى أهل المدينة، وما نزل بالمدينة فى أهل مكة، وما يشبه نزول المكى فى المدنى، وما يشبه نزول المدنى فى

---

[1] يراجع: البرهان فى علوم القرآن للإمام الزركشى النوع التاسع ١/ ٢٨٠. والإتقان فى علوم القرآن لشيخ الإسلام السيوطى، النوع الأول ١/ ١١ - ١٢ طبع: دار عالم المعرفة، ومناهل العرفان فى علوم القرآن للشيخ الزرقانى ١/ ١٩٣- ١٩٤.

[2] يراجع: الإتقان ١/ ٢٤ وما بعدها.

[3] يراجع: مناهل العرفان ١/ ١٩٤.

[4] وذلك كما ذكر الإمام السيوطى عن قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ ...**﴾ (النساء : ٥٨) حيث قال: (نزلت يوم الفتح فى جوف الكعبة كما أخرجه سنيد فى تفسيره عن ابن جريج، وأخرجه ابن مردويه عن ابن عباس) ينظر: الاتقان ١/ ٢٤ - ٢٥، وذكره ابن حجر العسقلانى فى: العجاب فى بيان الأسباب ٢/ ٨٨٩ : ٨٩٥ تحقيق: عبد الحكيم محمد الأنيس طبع: دار ابن الجوزى ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م ط١، والبغوى فى معالم التنزيل ١/ ٦٤٨: ٦٤٩ تحقيق: عبد الرزاق المهدى، طبع: دار إحياء التراث العربى.

[5] يراجع: البرهان ١/ ٢٨٠.

المكى، وما نزل بالجُحْفَه، وما نزل ببيت المقدس، وما نزل بالطائف، وما نزل بالحديبية، وما نزل ليلاً وما نزل نهاراً، وما نزل مُشَيَّعا، وما نزل مفرداً، والآيات المدنيات فى السور المكية، والآيات المكيات فى السور المدنية، وما حمل من مكة إلى المدينة، وما حمل من المدينة إلى مكة، وما حمل من المدينة إلى أرض الحبشة، وما نزل مجملاً، وما نزل مُفَسَّراً وما اختلفوا فيه فقال بعضهم مدنى وبعضهم مكى، فهذه خمسة وعشرون وجها من لم يعرفها ويميز بينها لم يحل له أن يتكلم فى كتاب الله تعالى)[١].

وأما **النص الثانى**: فهو الذى نقله عن أبى بكر بن العربى (ت ٥٤٦ هـ) فى كتابه (الناسخ والمنسوخ) حيث يقول: (الذى علمناه على الجملة من القرآن أن منه مكياً ومدنياً، وسفرياً وحضرياً، وليلياً ونهارياً، وسمائياً وأرضياً، وما نزل بين السماء والأرض وما نزل تحت الأرض فى الغار)[٢] وما أَتَوَقَّفُ فيهِ وَأُراجِعُه بشأن هذين النصين يدور حول مسألتين:

المسألة الأولى: أن العلماء - فى عمومهم - تَلَقَّوا ما ورد على أنه يَنْصَبُّ - كله أو معظمه - على بيان أقسام أو مباحث "علم المكى والمدنى" ومن ثَمَّ فإنهم لم يفرقوا تفرقة دقيقة بين ما يَتْبَع المكى والمدنى فعلاً من هذه الأقسام، وما هو مُسْتَقِلٌ عنها، فها هو الإمام الزركشى مثلاً: يجعل ضمن مسائله فى موضوع المكى والمدنى: ما نزل بالجحفة وما نزل بالطائف وما نزل بالحديبية وما نزل ليلاً[٣] وهذا هو الشيخ الزرقانى: يشير أيضاً فى حديثه عن المكى والمدنى إلى هذا الأنواع التى ذكرها الزركشى دون أى اعتراض[٤].

وهذا هو الشيخ مناع القطان يذكر مباحث المكى والمدنى على النحو التالى: (١- ما نزل بمكة ٢- ما نزل بالمدينة ٣- ما اختلف فيه ٤- الآيات المكية فى السور المدنية ٥- الآيات المدنية فى السور المكية ٦- ما نزل بمكة وحكمه مدنى ٧- ما نزل بالمدينة وحكمه مكى ٨- ما يشبه نزول المكى فى المدنى ٩- ما يشبه نزول المدنى فى المكى ١٠- ما حُمِل من مكة إلى المدينة ١١- ما حُمِلَ من المدينة إلى مكة ١٢- ما نزل ليلاً وما نزل نهاراً. ١٣- ما نزل صيفاً وما نزل شتاء ١٤- ما نزل فى الحضر وما نزل فى السفر. ثم يقول: فهذه أنواع أساسية يرتكز محورها على المكى والمدنى، ولذا سُمِيِّ هذا بـ"علم المكى والمدنى)[٥].

والذى أراه: أن هذه الأقسام الثلاثة الأخيرة التى ذكرها الشيخ القطان، وهذه الأقسام التى ذكرها الإمام الزركشى، وجميع الأقسام التى ذكرها ابن العربى - عدا رأس الموضوع بالطبع - كل ذلك لا يَصْلُح أن يَدْخُل - شكلاً ولا مضموناً - فى مباحث المكى والمدنى[٦].

إذ إن هذه الأقسام ما هى إلا نوع من البيان التفصيلى لمواطن وأزمنة النزول، ولو قبلناها ضمن مباحث هذا العلم لَفَتَحْنَا باباً واسعاً لا يُغْلَق بشأن ما يمكن أن يدخل فى إطاره. هذا فضلاً عما يبدو فى أغلب هذه الأقسام من تَكَلُّفٍ وتَزَيُّد نابِعَيْن من نَزْعَة المبالغة فى التَقَصِّى والحرص على الإحاطة بجميع التفاصيل، وهى نزعة تشهد - بلا شك - بالعناية العظمى التى أولاها سلفنا لكل ما يتعلق بالقرآن وعلومه، لكن ذلك لا يمنع من الاعتراف أيضاً بأنها -أى هذه النزعة - كثيراً ما تقود إلى الاستطراد المنطقى الذى يقود إلى الشَّغَف باستيفاء الأقسام والمتقابلات حتى لو لم يكن هناك ما يسندها أو يدل عليها من الناحية التطبيقية.

وأرجع على سبيل المثال إلى الأقسام الأخيرة فى كلام ابن العربى[٧] وهى (السمائى والأرضى، وما نزل بين السماء والأرض، وما نزل تحت الأرض فى الغار) فإن الذى قال بها قد استند إلى حديث مسلم الذى يدل على نزول خواتيم سورة البقرة ليلة المعراج[٨] فصنع من هذا: القسم الأول وهو: السمائى والأرضى لتكون آيتان اثنتان من القرآن هما ما يمثل النوع

---

[١] يراجع: الاتقان ١/ ١١، والبرهان ١/ ٢٨٣ - ٢٨٨، ومباحث فى علوم القرآن للشيخ مناع القطان ٥١ - ٥٢.

[٢] الاتقان: ١/ ١١.

[٣] ينظر: البرهان ١/ ٢٨٧.

[٤] يراجع: مناهل العرفان ١/ ٢٠٠ - ٢٠١.

[٥] ينظر: مباحث فى علوم القرآن للشيخ مناع القطان ص٥٢ - ٥٣.

[٦] هناك أقسام أخرى من التى مَرَّتْ سوف تَخْرُجُ أيضاً من جهة مضمونها عن إطار المكى والمدنى وإن اتَّفَقَتْ معه من الناحية الشكلية، وهو ما سوف يتضح فى المسألة الثانية ص١٧.

[٧] هو: محمد بن عبد الله بن محمد المعافرى الإشبيلى المالكى، أبو بكر بن العربى من القضاة المجتهدين ولد فى إشبيلية سنة ٤٦٨ هـ ومات قريباً من فاس سنة ٥٤٣ هـ، ينظر: وفيات الأعيان ١/ ٤٨٩، نفح الطيب ١/ ٣٤٠، الصلة ٥٩٩.

[٨] ينظر: الإتقان ١/ ٣١، والحديث هو: عن عبد الله بن مسعود قال: (لما أُسرى برسول الله ﷺ انتهى إلى سدرة المنتهى، وهى فى السماء السادسة، إليها ينتهى ما يُعْرَج به من الأرض، فيُقْبَض منها، وإليها ينتهى ما يُهْبط به فوقها، فَيُقْبَض منها. قال: ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ (النجم: ١٦)، قال: فَرَاشُ من ذهب، قال: فَأُعْطِى رسول الله ﷺ ثلاثاً: أُعْطى الصلوات الخمس، وأُعْطى خواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لم

الأول من هذا القسم، ثم يكون سائر القرآن هو ما يمثل النوع الثانى!! ثم أخَذَه القسم الأول أو استهواه ليصنع من القسم الثانى وهو ما نزل بين السماء والأرض، ثم جره القسم الثانى بدوره ليصنع قسماً ثالثاً يكون عما نزل من القرآن تحت الأرض لتكتمل الدائرة، وهى الأرض والسماء وما بينهما وما تحت الأرض، ثم من الذى يقول بأن الغار تحت الأرض؟! إنه داخل الجبل، والجبل جزء من سطح الأرض وليس تحت الأرض.

والحق أن الإمام السيوطى نفسه - رغم تَأثُره بالنزعة المذكورة - لم يقبل من الشواهد الواردة من هذه الأقسام إلا ما يختص بخواتيم سورة البقرة التى ذكرها حديث مسلم، وما يختص بسورة المرسلات التى وردت فى الحديث أيضاً أنها نزلت فى الغار[1].

والحق أيضاً أن الإمام السيوطى ممن تنبهوا إلى التمييز بين الأقسام المذكورة فى النصين السابقين، فهو فى كتابه: "الإتقان" لم يدخل هذه الأقسام ضمن المكى والمدنى أو المباحث التى يمكن استبعادها، وإنما تحدث عنها فى مباحث أخرى مستقلة. **فالنوع الأول فى كتابه هو:** معرفة المكى والمدنى، و**الثانى** هو: معرفة الحضرى والسفرى، و**الثالث** معرفة النهارى والليلى، و**الرابع**: الصيفى والشتائى، و**الخامس**: الفراشى والنومى، و**السادس**: الأرضى والسمائى، ثم تحدث فى النوع **السابع** عن معرفة أول ما نزل، وفى النوع **الثامن**: معرفة آخر ما نزل، وفى النوع **التاسع**: معرفة سبب النزول. ثم إن ذكره لهذه الأنواع كلها -حسب الترتيب السابق - لهو إلماح ذكى أيضاً إلى ما بَيْنَها من علاقات، فهى تكاد كلها تتعلق - بصورة أو بأخرى - بملابسات النزول المكانية والزمانية والواقعية، وإن كانت هذه العلاقات لم تمنعه فى الوقت نفسه -كما سبق - من تبيُّن الحدود أو من الفصل الواجب بين الأنواع.

المسألة الثانية: وهى تختص بتلك الأقسام التى تتعلق فعلاً بالمكى والمدنى فى النصين السابق ذكرهما، أو -بالأحرى - فى نص ابن حبيب النيسابورى بعد أن لم يبق من نص ابن العربى غير رأس الموضوع كما أشرت من قبل.

وهذه الأقسام بترتيب ورودها فى هذا النص كالتالى: ١- ما نزل بمكة وما نزل بالمدينة ٢- ما نزل بمكة وحكمه مدنى ٣- ما نزل بالمدينة وحكمه مكى ٤- ما نزل بمكة فى أهل المدينة ٥- ما نزل بالمدينة فى أهل مكة ٦- ما يشبه نزول المكى فى المدنى ٧- ما يشبه نزول المدنى فى المكى ٨- الآيات المدنيات فى السور المكية ٩- الآيات المكية فى السور المدنيات ١٠- ما حُمِلَ من مكة إلى المدينة ١١- ما حُمِلَ من المدينة إلى مكة ١٢- ما حمل من المدينة إلى أرض الحبشة ١٣- المختلف عليه بين المكى والمدنى، فهذه الأقسام جميعاً لها بالفعل - من حيث الظاهر - تَعَلُّقٌ مباشر بقضية "المكى والمدنى" لكن كثيراً منها فى حقيقة الأمر، ومن واقع معالجاتها التطبيقية فى كتب علوم القرآن يحتاج أيضاً إلى إعادة نظر وتمحيص.

فالذى يسيطر على معظمها - فى رأيى - هو نفس نزعة التَّقَصِّى والاستطراد المنطقى التى أشرت إليها من قبل، حتى لقد أحالت كثيراً منها إلى مجرد تصورات أو فروض ذهنية ليس لها ما يصدقها من الناحية الواقعية.

ولعله من المهم أن أوضح هذا الكلام بشىء من التفصيل من خلال المراجعات التالية:

يشرك بالله من أمته شيئاً المقْحِمَات) صحيح مسلم كتاب الإيمان. باب فى ذكر سدرة المنتهى ٥/٢ رقم ١٧٣، والترمذى كتاب تفسير القرآن باب من سورة النجم وقال: حديث حسن صحيح ٥/ ٢٣٠ رقم ٣٢٧٦، والنسائى كتاب الصلاة باب فرض الصلاة ١/ ٣٢٣: ٣٢٤، وقوله: (انتهى به إلى سدرة المنتهى وهى فى السماء السادسة)، قال الإمام النووى: (كذا هو فى جميع الأصول (السادسة) وقد تقدم فى الروايات الأخر من حديث أنس أنها فوق السماء السابعة، قال القاضى: كونها فى السابعة هو الأصح، وقول الأكثرين، وهو الذى يقتضيه المعنى، وتسميتها بالمنتهى. قلت: ويمكن أن يجمع بينهما فيكون أصلها فى السادسة، ومعظمها فى السابعة، فقد علم أنها فى نهاية من العظم. وقد قال الخليلى رحمه الله: هى سدرة فى السماء السابعة قد أظلت السموات والجنة، قوله: (وغفر لمن لم يشرك بالله من أمته شيئاً من المُقْحِمات) هو بضم الميم وإسكان القاف وكسر الحاء، ومعناه: الذنوب العظام الكبائر= التى تهلك أصحابها وتوردهم النار وتقحمهم إياها، والتَّقَحُّم الوقوع فى المهالك، ومعنى الكلام: من مات من هذه الأمة غير مشرك بالله غفر له المقحمات ... إلخ. شرح مسلم للنووى ٢/ ٦.

[1] ينظر: الإتقان ١/ ٣١.

١ـ ما نزل بمكة وحكمه مدنى وما نزل بالمدينة وحكمه مكى:

يتحدث الزركشى عن شواهد النوع الأول من هذا القسم فيقول: [ومنها قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ**...﴾ الآية (الحجرات: ١٣) ولها قصة يطول بذكرها الكتاب ونزولها بمكة يوم فتحها، وهى مدنية لأنها نزلت بعد الهجرة، ومنها قوله فى المائدة: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ**﴾ إلى قوله: ﴿**الْخَاسِرِينَ**﴾ (المائدة: من ٣: ٥) نزلت يوم الجمعة والناس وقوف بعرفات، فَبَرَكَت ناقة النبى ﷺ من هَيْبَةِ القرآن، وهى مدنية لنزولها بعد الهجرة، وهى عدة آيات يطول ذكرها][(١)].

ويتضح من واقع هذه الشواهد أن هذا النوع الذى تدل عليه مقبول، حيث إنها تختص بآيات أنزلت بمكة أو ضواحيها بعد الهجرة، فهى آيات مكية من حيث المكان لكنها مدنية فى حقيقة الأمر حسب المفهوم الأضبط الذى سبق ارتضاؤه فى تعريف المكى والمدنى.

وعن شواهد النوع الثانى من هذا القسم يقول: [منه الممتحنة إلى آخرها، وهى قصة حاطب بن أبى بلتعة[(٢)] وسارة، والكتاب الذى دفعه إليها ـ وقصتها مشهورة[(٣)] فخاطب بها أهل مكة. ومنها قوله تعالى فى سورة النحل: ﴿**وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي اللّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ** ...﴾ (النحل: ٤١)، إلى آخر السورة، مدنيات، يخاطب بها أهل مكة، ومنها سورة الرعد يخاطب بها أهل مكة، وهى مدنية، ومن أول براءة إلى قوله: ﴿**إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ**﴾ (التوبة: ٢٨)، خطاب لمشركى مكة وهى مدنية.

فهذه الشواهد لا تدل على أن هذا النوع يقابل النوع الأول مقابلة صحيحة حقيقية، لأن الشواهد الأولى مكية من حيث المكان ومدنية من حيث الزمان، ولكى يصح التقابل يجب أن تكون الشواهد الثانية أيضاً مدنية من حيث المكان ومكية من حيث الزمان، لكنه لما كان ذلك مستحيلاً لتقدم المرحلة المكية زمنياً على المرحلة المدنية اضْطُرَّ الإمام الزركشى ـ لِكَىْ تَصِحَّ المقابلة التى اصطنعها ـ لأن يأتى بهذه الشواهد.

والوجه فيها أنها كلها مدنية ـ حسب نَصِّ كلامه، ومادامت كذلك فلا يمكن انتماؤها لغير المرحلة المدنية، لكن الإمام الزركشى لكى يجعل حكمها مكياً على سبيل التَّخلُّص قال إنها تخاطب أهل مكة، وبذلك يكون تحديد المكى عنده فى هذا النوع الثانى حسب معيار المخاطبين، مع أن هذا التحديد فى النوع الأول كان حسب المعيار الزمانى، وشَتَّانَ ما بَيْنَ المعيارين.

وأقول إنه ـ رحمه الله ـ قد اضطُر إلى ذلك على سبيل التخلص فَلَوى عُنُق مدلولات بعض السور القرآنية ليؤيد رأياً حيث قال: إن سورة الممتحنة إلى آخرها يخاطب الله بها أهل مكة، ومن يراجع آيات السورة وملابسات نزولها لا يجد إلا أنها كلها من أولها إلى آخرها مُوَجَّهة إلى المؤمنين بالمدينة، وإلى الرسول ﷺ.

صحيح أن القضايا التى تعالجها لها صلة بمشركى مكة ككثير من السور المدنية الأخرى، لكن الدروس التى تَضَمَّنَتْها مُوَجَّهَة ـ لفظاً ومعنى ـ إلى المؤمنين والرسول ﷺ ...، وهذه مطالع بعض آياتها: ﴿ **يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ** ...﴾ ﴿**إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً** ...﴾ ﴿ **لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ** ...﴾ ﴿ **قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ** ...﴾ ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ** ...﴾ ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ** ...﴾.

وما اضطُر إليه الإمام الزركشى بشأن هذه السورة يكاد يَصْدُقُ أيضاً على كلامه أيضاً عن سورة براءة، فما أشار إليه من تعلق آيات السور أيضاً بمشركى مكة، وقد يتوجه إليهم بالخطاب أحياناً قليلة، إنما هو فى حقيقته توجيهات مباشرة للرسول والمؤمنين يتعلق أغلبها بقضية معاهداتهم وعلاقاتهم الواجبة مع المشركين فى آخر مراحل الدعوة، وذلك على شاكلة هذه الآيات: ﴿**بَرَاءةٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللّهِ وَأَنَّ اللّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ وَأَذَانٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾** (الآيات من ١: ٤). وكما فى الآيات أيضاً: ﴿**لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ**

---

(١) البرهان: ١/ ٢٩١.

(٢) هو حاطب بن أبى بلتعة اللخمى، شهد المشاهد كلها مع الرسول ﷺ وأحد الرماة الشجعان فى الجاهلية، حمل كتاب النبى ﷺ إلى المقوقس، توفى فى المدينة. ينظر: السيرة النبوية لابن هشام ٤/ ١٦ بتحقيق: الشيخ محمد محيى الدين، مطبعة حجازى، سنة ١٣٥٦هـ، الإصابة: ١/ ٣٠٠.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٤/ ١٦.

الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَإِن نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ (الآيات من ١٠: ١٢).

أما ما ذكره عن سورة (الرعد): فإن هذه السورة نفسها من المختلف عليه بين المكى والمدنى[١] والطابع المكى واضح فيها بالفعل وفْقَ خصائص المكى، ومع التسليم بأنها مدنية، فلا أقول بأنها مدنية وحكمها مكى كما قال الإمام الزركشى، بَلِ الأَوْلَى أن يقال إنها مما يشبه المكى فى المدنى، وهو نوع حقيقى يُعْتَدُّ به من أنواع المكى والمدنى. **وكذلك الأمر** بشأن الآيات التى أشار -رحمه الله - إليها فى سورة (النحل)، فإنَّ الأَوْلَىَ لو سُلِّم بمدنيتها أن تدخل ضمن النوع السابق، حيث إن طوابع المكى واضحة فيها وفى سورتها كلها بوجه عام.

٢- ما نزل بمكة فى أهل المدينة وما نزل بالمدينة فى أهل مكة:

هذا قسم مُتَكَلَّف أيضاً، ومن اليسير إدراك ذلك فى ضوء الكلام على القسم السابق، فإن نزول شىء من القرآن بالمدينة متعلقاً بأهل مكة أمر متوقع وطبيعى تماماً، باعتبار أنهم كانوا لا يزالون طرفاً حَيّاً فاعلاً فى الصراع الدائر بين الكفر والإيمان، فالهجرة وآثارها، والغزوات ونتائجها، ومعاهدات الكفار مع المسلمين، وفتح مكة كل ذلك وغيره قد تنزَّل فيه كثير من القرآن فى الفترة المدنية.

فإذا ذهبنا إلى ما يقابل هذا النوع وهو ما نزل بمكة فى أهل المدينة أَعْوَزَتْنَا الشواهد التى تَصْدُقه، ووجدنا أنفسنا أمام عنوان لا شىء وراءه، لأن الدعوة قبل الهجرة لم يكن لها احتكاك مباشر يُذْكر بأهل المدينة، اللهم إلا ما يشبه احتكاكها بكل العرب أو بكل الناس الذين يتوجه القرآن إليهم من مُنْطَلَق عالمية الرسالة الأخيرة، وربما كان لهذه الدعوة نوع من الاحتكاك أيضاً بيهود المدينة من جهة لجوء المشركين إليهم أحياناً للاستعانة بهم من الناحية العلمية على مواجهة الرسول ﷺ[٢] أو من جهود استشهاد القرآن نفسه بهم على صدق دعوته[٣] لكن المواجهة الحقيقية معهم - على أى حال - لم تكن إلا فى المدينة كما أنهم أيضاً لم يكونوا وحدهم أهل المدينة.

والظاهر أن الذين وضعوا هذا القسم لم يجدوا ما يصدقه من الشواهد، ومن ثم فإن بعض العلماء قد أَغْفَلَ ذكره تماماً كالإمام الزركشى، وبعضهم اكتفى بذكره دون استدلال عليه كالإمام السيوطى وتبعهما فى ذلك كل الذين نقلوا عنهما.

٣- ما يشبه نزول المكى فى المدنى وما يشبه نزول المدنى فى المكى:

يقول الإمام الزركشى فى النوع الأول من هذا القسم: [ومن ذلك قوله تعالى فى الأنبياء: **﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾** (الآية: ١٧) نزلت فى نصارى نجران ومنهم السيد والعاقب. ومنها سورة: **﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً ﴾** فى رواية الحسن بن واقد[٤]، وقصتها مشهورة، ومنها قوله تعالى فى الأنفال: **﴿وَإِذْ قَالُواْ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ﴾** (الآية: ٣٢)[٥].

والذى يقصده الإمام الزركشى من هذا النوع أن هناك من القرآن الذى أُنزل فى الفترة المدنية ما يشبه فى خصائصه واهتماماته القرآن المكى، والشواهد السابقة التى ذكرها تدل على ذلك بالفعل، ففيها آية سورة الأنفال وهى من الآيات المختلف عليها بين المكى والمدنى لكنها على أى حال مدنية عند الزركشى والسيوطى[٦] كما أن مضمونها الذى يحكى ضلال المشركين وتماديهم فى الباطل واضح الشبه بالقرآن المكى، وفيها آية الأنبياء والتى اشتهرت عند المفسرين بأنها مكية كبقية سورتها، لكن الزركشى مع الذين يرون أنها مدنية نزلت -كما ذكر - فى نصارى نجران، وهى مع سورتها كلها واضحة الانتماء أيضاً إلى خصائص القرآن المكى، وفيها سورة العاديات التى قال بعض العلماء بمدنيتها[٧] وهى فى أهدافها وطابعها العام واضحة الشبه بالقرآن المكى.

---

[١] يراجع: الإتقان: ١/ ١٦.

[٢] وفى ذلك يقول الإمام ابن كثير فى مقام تفسيره لخبر ذى القرنين فى سورة الكهف: (وقد قدمنا أنه بعث كفار مكة إلى أهل الكتاب يسألون منهم ما يمتحنون به الرسول ﷺ فقالوا: سلوه عن رجل طواف فى الأرض، وعن فتية لا يدرى ما صنعوا، وعن الروح، فنزلت سورة الكهف) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/ ١٠٠ طبع ونشر: مكتبة التراث الإسلامى سوريا حلب.

[٣] يراجع فى ذلك الآية (٤٣) من سورة (الرعد)، والآية (١٠٧) من سورة (الإسراء).

[٤] هو الحسن بن واقد من العلماء العاملين، والقضاة النابهين، ولى قضاء مرو، توفى سنة ١٥٩هـ. ينظر: الكاشف للذهبى ١/ ٢٣٥ طبع: دار الكتب الحديثة.

[٥] البرهان ١/ ٢٩٣.

[٦] يراجع: الإتقان ١/ ١٩ و ٢٤.

[٧] ينظر: الإتقان ١/ ١٨.

وهذا النوع حقيقة لاشك فيها من حيث إن الدعوة تيارٌ متواصِلٌ لا يمكن أن يَنْقَطِع حاضرها عن ماضيها، وهى تنموا وتتنوع وتتسع حسب مقتضيات الواقع الذى تمر بمراحله المختلفة، لكنها - مع ذلك - تقوم على ركائز ثابتة لابد أن تستمر معها فى كل مرحلة، ولابد أن تعود هى من آنٍ لآخر إلى هذه الركائز لِتُذَكِّر بها أو تُرَسِّخها أو تطمئن إلى صلابتها.

وعلى ذلك فلا غرابة أن نجد فى كثير من السور المدنية خيوطاً موصولة بالسور المكية فى نفس قضاياها واهتماماتها، ولا غرابة أيضاً أن نجد هذه الخيوط تزداد كثافةً وتشابكاً فى بعض القرآن المدنى حتى تحيله إلى نسيج مكى خالص أو إلى المكى أقرب.

ولا يعنى أن شواهد هذا النوع تنحصر فيما ذكره الإمامان الزركشى والسيوطى من أمثلة قليلة، بل يوجد غيرها كثير، كسور: الرعد والحج والحديد والتغابن والإنسان والزلزلة بصرف النظر عما تتضمنه بعض هذه السور من آيات هى إلى خصائص المدنى أقرب، وبصرف النظر أيضاً عن كون كثير منها مما اختلف عليه بين المكى والمدنى[1].

أما النوع الثانى: وهو ما يشبه نزول المدنى فى المكى:

يقول الإمام الزركشى: [من ذلك قوله تعالى فى النجم: ﴿**الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ**﴾ (الآية: ٣٢) يعنى كل ذنب عاقبته النار، و﴿**الْفَوَاحِشَ**﴾ يعنى كل ذنب فيه حد، ﴿**إِلَّا اللَّمَمَ**﴾ وهو مابين الحدين من الذنوب، نزلت فى نبهان والمرأة التى راودها عن نفسها فأبت، والقصة مشهورة واستقرت الرواية بما قلنا، والدليل على صحته أنه لم يكن بمكة حد ولا غزو[2] ومنها قوله تعالى فى هود: ﴿**وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ**﴾ (الآية: ١١٤)، نزلت فى أبى مقبل الحسين بن عمرو بن قيس[3] والمرأة التى اشترت منه التَّمر، فراودها)[4].

هذا ما قابل به الإمام الجليل بين النوعين **وأرى** أنه لا يرقى إلى الاستقامة، إذا إن الشاهدين السابقين يتعلقان بآيتين من المختلف عليه بين المكى والمدنى، لكن الإمام الزركشى -كما يبدو من كلامه - مع القائلين: بأنهما مدنيتان، ولو جَارَيْنَاه فى رأيه فكيف يتسنَّى القول بأنهما مما يشبه المدنى فى المكى، وبمجرد القول بذلك فكأننا نقول إذا: إن الشىء يشبه نفسه!!

ولذلك فإن الوضع الصحيح لهذا النوع أن يكون ما يشبه المدنى فى المكى قرآنا مكياً بالفعل وإن أشبه المدنى لسَبَبٍ أوْ لآخر: كما كأن الذى يشبه المكى فى المدنى قرآناً مدنياً وإن أشبه المكى، وهذا واقع حقيقى - لا مجرد تخريج للتخلص من الإشكال - يمكن الاستشهاد له بنفس الآيتين السابقتين بأنهما مكيتان لا مدنيتان، وبنحوه من الآيات المستثناة فى السور المكية حيث تَثْبُت مكيتها[5].

٤- ما حُمِل من مكة إلى المدينة وما حُمِل من المدينة إلى مكة وما حُمِل من المدينة إلى أرض الحبشة:

يقول الإمام السيوطى فى هذه الأنواع: (ومثال ما حمل من مكة إلى المدينة سورة (يوسف) و (الإخلاص) قلت: و(سبح) لما تقدم فى حديث البخارى[6] ومثال ما حمل من المدينة إلى مكة: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ...**﴾ (البقرة: ٢١٧) وآية الربا (البقرة: ٢٧٨)، وصدر (براءة) وقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ**﴾ (النساء من ٩٧ : ١٠٠)، ومثال ما حمل إلى الحبشة: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاءٍ**﴾ (آل عمران من ٦٤ : ٦٨) قلت: صح حملها

---

[1] يراجع فى المختلف عليه بين المكى المدنى: الإتقان ١/ ١٥ وما بعدها.

[2] سبب قول هذا: ما ورد فى بعض الروايات من أن المرأة التى ذكرها قد وقعت مراودتها أثناء غياب زوجها فى إحدى الغزوات. ينظر: أسباب النزول للواحدى ٢٦٨ : ٢٦٩. تحقيق: السيد أحمد صقر، طبع: دار القبلة ١٤٠٤هـ.

[3] وقيل: إنها نزلت فى أبى اليُسْر بن عمرو، وقيل غيره: ينظر: الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبى ٩/ ٩٧ : ٩٨ طبع: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

[4] البرهان: ١/ ٢٩٢ : ٢٩٣.

[5] من هذه الآيات قوله تعالى فى سورة الأنعام: ﴿**قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ**﴾ (الآية: ١٥١) والتى بعدها، والآيات الثلاث الأخيرة من سورة النحل ﴿**وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ...**﴾ (الآية: ١٢٦) وما بعدها.

[6] هو ما أخرجه البخارى عن البراء بن عازب ﷺ قال: أول من قدم علينا من أصحاب النبى ﷺ مُصْعَب بن عمير وابن أمِّ مكتوم، فجعلا يقْرَئاننا القرآن، ثم جاء عَمَّار وبلال وسعد، ثم جاء عمر بن الخطاب فى عشرين، ثم جاء النبى ﷺ، فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشىء فرحهم به، حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون: هذا رسول الله ﷺ قد جاء، فما جاء حتى قرأت (سبح اسم ربك الأعلى) فى سورة مثلها، ينظر: الإتقان: ١/ ٩، وفتح البارى كتاب: التفسير. باب: سورة ﴿**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى**﴾ ٨/ ٥٦٩ حديث رقم ٤٩٤١.

إلى الروم، وينبغى أن يمثل لما حمل إلى الحبشة بسورة (مريم) فقد صحَّ أن جعفر ابن أبى طالب قرأها على النجاشى[١])[٢].

هذا ما أثبته الإمام السيوطى والذى شايع فيه الإمام الزركشى[٣] **وما أريد قوله** بشأن هذا القسم أن أنواعه السابقة صحيحةٌ فى حد ذاتها غير أن هذه الأنواع يَصْعُب حَصْرها أو ضَبْطها من الناحية التطبيقية، فإن ما حمل من القرآن الكريم إلى الجهات المذكورة فى كلام الإمام السيوطى ومن سبقه لا يقتصر قطعاً على الشواهد المذكورة، ولا يمكن حصره، لأن كل من انتقل من الصحابة إلى هذه الجهات كان معه قرآن كثيرا كان أم قليلاً، فالذين انتقلوا من مكة إلى المدينة - كما ذكروا فى حديث البخارى أو غيره - لا يعقل أن ما كان معهم من القرآن هو فقط ما ذكره الإمام السيوطى، ولا يمكن أصلاً تحديد ما كانوا يحفظونه منه، وكذلك الذين تَوجَّهوا إلى مكة لأداء الحج فى العام التاسع أو فى حجة الوداع أو فى غَيْرِ هاتين المناسبتين هل كان معهم من القرآن الكريم ما ذكره الإمام الجليل فقط، وهل يَبْعُد أنه كان معهم كل ما نزل من القرآن حتى وَقْتَ ذهابهم؟ هذا فضلاً عن أن القرآن الكريم لم يُحمل فقط إلى هذه الجهات المذكورة من قبل، بل حُمل إلى مواطن لا يمكن إحصاؤها خلال سنوات الدعوة كلها، إلا إذا تمكنا من إحصاء كل تَنَقُّلات الرسول ﷺ والصحابة ﷺ فى شتى الأماكن والأحوال، وإذا كنا نهتم بِتَتَبعُّ تنزلات القرآن فى شَتَّى أحوالها وملابساتها فلا معنى إذاً لقصر هذا الإهتمام على ما حمل إلى جهات بعينها دون جهات أخرى.

وبناءاً على كل ذلك فإن جميع أنواع هذا القسم وإن كان لها قيمتها التى لا تنكر- بلا شك - فى إطار الاهتمام بتاريخ القرآن وتَنَزُّلاته بوجه عام إلا أنها لا تعبر عن مباحث حقيقية داخل إطار علم المكى والمدنى.

وأخيراً فإن الذى ارتضيه فى مباحث المكى والمدنى ما يأتى:

١- معرفة ما نزل من القرآن فى الفترة المكية وما نزل فى الفترة المدنية.

٢- قضية المختلف عليه بين المكى والمدنى ٣- الآيات المدنيات فى السور المكية ٤- الآيات المكيات فى السور المدنية ٥- خصائص المكى وضوابطه الموضوعية والأسلوبية. **أما ما أجزته من أنواع أخرى** خلال التحليل للأقسام السابقة - وبخاصة القسم الثالث - فإن له أهمية أيضاً، على أنه من مسائل العلم أو قضاياه التى يصح تناولها ضمن أقرب المباحث إليها كلما دعت الحاجة إلى ذلك، وليس على أنه من المباحث الأساسية.

ولا يفوتنى أن أشير إلى أن الإثبات للنقطتين الثالثة والرابعة ضمن هذه النقاط التى ارتَضَيْتُها، لا يعَبِّر عن إقرارٍ نهائى بكل منها حيث إن مادتها الواردة فى كتب علوم القرآن مادة مُتَّسِعَة لا يمكن الْبَتُّ بشأنها فى هذا المبحث، وسوف يكون محل مناقشتها هو آخر مبحث من هذا البحث.

المطلب الثالث: أهمية دراسة المكى والمدنى

مما يلفت نظراً القارئ لكتابَىْ: (البرهان) و (الإتقان) حصر صاحبيهما فائدة العلم بالمكى والمدنى فى نطاق ضَيِّق جداً، فالإمام الزركشى لم يزد فى هذا المجال على قوله: (ومن فوائده معرفة الناسخ والمنسوخ)[٤] والإمام السيوطى لم يزد على قوله معرفة ذلك العلم بالمتأخر، فيكون ناسخاً، أو مخصصاً على رأى من يرى تأخير المخصص)[٥].

فأهم فوائد معرفة المكى والمدنى عندهما تنحصر فى إعانته على العلم بالناسخ والمنسوخ والمخصص والمخصوص، من حيث إن ذلك يعتمد أساساً على تحديد المتقدم والمتأخر من الآيات والسور، وهو الأمر الذى يَكْفُله علم المكى والمدنى.

ومن الذين أسهموا أيضاً فى صنع هذا النظام الضيق القاضى أبو بكر الباقلانى "ت ٤٠٣ هـ) [٦] فى (الانتصار للقرآن) حيث يقول: (فأما المكى والمدنى من القرآن فلا شبهة على عاقل فى حفظ الصحابة والجمهور منهم، إذ كانت حالهم وشأنهم فى حفظ القرآن وإعظامه، وقَدْرُه فى نفوسهم ما وصفناه لما نزل منه بمكة، ثم بالمدينة، والإحاطة بذلك، والأسباب والأحوال

---

[١] النجاشى هو: أصحمة بن أبحر، ملك الحبشة، واسمه بالعربية عطية، والنجائى لقب له. أسلم على عهد النبى ﷺ ولم يهاجر كان عوناً للمسلمين المهاجرين إلى الحبشة. مات فى عهد النبى ﷺ فصلى عليه بالناس صلاة الغائب، ينظر: أسد الغابة: ١/ ١٥٣، سير أعلام النبلاء ١/ ٤٢٨ : ٤٤٣، والإصابة ١/ ١١٧.

والأثر: أخرجه الإمام أحمد فى المسند ١/ ٢٠٢: ٢٠٣، والبيهقى فى باب الأسير يستعين به المشركون على قتال المشركين، السنن الكبرى ٩/ ١٤٤ برقم ١٨٢٠٧.

[٢] الإتقان ١/ ٢٤.

[٣] يراجع البرهان ١/ ٣٠٢ : ٣٠٤.

[٤] البرهان: ١/ ٢٨٠.

[٥] الإتقان ١/ ١١، وقد جاء فى موضع آخر من الإتقان ٢/ ٢٢ قول الإمام السيوطى: (والمخصص قد يكون متصلاً بالمخصوص فى نفس الآية أو السياق، وقد يكون منفصلاً عنه، بأن يكون آية أخرى فى مَحَلٍّ آخر أو حديثاً أو إجماعاً أو قياساً) فالظاهر أن المراد بتأخير المخصص فى هذا الكلام هو انفصاله عن المخصوص.

[٦] ينظر: ترجمته فى: تاريخ بغداد ٥/ ٣٧٩ - ٣٨٣، وسير أعلام النبلاء١٩٠/١٧: ١٩٣، وشذرات الذهب ٣/ ١٦٨ - ١٧٠.

التى نزل فيها ولأجلها، كما أنه لابد فى العادة من معرفة مُعَظِمٍ[1] العالم، والشاعر، والخطيب، وأهل الحرص على حفظ كلامه، ومعرفة كُتُبه ومُصَنَّفاته، من أن يعرفوا ما نَظَمَه وصَنَّفه أولاً وآخراً، وحال القرآن فى ذلك أمْثَل، والحرص عليه أشَدُّ، غير أنه لم يكن من النبى ﷺ فى ذلك قولٌ أو نصٌ، ولا قال أحد ولا رَوَى: أنه جمعهم، أو فرقة عظيمة منهم تقوم بهم الحجة وقال: اعلموا أن قَدْر ما أُنْزِل علىَّ من القرآن بمكة هو كذا وكذا، وأن ما أُنزِلْ بالمدينة كذا وكذا، وفصَّله لهم، وألزمهم معرفته، ولو كان ذلك منه لظهر وانتشر، وعُرِفَت الحالُ فيه، وإنما عدل ﷺ عن ذلك لأنه مما لم يُؤْمَرْ به، ولم يجعل الله - تعالى - عِلْمَ ذلك من فرائض الأمة، وإن وجب فى بعضه على أهل العلم فى معرفة تاريخ الناسخ والمنسوخ، ليُعْرَفَ الحُكْمُ الذى ضُمِنَّها، وقد يُعْرَف ذلك بغير نص الرسول بعينه)[2].

فهو -رحمه الله - لا يرى فيما يوجب الاهتمام بالمكى والمدنى سوى ما يعين عليه من معرفة تاريخ الناسخ والمنسوخ[3]، وذلك من قوله فى آخر كلامه السابق: (فقد يعرف ذلك بغير نص الرسولﷺ والذى معناه أن معرفة الناسخ والمنسوخ وإن كانت واجبة فإنه لا يشترط لتحصيلها نصوص مرفوعة إلى الرسول ﷺ بل يكفى فى شأنها ما ورد عن الصحابة والتابعين.

ويظهر أن أساس رأيه هو عدم وجود أقوال مباشرة من الرسول ﷺ فى بيان المكى والمدنى، وهو ما دعاه إلى القول بأنه لم يؤمر بهذا البيان، وبأن العلم بالمكى والمدنى ليس من فرائض الأمة.

وأقول: بأن الرسول ﷺ لم تَرِدْ عنه أقوالُ مباشرة مُسْتَفيضة بشأن كل علوم القرآن، وليس فقط بشأن المكى والمدنى، فالمعلوم أنه لم يكن يفسر لأصحابه كتاب الله آية أية، وإنما كان يُوَضِّح لهم فقط ما يشكل عليهم منه، أو إذا بادروه هم بالسؤال عن بعض مشكلاته[4].

وعليه فليس معنى ذلك ألا يكون تحصيل هذه العلوم من فرائض الأمة كما قال القاضى عن المكى والمدنى، وإنما الصحيح أنه من فروض الكفاية على الأقل، وإلا فكيف يعرف الناس أحكام دينهم - عقيدة وشريعة - دون علم بكتاب الله، ولو كان الأمر كما قال القاضى ما تنافس كثير من الصحابة والتابعين فى تَتَبُّع كل ما يعينهم على فهم كتاب الله[5].

لذا فإن أهمية دراسة المكى والمدنى أعظم بكثير مما ذكره القاضى ومن شايعه، لأن النص القرآنى هو الذى غير وجه التاريخ، فصنع أمة لم يكن لها قَبْلُهُ وجود بين الأمم، وَقَوَّضَ أمماً كانت على عهده أعظم الأمم، ولا يمكن معرفة هذا التغيير وكيفيته إلا بالخوض فى علوم ومباحث متعددة، أهمها العلم الدقيق بتاريخ النص القرآنى والمراحل الزمنية التى مر بها، لكى نقوم بعملية مطابقة بين هذا التاريخ وتاريخ الواقع نفسه، واقع بيئة الدعوة وما حولها، وواقع الدعوة ذاتها من ناحية أحداثها وظروفها التفصيلية، وواقع الداعية نفسه المتمثل فى سيرته للوصول إلى معرفة كيف تَعَامَلَ وعَالَجَ أو تَفَاعَلَ أو وَجَّهَ القرآن الكريم هذا الواقع بجميع أنواعه حتى انتهى إلى ما إنتهى إليه من بناء الأمة التى بناها، وما أحدثه من التغيير العظيم.

هذه هى الفائدة فى -رأيى - من وراء دراسة المكى والمدنى إنها الإحاطة بفقه التغيير يضاف إليها فائدة أخرى تلازمها ولا تقل أهمية عنها، وهى فقه الكتاب نفسه الذى قاد هذه المسيرة المباركة وأحدث ما أحدث من التغيير.

وأوضح أهم فوائد هذه الدراسة فى النقاط التالية:

١- التعرف على المنهج الأمثل فى الدعوة إلى الله، وفق خطواته ومراحله التى يتحتم أن يمر بها منذ البداية إلى النهاية.

٢- تَبْيين الأركان التى يرتكز عليها هذا المنهج، ويبدأ ببنائها وتثبيتها قبل أن يبنى عليها بقية الجوانب والتنظيمات، وهى أركان العقيدة وقضاياها التى استغرقت معظم اهتمامات القرآن فى الفترة المكية.

٣- التعرف على حقيقة المنهج التربوى للقرآن الكريم الذى استطاع أن يُحَوِّل العرب من أمة جاهلية تستمد حياتها من أفكار البشر وأهوائهم إلى أمة ربانية تستمد حياتها من منهج الله - ﷻ - وذلك عن طريق التَّتَبُّع الزمنى للتنزُّلات القرآنية وملابساتها الواقعية.

---

[1] فى البرهان ١/ ٢٨٦، معظمى، ولعل ذلك من خطأ النُّسَّاخ.

[2] الانتصار للقرآن للقاضى أبى بكر محمد بن الطيب الباقلانى ١/ ٢٦٤ تقديم وتحقيق وتعليق: عمر حسن القيام، طبع: مؤسسة الرسالة، ونقله الزركشى بتَصَرُّفٍ ملحوظ فى البرهان ١/ ٢٨٦، وكذلك السيوطى فى الإتقان ١/ ١٢.

[3] فقوله فى آخر كلامه: (فقد يعرف ذلك بغير نص الرسول بعينه) معناه: أن معرفة الناسخ والمنسوخ وإن كانت واجبة فإنه لا يشترط لتحصيلها نصوص مرفوعة إلى الرسول ﷺ، بل يكفى بشأنها ما ورد عن الصحابة والتابعين.

[4] ولو كان الأمر بخلاف ذلك لأثر عنه ﷺ تفسير شامل للقرآن، لكن المأثور عنه فى ذلك متفرقات متناثرة فى كتب السنة والتفسير، ولم تعرف تعرف التفاسير الشاملة عموماً إلا بعد عصر الصحابة والتابعين.

[5] وهذا ما يُصَوِّرُه -على سبيل المثال - قول ابن مسعود: ﴿والذى لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت وأين نزلت، ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله منى تناله المطايا لأتيته) وقول مجاهد: (عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات أقف عند كل آية منه وأسأله عنها فيما نزلت وكيف كانت) ينظر: الإتقان: النوع الثمانين ٢/ ٢٣٩/ ٢٤٣.

٤- ترسيخ القواعد الأساسية التى لابد منها فى أداء المهمة التربوية وهى التى تتمثل فى فهم حقيقة النفس الإنسانية، وسلوك سبيل التدرج فى معالجتها وتغييرها من ناحية أخرى.
٥- الإحاطة بكثير من جوانب هذه النفس وَبأمْثل الطرق فى خطابها والتفاعل معها فى مختلف حالاتها فى ضوء ما يقدمه القرآن فى كل ذلك.
٦- المساعدة على تبيين الحقيقة فى قضية الثوابت والمتغيرات[١] التى يتلاعب بها أعداء الإسلام كثيرا للحيلولة دون عودته إلى قيادة الحياة، والتى يضطرب بشأنها المسلمون أنفسهم فى أحيان كثيرة، فيضطربوا بالتالى فى سلوك الطريق الأمثل إلى هذه العودة .... وهذا كله لا يتبين إلا من خلال مصاحبة القرآن وكيفية تعامله مع الواقع فى كافة مراحل تنزله.
٧- المساعدة على فَهْمٍ أدق لخصائص الخطاب القرآنى ومقاصده الإجمالية والتفصيلية من منطلق الارتباط الوثيق بين هذه الخصائص والمقاصد وبين تاريخ الدعوة بكافة ملابساته وتطوراته فى مرحلتيه المكية والمدنية.
٨- الإسهام فى إثراء المباحث الخاصة بإعجاز القرآن، وذلك بالتوصل إلى نتائج مخصوصة لا يمكن التوصل إليها إلا بدراسة القرآن الكريم دراسة موضوعية وأسلوبية فى ظل هاتين المرحلتين المتميزتين، نصل من خلالها إلى معرفة كيفية معالجة القرآن لقضاياه بطريقة فريدة تتلاءم وطبيعة كل مرحلة، وكيفية تَمَيُّز قاموسه اللغوى تَمَيُّزاً فريداً أيضاً حسب خصائص كل منهما وحسبما يلائم هذه الخصائص من أساليب لغوية متنوعة.

المطلب الرابع: طرق العلم بالمكى والمدنى:

بعد أن ذكرت كلام القاضى الباقلانى الذى قرر فيه أن معرفة المكى والمدنى إنما ترجع الصحابة والتابعين، وهذا المرجع يجب أن يكون هو الطريق الأساسى فى تحديد المكى والمدنى من القرآن، على اعتبار أن من عايشوا التنزيل ومواطنه وكافة ملابساته هم المصدر الأوثق فى هذا التحديد، وعلى اعتبار أن هذا المصدر هو الفيصل أيضاً فيما يَشْكُل تحديده بسبب شبهة فى الخصائص بأحد النوعين، فترجح الرواية - فى حال صحتها - إن كان ينتمى حقاً إلى النوع الذى يشبهه أم أن علاقته به هى مجرد التشابه.

مع هذا فإن العلماء لم يكتفوا بالطريق السابق، وإنما جمعوا إلى جانبه الطريق القياسى الذى يعتمد على الاجتهاد فى تحديد المكى والمدنى حسب الخصائص الموضوعية والأسلوبية للقرآن الكريم، فإن تَبَيَّنَ أن هذه الخصائص أقرب إلى مقتضيات الدعوة ووقائعها بعد الهجرة كانت السورة أو الآية مكية، وإن كانت أقرب إلى مقتضياتها ووقائعها بعد الهجرة كانت السورة أو الآية مدنية.

فيقول الجعبرى ت ٧٣٢هـ[٢] (لمعرفة المكى والمدنى طريقان: سماعى وقياسى)[٣] ويقول الزركشى أيضاً: (... وكذلك الصحابة والتابعون ومن بعدهم لمَّا لم يعتبروا أن من فرائض الدين تفصيل جميع المكى والمدنى مما لا يسوغ الجهل به، لم تتوفر الدواعى على إخبارهم به ومواصلة ذكره على أسماعهم، وأخذهم بمعرفته، وإذا كان كذلك ساغ أن يُخْتَلف فى بعض القرآن هل هو مكى أو مدنى، وأن يُعْمِلوا فى القول بذلك ضرباً من الرأى والاجتهاد)[٤]. والزركشى -رحمه الله - فى مبررات النتيجة التى انتهى إليها إذ يرى أن الصحابة والتابعين ﷺ لم يجدوا ما يدعوهم إلى تفصيل كل ما يتعلق بتحديد المكى والمدنى، مما أدى إلى اختلاف العلماء بشأن هذا التحديد واستعانتهم فيه بالرأى والاجتهاد، أسس كلامه على رأى أبى بكر الباقلانى الذى سبق تفنيده[٥]، كما سبق أيضاً توضيح اهتمام الصحابة والتابعين بتحصيل كل ما يعنيهم على فهم كتاب الله، ومنه بالطبع بالطبع المكى والمدنى.

---

[١] هناك ثوابت لا تقبل التغيير أو التطوير، كالمبادئ العقدية والأخلاقية، وهناك أمور يتوقف التغيير فيها أو الثبات على طبيعة الواقع نفسه، كالأحكام والأنظمة العملية التى تصلح فى= وقت دون وقت وفى بيئة دون بيئة حسب أحوال الواقع ومقتضياته ومستوى تهيئته، وهذا النوع خاصة هو الذى يظهر فيه تلاعب أعداء الإسلام ليصلوا من خلاله إلى ما يريدون، وهو التَّحلّل من أحكام الشرع بدعوى التَّلاؤُم مع الواقع، وشَتَّان ما بين ذلك وبين التدرج فى تطبيق هذه الأحكام وفق مقتضيات الواقع، أو تهيئة هذا الواقع بمنهجٍ مَرْسُومٍ حتى يتقبل فى النهاية هذه الأحكام كاملة غير منقوصة، وهناك أمور سكت عنها الشرع تماماً وأوكلها إلى الإنسان يُغَيِّرُ فيها ويُطَوِّر كيفما يشاء حسب إمكاناته واجتهاداته الخاصة طالما أنه فى ذلك لا يُصَادم شيئاً من حدود هذا الشرع أو توجيهاته.

[٢] هو إبراهيم بن عمر بن إبراهيم بن خليل الجعبرى، أبو إسحاق، من علماء الفقه والقراءات ومن كتبه: نزهة البررة فى القراءات العشرة، وحديقة الزهر، والروضة. مات ببلدة الخليل بفلسطين سنة ٧٣٢هـ. ينظر: البداية والنهاية ١٤/ ١٦٠، الدرر الكامنة ١/ ٥٠، الأعلام ٥٦/١.

[٣] ينظر: البرهان ٢/ ٢٨٢، والإتقان ١/ ٢٣.

[٤] ينظر: البرهان ٢/ ٢٨٦ - ٢٨٧.

[٥] يراجع ص ٢٨ وما بعدها.

والحق أن عِلَّة الاختلاف والاجتهاد المذكورين فى آخر كلام الزركشى ترجع إلى أمرين:

أولهما: تعدد الروايات المتعلقة بتحديد المكى والمدنى، مع تفاوت أسانيدها قوة وضعفاً، كما هو الشأن فى كل ما يعتمد على الرواية، **وثانيهما:** أن الصحابة والتابعين أنفسهم - الذين نقلت عنهم هذه الروايات - كانوا طبقات ودرجات متفاوتة فى فقههم وعلمهم بكتاب الله -ﷻ - ... وهذا معروف ومُسْتَفيض[1].

وبناءاً على ذلك، فإن العلم بالمكى والمدنى لا يمكن أن يعتمد على مجرد النقل، بل لابد فيه من إعمال الرأى والاجتهاد من ناحيتين: **أولاهما**: تتعلق بالموازنة والترجيح بين الروايات فى حد ذاتها، و**الثانية**: تتعلق بالاستفادة من دراسة خصائص القرآن الموضوعية والأسلوبية المرتبطة بتاريخ الدعوة لاستخلاص أهم الضوابط الكاشفة - على سبيل القطع أو الترجيح - لحقيقة انتماء النص إلى المرحلة المكية أو إلى المرحلة المدنية.

[1] يراجع كثيراً من الشواهد على ذلك فى حديث الإمام السيوطى عن طبقات المفسرين بالإتقان ٢/ ٢٣٩ وما بعدها.

المبحث الثانى
تمهيد: (الدعوة والواقع المكى)

الذى أعنيه بالخصائص الموضوعية للقرآن المكى أو المدنى هو أهداف كل نوع واهتماماته العامة، بصرف النظر عن تفاوت سوره أو تمايزها فى طبيعة صلة كل منها بهذه الأهداف والاهتمامات أو فى التركيز على شىء منها دون سواه، وبصرف النظر أيضاً عما يكون فى بعض سور أحد النوعين من آيات منزلة أو شبيهة بالمنزلة فى الفترة الزمنية للنوع الآخر، فلست أعنى بتحليل كل سورة أو آية على حدة، بل بالخصائص العامة للنوع كله. هذا من جهة ومن جهة أخرى أوضح أن تَفَهُّم الخصائص الموضوعية لأى من النوعين يُعَدُّ انعكاساً مباشراً لتفهُّم حقيقة أخرى، وهى حقيقة مواكبة القرآن للدعوة فى خططها ومواجهاتها التى تتنوع وتتطور حسب طبيعة الواقع الذى عاشته هذه الدعوة قبل الهجرة وبعدها.

لذا أرى أنه لابد قبل الخوض فى الخصائص الموضوعية للقرآن المكى من الإشارة إلى طبيعة الواقع الذى واجهته الدعوة الإسلامية قبل الهجرة، فأوضح أن أهم ملامح هذا الواقع تتمثل فى جاهلية البيئة العربية التى تَنَزَّل فيها القرآن، والجاهلية فى بيئة ما تعنى باختصار أن النظام المسيطر على الحياة فيها لا يرتكز على منهج إلهى منزل من عند الله، يُنَظِّمُ للناس حياتهم فكراً واعتقادا وشريعة وسلوكاً، وإنما يرتكز على المناهج والاتجاهات البشرية وحدها بصرف النظر عن خلط هذه المناهج أحياناً ببعض الشرائع الإلهية، وبصرف النظر أيضاً عن وجود بعض المتمسكين بمنهج الله فى هذه البيئة الجاهلية، فإن هذا الخلط لا يعدو أن يكون نوعا من الترقيع الذى لا يجدى شيئاً فى تبديل طبيعة المنهج، كما أن وجود مثل هؤلاء المتمسكين أيضاً لا يعدوا أن يكون مجرد ظواهر فردية لا تؤثر بشىء على الطابع العام للمجتمع مَثَّلهُم فى ذلك مثل المتَحَنِّفَة الموحدين المتمسكين بدين إبراهيم عليه السلام فى الجاهلية العربية الأولى.

ونظراً لهذا الواقع، فإنه كان لابد للدعوة الإسلامية الأولى أن تسلك طريقها وفق خطة معينة ومراحل محددة، وكان لابد للقرآن المكى الذى يحكم هذه الدعوة ويقودها أن يحمل أيضاً خصائص مميزة من الناحيتين الموضوعية والأسلوبية.

وأبدأ فى هذا المبحث ببيان أهم خصائصه الموضوعية من خلال المطالب التالية:

المطلب الأول: الخصائص المتعلقة ببناء العقيدة:

من أبرز خصائص القرآن المكى - إن لم تكن هى الخاصية الأساسية - الاهتمام ببناء العقيدة الصحيحة وترسيخها فى النفوس، وذلك لأن العقيدة هى المبادئ والتصورات الأساسية التى يَقْتَنِع بها كل إنسان فيما يتعلق بالكون والحياة، وهى التى يَتَوَجَّه ويَتَصَرَّف بناءً عليها فى جميع أحواله وتصرفاته، ومن ثم فإن توجهه وتصرفه إنما يكون صحيحاً إذا صحت عقيدته.

ويمكن ملاحظة ذلك من خلال التفاصيل أو الخصائص الفرعية التالية:

١- مواجهة العقائد والتصورات الباطلة لكشف زيفها ودحضها وإقامة العقيدة الصحيحة مكانها، وهذه سُنَّةٌ كونية حَتْمية، حيث إن النفس الإنسانية كيان واحد متداخل لا يجوز فيه فصل جانب عن آخر، والقرآن قد تجاوب مع طبيعة هذه النفس تجاوباً معجزاً، حيث قام بالأمرين معاً فى خَطَّينْ متوازيَيْن أو مُمْتَزِجَيْن: خَطُّ الهدم والتَّطْهير من ناحية وخَطُّ البناء والتَّصْحِيح من ناحيةٍ أخرى، وذلك بأساليب متنوعة حسب أهداف كل سورة وما يلائمها من الطرائق التعبيرية. **ومن أمثلة ذلك** قوله تعالى: ﴿**تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً .... وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُوراً**﴾ (الفرقان: الآيات ١: ٣) وقوله تعالى: ﴿**وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ... وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ**﴾ (يس من ٧٨ : ٨١)، وقوله تعالى: ﴿ **لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ... وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى**﴾ (النجم : من ١٨ : ٢٣).

٢- توضيح الأركان الأساسية للعقيدة الإسلامية، وهى: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والْقَدَرِ خَيْرِه وشَرِّه ..، وهى الأركان التى تجيب المسلم عن الأسئلة الأساسية التى تُشْغِل كل إنسان من أين جاء؟ ولماذا؟ وإلى أين؟ فَتُوِّضح هذه الأركان أن مَصْدَرَ الكون كله - بما فيه الإنسان - هو الله سبحانه، وأن هذا الإنسان لم يوجد ليتمتع بشهواته كبقية الحيوانات، وإنما ليكون عابداً لربه وفْقَ المفهوم الشامل للعبادة الذى يعنى أن تكون الحياة بكل حركاتها وأنشطتها وأنظمتها قائمة وفْقَ منهج الله، وهذا المنهج هو الذى يتعلمه البشر عن طريق رسالات أو كتب يأتى بها الأنبياء، الذين يَتَلَقَّوْنَها -بدَوْرِهم - على يَدَىْ ملكٍ مُرْسل من عند الله، ثم يكون الحساب على هذا المنهج فى اليوم الآخر الذى تَتَحَدَّدُ فيه مصائر الناس وفْقَ نتيجة هذا الحساب، وهذا الذى ذُكِرُكله من الخلق والابتلاء والحساب إنَّمَا تَمّ بإرادة الله التى تُهَيْمن على كل شىء دون أن تَتَعارضَ فى الوقت نفسه مع إرادة الإنسان الحرة، حيث إن خَوْضَ الابتلاء والمحاسبة عليه لا

يَتَأَتَّيَان أصْلاً إلا مع وجود هذه الإرادة[1]، ولا تكاد سورة مكية تخلوا من معالجة رُكْن أو أكثر من هذه الأركان التى ذكرتها، بإجمال أو بإسهاب، وبتلميح أو بتصريح، حسب طبيعة الأهداف التى تركز عليها السورة وحسب طبيعة بنائها طولاً أو قصراً.

٣- التركيز الشديد على قضية توحيد الله تعالى بالعبادة، فلقد جادلت السور المكية كثيراً الملحدين المنكرين لوجود الخالق، كما وَجَّهَت الأنظار كثيراً إلى صفات هذا الخالق ﷻ لكنها لم تكن تهتم بكل ذلك لذاته، وإنما لتقود إلى شىء آخر، وهو إخلاص التوجُّه إلى الله سبحانه.

وبيان ذلك هو: أن البشر فى أى زمن لا يَنْقُصُهم العلم والإقرار بوجود الله -(ﷻ)-، وبأنه هو وحده الرب الخالق الرازق المحيى المميت الذى بيده ملكوت كل شىء، لكن الذى يَنْقُصُهم هو أن يتعبدوا بمقتضى الإقرار، أى يجعلوا تَوَجُّهَهُم خالصاً لله وحده فى الخضوع والانقياد والاستعانة والتمجيد والتشريع. وهذا ما يُظْهِرُه لنا القرآن الكريم عندما يتحدث عن المشركين فى الجاهلية إذ يقول: ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ**﴾ (العنكبوت: ٦١)[2] فمع قولهم هذا هم كفار، لعدم تحقيقهم مقتضى هذا القول، وهو إخلاص العبادة لله سبحانه، ومع أنهم أيضاً كانوا ينطقون بهذا القول، إلا أنهم - فى الوقت نفسه كانوا يرفضون النطق بكلمة لا إله إلا الله ﴿**إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ**﴾ (الصافات: ٣٥) لأن هذه الكلمة لا تساوى عندهم لا خالق أو لا رازق أو لا محيى أو لا مميت، وإنما تساوى لا معبود بحق إلا الله، وهذا هو معناها الصحيح[3] أى لا يستحق التوجه الخالص فى كل ألوان العبادة إلا الله، وهو الأمر الذى يرفضونه لتظل أهواؤهم وشهواتهم مُنْطَلِقَةً وفْقَ ما يريدون لا وفق منهج الله تعالى.

وفى ضوء ذلك يُفْهَم مثل قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ**﴾ (الأنبياء: ٢٥) أن مهمة جميع الرسل كانت فى المقام الأول الدعوة إلى هذه الكلمة، وَأَنَّ صراعهم مع أعدائهم إنما كان حول هذه الكلمة، وفْقَ مفهومها هذا الذى أدركه مشركوا الجاهلية.

المطلب الثانى: الخصائص المتعلقة بأسلوب الدعوة:

إن أسلوب الدعوة فى أى مرحلة إنما يتحدد -فى المقام الأول - بناء على نَوْع العقبات التى تواجهها والأعداء الذين يتربصون بها، وقد كان مشركوا العرب فى الفترة المكية هم العَدُوَّ الأول وهم العقبة الأساسية فى وجه الرسالة الخاتمة، ولم يكونوا هم العدو فقط من ناحية نوع عقائدهم الباطلة التى واجهها القرآن الكريم فى هذه الفترة كما هو فى المطلب السابق، بل كانوا هم العدو أيضاً بجبروتهم وبمحاولات قمعهم النفسية والبدنية للرسول ﷺ وأصحابه، فهم كانوا لا يتوانَوْن عن الطعن فى صِدْقِه وصِدْق الكتاب الذى جاء به، ولا عن الاستهزاء بكل ما يَعِدُهُم به من البعث والجزاء، ولا عن إيذائه هو وأصحابه بدنيًّا بالتعذيب والتجويع والحصار[4].

وبناء على ذلك اتسم الخطاب القرآنى المكى أيضاً بالخصائص التالية:

١- التوجيه الواضح للرسول ﷺ وأصحابه باتخاذ سبيل الصبر والإعراض فى مواجهة سفه المشركين وبطشهم واستفزازاتهم من ذلك قوله تعالى: ﴿**خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**﴾ (الأعراف: ١٩٩) وقوله تعالى: ﴿**وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ**﴾ (يونس: ١٠٩) وهذا السبيل الذى وُجِّهَ إليه الرسول ﷺ وأصحابه إنما هو نَوْع من التخطيط الحركى الذى يتيح للدعوة أن تصل إلى كل فج، ويقيها من أن تَوأد وهى لا تزال فى مهدها، ولا يَعْنِى هذا الأسلوب أى نوع من الخنوع أو السلبية أو التقصير فى تبليغ الدعوة الذى كان يتم بكل شموخ ودون أدنى مهادنة، إنما يعنى تَحَاشِى الدخول فى مهاترات المشركين والانزلاق إلى الصدام بهم، حتى لا تَتَعَطَّل الدعوة فى طريقها أو تخوض معارك فى غَيْر أوَانِها.

---

[1] قضية القدر أو الإدارة الإلهية من قضايا العقيدة الكبرى، ولا يتسع المجال لبسط القول فيها هنا.

[2] ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ...**﴾ (العنكبوت : ٦٣).

[3] ينظر: شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبى العز الدمشقى ص١٩ وما بعدها، وص٥١ وما بعدها: طبع: مكتبة الدعوة الإسلامية.

[4] أخبار هذا الإيذاء معروفة ومستفيضة فى كتب السيرة تفصيلاً، ومما يَعْكِسُه بإجمال وتركيز ما وراه البخارى بإسناده عن خباب بن الأرت، قال: ﴿شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو مُتَوَسِّدٌ بردة له فى ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: فقد كان من قبلكم يُؤْخَذ الرجل فَيُحْفَر له فى الأرض، فَيُجْعل فيها ثم يُؤْتى بالمنشار على رأسه فَيُجْعَل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يَصُدُّه ذلك عن دينه، والله لَيُتِمَنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون﴾، فتح البارى ٦/ ٦١٩ رقم ٣٦١٢ كتاب المناقب، وفى كتاب مناقب الأنصار باب ما لقى النبى ﷺ وأصحابه من المشركين ٧/ ١٦٤ : ١٦٥ رقم ٣٨٥٢، والطبرانى فى المعجم الكبير ٤/ ٦٢ برقم ٣٦٣٨، وأحمد فى المسند ٥/ ١١١.

ومما يجدر التنبيه إليه أنَّ ذِكْر الجهاد لم يغب عن السور المكية، فقد ذُكِر بها مرات قليلة كما فى قوله تعالى: ﴿**فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً**﴾ (الفرقان: ٥٢) وقوله: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا**﴾ (العنكبوت: ٦٩) لكنه كما يبدوا من نصوصه فى هذه السور[١] ليس هو جهاد اليد أو السيف، إنما هو جهاد النفس فى مُوَاجَهَتِها والصَّبْر على طاعة الله وعلى تبليغ رسالته، والجهادُ بابٌ واسعٌ لا تَخْلُو منه حياة المؤمن على كل أحواله.

٢- الاهتمام بسَوْق الحجج الدالة على صدق الرسول ﷺ من خلال جانبين:

أولهما: يختص بالداعى - وهو الرسول نفسه - دحضاً لكل مطاعن المكذبين فى ثبوته، ومن الشواهد المتعلقة بهذا الجانب قوله تعالى: ﴿**وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ**﴾ (يوسف: ١٠٤) وقوله: ﴿**وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ**﴾ (النحل: ١٠٣)، وقوله: ﴿**وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ... بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً**﴾ (الفرقان: ٧: ١١) وقوله: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ... يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَّحْجُوراً**﴾ (الفرقان: ٢٠ : ٢٢)، وقوله: ﴿**وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ .... وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ**﴾ (العنكبوت ٤٨ - ٥٠).

والثانى: يختص بكتاب الدعوة -وهو القرآن - تَجْلِيةً لمضمونه وأهدافه وَرِفْعَةِ بيانه، مع تكرار تَحَدِّيهم به وإظهار عجزهم عن الإتيان بمثله أو بسورة من مثله، ومن الشواهد الدالة على هذا الجانب: قوله تعالى: ﴿**قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً**﴾ (الإسراء ٨٨ : ٨٩) وقوله: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا{١} قَيِّماً لِّيُنذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَنَاً**﴾ (الكهف ١: ٢)، وقوله: ﴿**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ**﴾ (الزمر: ٢٣).

ومن المْلاحِظِ ذات الدلالة فى هذه الخاصية: أن الحديث عن (الوحى) فى القرآن يكاد يكون أيضاً من الملامح الخالصة للقرآن المكى، فكلمة (الوحى) الخاصة بوحى الله إلى الأنبياء قد وردت فى القرآن بصيغ مختلفة إحدى وسبعين مرة كلها فى السورة المكية إلا مَرَّتَيْن فى سورتى (النساء) و (آل عمران) المدنيتين، ومرة واحدة فى سورة (الرعد) المختلف عليها بين المكى والمدنى[٢].

وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على التجاوب الدقيق للقرآن الكريم بعضه مع بعض فى قضاياه ومدلولاته، حيث إن مسألة دفاع القرآن عن صدقه وصدق مبلغه ﷺ التى هى موضوع هذه الخاصية - إنما ترتكز أساساً على نَفْى نِسْبَةِ القرآن إلى البشر وَرَدَّه إلى مصدره الحقيقى وهو (الوحى) الأمر الذى جعل لهذه الكلمة - بشتى صيغها - هذه الكثافة العالية فى القرآن المكى.

٣- مواجهة جميع أنواع العقبات الصادة عن طريق الهداية، كالاستكبار والغرور والحقد والحسد واتباع الأهواء والشهوات ومكايد الشيطان ووسوسته ومفاتن الدنيا وزينتها ...، فيعالج القرآن كل ذلك بضرب الأمثال الحية على ضعف الإنسان وغروره الكاذب، وبتذكيره الدائم بأن رسل الله لا يبتغون بدعواتهم شيئاً لأنفسهم، وإنما يبتغون بها وجه الله وحده، وبتحذيره من مكايد هذا الشيطان عَدُوه القديم الذى أخرج أبويه من الجنة، وبتحذيره أيضاً من اتباع أهوائه وشهواته حتى لا يصير عبداً لها وللشيطان الذى يتربص به من خلالها.

٤- الربط المتتابع بين الدعوة الإسلامية الخاتمة والدعوات السماوية السابقة عليها، وذلك لتحقيق هدفين:

أولهما: أن يتضح ويتأكد للمكذبين أن محمداً ﷺ يَتَلَقىَّ من نفس المصدر الذى تلقى منه الأنبياء السابقون، وأنه ليس بِدْعاً منهم. **والثانى:** هو عرض أحوال السابقين مع أنبيائهم، وكيف كانت حياتهم ونهاياتهم حسب مواقفهم من هؤلاء الأنبياء ليكون ذلك نذيراً لِقُوَى الباطل من ناحية وزاداً لأهل الحق من ناحية أخرى، يعينهم على مواصلة الطريق ويصلهم بالصابرين والمجاهدين من قبلهم، ويبصرهم بفقه الدعوة إلى ربهم.

ويتم هذا الربط بصور متعددة من أبرزها قصص الأنبياء والأمم الخالية التى تعد سمة بارزة أيضاً من سمات القرآن المكى.

---

[١] ينظر بالإضافة إلى ما ذكر قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَاهَدُواْ وَصَبَرُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ (النحل: ١١٠) وقوله تعالى: ﴿**وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ**﴾ (العنكبوت: ٦).

[٢] ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. إعداد محمد فؤاد عبد الباقى مادة (و ح ى) من ٨٣٦ - ٨٣٧ طبع: دار الحديث.

٥- العرض المتتابع لمشاهد يوم القيامة وأهوالها، ولمشاهد النعيم والعذاب فى الآخرة، وذلك لتحقيق هدف محدد، وهو أن يقف الإنسان - لاسيما الغافل الضال - على حقيقة حياته الدنيوية الزائلة، حين يقارنها بالحياة الأخرى الباقية وما ينتظره فيها من شقاء أو نعيم، وهذا معناه أن تحفزه هذه المشاهد التى يتابع القرآن عرضها عليه إلى الحذر من فتن الدنيا ومتاعها، وإلى اتخاذ منهج منضبط مع هذا المتاع، لا يؤدى إلى الإخلال بحقوق الطبيعة البشرية من ناحية ولا يؤدى إلى طريق الفسق والضلال من ناحية أخرى.

ومن المعلوم أن الترغيب والترهيب من الأساليب التربوية القرآنية الناجحة المتوافقة مع الفطرة الإنسانية، فلا يكاد الإنسان يتصرف فى كثير من مواقفه إلا وهو مدفوع برغبة فى شىء أو رهبة من شىء آخر.

وبعد: فَهذه المشاهد السابق ذِكْرُهَا كانت ميداناً هاماً لاستخدام هذا الأسلوب التربوى الناجح توصلاً إلى تحقيق الغاية المرجوة من عرضها، وهى كذلك أظهر من أن يستدل لها، حيث لا تكاد سورة مكية تخلو منها بصورة أو بأخرى.

المطلب الثالث: الخصائص المتعلقة بالجانب الأخلاقى

الخصائص المتعلقة بالجانب الأخلاقى:

لم تكن دعوة القرآن فى العهد المكى مقصورة على مجرد دعوة المشركين والملحدين إلى الإقرار بوجود الخالق وتوحيده، ولم تكن مجرد جدل كلامى حول أصول العقيدة، وإنما كانت أشمل من ذلك وأعمق، فكانت دعوة إلى تكوين الفرد الصالح والمجتمع الصالح، ولا يمكن أن يكون الصلاح حقيقياً إلا إذا اقترن الإقرار بالممارسة أى: بالعمل أو بحسن الخلق، إذ لا قيمة لإيمان مفرغ من العمل، ولا لإقرار يظل كالشعار ... من هنا كان الاقتران الدائم فى القرآن بين الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وكان تأكيد العلماء أيضاً على أن الإيمان يزيد وينقص بالطاعات والمعاصى، يقول ابن تيمية "ت ٧٢٨هـ": (والصحابة قد ثبت عنهم أن الإيمان يزيد وينقص، وهو قول أئمة السنة، والقرآن قد نطق بالزيادة فى غير موضع[١]. ودلت النصوص على نقصه، كقوله: (لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن)[٢][٣]، وكذلك يقول الرسول ﷺ : (أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً)[٤] وهو يدل على تفاوت قدر الإيمان بتفاوت قدر الخلق.

لقد حرص القرآن فى مرحلته المكية على إبراز كل مبادئه وغاياته واضحة ناصعة، وكان منها هذه الغاية العظمى: إيجاد الفرد الصالح والمجتمع الصالح اللذان لا ينفصل الإيمان فيهما عن حسن الخلق أبداً، بل يمتزجان تماماً، هذا الامتزاج هوالذى عبر عنه الرسول ﷺ حين سئل: أى الإيمان أفضل؟ فقال: حسن خلق[٥] فكأن حسن الخلق إذا من الإيمان وكأن الإيمان من حسن الخلق.

ويظهر حرص القرآن على هذا فى مواضع لا تكاد تحصى من سوره وآياته المكية، وبصور متعددة، مجملة ومفصلة ومباشرة وغير مباشرة.

نرى ذلك فى حديثه عن أخلاق الأنبياء من خلال ما أورده من أخبارهم وقصصهم المتعددة، وفى حديثه عن الأمم الخالية وتنديده بمساوئها وألوان فسادها، وفيما قصه من خبر لقمان ونصائحه، وفى حديثه عن أهل الجنة وأهل النار وسالف حياتهم وأخلاقهم، وفى غير ذلك من الوصايا والتوجيهات المباشرة ...، **وهذه بعض أمثلة على ذلك: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ... قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾** (هود: ٧٤ - ٧٨). **﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلّاً جَعَلْنَا صَالِحِينَ ... وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾** (الأنبياء: ٧٢ - ٧٣)، **﴿ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً ... وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّاراً**

---

[١] يراجع على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً ..**﴾ (آل عمران: ١٧٣)، وقوله: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**﴾ (الأنفال: ٢)، وقوله: ﴿**وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ**﴾ (التوبة: ١٢٤) وقوله سبحانه: ﴿**وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً**﴾ (الأحزاب: ٢٢).

[٢] أخرجه البخارى فى صحيحه كتاب المظلم باب النهى بغير إذن صاحبه، وقال عباده: بايعنا النبى أن لا نَنْتَهب. فتح البارى ٥/ ١٤٣ رقم ٢٤٧٥، ومسلم فى كتاب الإيمان باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصى، صحيح مسلم ١/ ٣١٧ رقم ١٠٠ طبع: دار الحديث، القاهرة.

[٣] ينظر: الفرقان بين الحق والباطل لابن تيمية صـ٣٣ تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة البيان دمشق ١٤٠٥ - ١٩٨٥م.

[٤] الحديث أخرجه أبو داود فى كتاب السنة باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه فى سنن أبى داود ٤/ ٣٥٤ برقم ٤٦٨٤ طبع: دار الكتاب العربى بيروت، وأحمد فى المسند ٢/ ٢٥٠، ٥/ ٨٩، والحاكم فى المستدرك ١/ ٤٣، ١/ ١١٩، بزيادة: (من أكمل) وصححه، وابن حبان فى صحيحه ٢/ ٢٢٧ تحقيق: شعيب الأرنؤط، طبع: مؤسسة الرسالة بيروت.

[٥] الحديث: رواه أحمد فى باب حديث عمرو بن عبسة المسند، ٣٢/ ١٧٨ برقم ١٩٤٣.

عَصِيّاً﴾ (مريم: ١٢ - ١٤)، ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ... وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ١-٤)، ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ ... وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ (لقمان: ١٣-١٩)، ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ... وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (الذاريات: ١٥-١٩)، ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ... كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾ (الهمزة: ١-٤)، ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ... الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (المؤمنون: ١-١١).

ولعل فى بعض الشواهد السابقة - وخصوصاً من سورتى لقمان والمؤمنون - ما يدل بوضوح على ما ذكَرْتُه آنفاً من عدم الانفصال بين الإيمان والأخلاق، بل ما يدل على عدم الإنفصال بين أى جانب وآخر من الجوانب التى لابد منها لتكوين شخصية المسلم، فالتوجيه إلى تجنب الشرك، وإلى الإحسان إلى الوالدين، وإلى إقامة الصلاة، وإلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وإلى الصبر، وإلى التواضع ... كل ذلك يَرِدُ فى سياقٍ واحد فى سورة لقمان، وكذلك امتداح الخشوع فى الصلاة والمحافظة عليها، وأداء الزكاة وحفظ الفروج، ورعاية الأمانات والعهود ... كل ذلك يَرِدُ فى سياقٍ واحد فى سورة المؤمنون، فكأن التوحيد أصل وكل ما ذكر بعده فروع عنه ... أو كأن التوحيد والأخلاق والفرائض والحدود كلها شجرة واحدة بعضها من بعض[1]، وسيكون لذلك مزيد بيان أيضاً فى المطلب التالى.

المطلب الرابع: الخصائص المتعلقة بالجانب التشريعى:

يتعلق هذا المطلب بخاصية أخرى من خصائص القرآن المكى، وهى تناوله المجمل للأحكام التشريعية المُنَظِّمة لحياة الفرد والجماعة، وهى خاصية ينساها الكثيرون فى غمرة انشغالهم بخصائصه البارزة الشائعة إلى درجة أن يتحولوا ببعض آياته المتصلة بهذه الخاصية إلى آياتٍ مستثناةٍ، أى: آيات مدنية فى سور مكية. ورغم أن المسلمين فى المرحلة المكية لم يكن لهم السلطة التى لابد منها لإقامة مثل هذه الأحكام، إلا أن القرآن المكى -مع عدم إغفاله لها - كأنما يريد إبراز حقيقة هامة، وهى عدم استغناء البشر فى أى وقت وتحت أى ظرف عن تشريعٍ إلهى يُنَظِّمَ حياتهم بصرف النظر عن طبيعة هذا التشريع التى لابَدَّ أن تحمل سمات مخصوصة حسب طبيعة الواقع الذى تتعلق به.

ولقد تطرق القرآن فى تلك المرحلة إلى هذه الأحكام بأسلوب مناسب جداً، يَوازِنُ بين ظُرُوف الجماعةِ المُسْلِمة من ناحية، وأهمية هذه الأحكام فى حياتهم من ناحية أخرى.

ومن أهم سمات هذا الأسلوب: التركيز على أصول الأحكام دون الخوض فى التفاصيل إلا نادراً، وتقديمها غالباً فى صورة فضائل خلقية يدعوا إليها، أو فى صورة نماذج بشرية تتحلى بها فَيُزَكِّيها أو نماذج أخرى تَتَنَصّل منها فَتَدُمَّها، واللجوء إلى التلميح فى تقديمها دون التصريح وهكذا، وهذه بعض الشواهد على ذلك:

١- قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ... وَبِعَهْدِ اللّهِ أَوْفُواْ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الأنعام: ١٥١-١٥٢) وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ ... وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: ٣٣)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (النحل: ١١٥). وهذه الآيات من سورتى الأنعام والنحل مما عَدَّهُ البعض من هذه الآيات المستثناة كما أشَرْتُ من قبل، أى: عَدُّوهَا آيات مدنية فى سور مكية[2] بينما هى -على الأرجح - مكية كما سيتضح فى المبحث الأخير إن شاء الله.

٢- قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً ... وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً﴾ (الفرقان: ٦٣-٧٢) فهذه الآيات التى تتحدث عن عباد الرحمن، تَنْهىَ - بطريق الفَحْوَى - عن جريمة قتل النفس التى حرم الله قتلها بغير الحق، وجريمة الزنا، وشهادة الزور الى تَضيعُ بها الحقوق وتقع المظالم، والإسراف الذى يقود إلى السَّفه والإتلاف، والتقتير الذى يقود إلى منع الحقوق أو منع الزكاة، وغالب ذلك مما يدخل فى الحدود أو التعزيرات التى فُرِضَتْ بعد ذلك فى المرحلة المدنية، لكنه هنا قد ورد على أنه نوع من الفضائل الخلقية التى يتحلى بها عباد الرحمن.

وفى القرآن المكى شواهد أخرى يَرِدَ التشريع فيها على شاكلة وروده فى الآيات السابقة، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً ... أُوْلَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ (المعارج: ١٩-٣٥) وآيات سورة المؤمنون: (١-١١) التى مرت فى المطلب السابق.

٣- ما يَتَرَدَّدَ كثيراً فى القصص القرآنى من أخبار الأمم السابقة، كما فى قوله تعالى: ﴿وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ إِنَّكُمْ ... وَاذْكُرُواْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾

---

[1] يراجع فى موضوع هذا المطلب ما كتبه الأستاذ محمد قطب عن أخلاقيات لا إله إلا الله فى كتابه: واقعنا المعاصر ص٧٣ وما بعدها، طبع: مؤسسة المدينة جدة ١٤٠٨ - ١٩٨٧.

[2] ينظر: الإتقان ١/ ١٩-٢٠.

(الأعراف: ٨٠-٨٦)، فهذه الآيات - التى تَتَحَّدث عن قوم لوط وقوم شعيب - وأمثالها تُنَفِّر من طريق الضلال والإفساد الذى من أهم مظاهره التَّفَلُّت من شرع الله تعالى ومن الأخلاق الفاضلة، وإن كان هذا التنفير لا يتم من خلال أوامر ونواه وحدود مباشرة، وإنما من خلال نماذج بشريَّة محدَّدة يَعْرِضُها القرآن الكريم أمامنا عرضاً حياً مؤثراً من خلال قصصه الذى يعد كما نعرف خاصية أصيلة من خَواصِّ التنزيل المكى.

٤- قوله تعالى: ﴿**وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَناً خَالِصاً سَآئِغاً لِلشَّارِبِينَ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾ (النحل: ٦٦-٦٧)، ففى الآية الثانية من هاتين الآيتين - الواردتين فى سياق الحديث عن نِعَمِهِ تعالى وآلائه - تقبيح لتعاطى الخمر بطريق المفهوم لا بطريق المنطوق، حيث ذكرت الآية ما يستخرج من ثمرات النخيل والأعناب ليكون (سَكَراً) أو (رزقاً حسناً)، فكان وضع السَّكَر -وهو المسكر- مقابل الرزق الحسن بمثابة إشارة واضحة إلى خُبْثِه، لأن ما ليس برزق حسن لا يكون إلا قبيحاً وخبيثاً.

المبحث الثالث
الخصائص الأسلوبية للقرآن المكى

تمهيد:

فى بداية هذا المبحث أشير إلى أن إعجاز القرآن اللغوى حقيقة شاملة للقرآن كله بقسميه المكى والمدنى، ولم يخطر ببال أى باحث قديماً أو حديثاً -حسبما قرأت - أن يُفَرِّق بين هذين القسمين - تفريق تفاوت - فى هذا الإعجاز، ومع ذلك فإن أى متَذَوِّق للعربية عموماً وللقرآن الكريم خصوصاً يشعر شعوراً حقيقياً بأن سُوَرَ القرآن المكى لها وقعها الخاص الذى يحرك النفس ويملأ الوجدان ويؤثر فيهما أعظم التأثير، وهذه حقيقة تتعلق بطبيعة الواقع نفسه الذى عاشته الدعوة فى هذه الفترة كما سبق التعريف به فى المبحث الثانى[1] ولا تتعلق بأى نوع من التفاوت فى هذا الإعجاز الذى ذكرته. فقد كان الواقع بحاجة إلى نوع مخصوص من الخطاب يستثمر أعظم ما فى اللغة البشرية من طاقات وإمكانات، ليحدث فيه الأثر المطلوب إحداثه، وهذا الأثر المطلوب كان -وسيظل - أخطر أثر يمكن أن يحدث فى الحياة، إذ إنه تغيير النفس الإنسانية تغييراً تاماً، يتحول به أصحابها فى واقع حياتهم من حال معين إلى حال آخر تماماً، ولقد كان الواقع فى الفترة المكية هو الواقع الجاهلى، وكان الواقع المطلوب بديلاً عنه هو الواقع الإسلامى، وشتان ما بين النوعين، فهذا الوَقْع الخاص لسور الفترة المكية -واختلافه بالطبع عن الوقع الخاص لسور الفترة المدنية - ليس له أى صلة بمستوى الأداء فى الخطاب ذاته، فهو مستوى ثابت لا يتفاوت على أى حال، وإنما هو نابع من التفاوت بين أحوال هاتين الفترتين وحاجة كل منهما إلى نوع مخصوص من الخطاب حسب هذه الأحوال.

وفى ضوء ذلك كله سأقوم بتوضيح أهم الخصائص الأسلوبية العامة للقرآن المكى من خلال المطالب التالية:

المطلب الأول: تحدُّد البناء وقوة الإيقاع

يدور هذا المطلب حول خاصية تتعلق بالبناء العام للسور المكية، حيث يظهر أن السمة الغالبة على هذا البناء هى قِصَرُ السُّوَر والآيات مع قوة الإيقاعات، وبخاصة إذا ما قارنا فى هذه الخاصية بين السور المكية والسور المدنية، فليس فى طوال السور المكية -كالأنعام والأعراف ويونس- ما يبلغ فى طوله ما بلغته طوال السور المدنية، وليس فى طوال الآيات المكية أيضاً ما يبلغ فى طوله ما بلغته طوال الآيات المدنية. ومن الطريف أنَّ أطْوَل آية فى السور المكية إنما هى آية مدنية وإن أُلْحِقَت بالقرآن المكى وهى قوله تعالى: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ ... إِنَّ اللَّـهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ (المزمل: ٢٠).

ويكفى -على سبيل المثال - العلم بأن مُفَصَّل القرآن الذى يضم أقصر سوره وآياته -بدءاً من سورة (ق) إلى آخر المصحف - يشتمل على إحدى وخمسين سورة مكية من مجموع سوره التى تبلغ خمساً وستين، وقد قيل إنه سمى بـ"المفصَّل" لكثرة فواصله، وإنما كَثُرَتْ فواصله بالطبع لقصر آياته[2].

وهذه بعض نماذج من السور المكية القصار يبدوا فيها بوضوح قِصَرَ الآيات مع قوة الإيقاعات: ﴿**يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاء كَالْمُهْلِ ... وَجَمَعَ فَأَوْعَى**﴾ (المعارج: ٨-١٨)، ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ... سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً**﴾ (المدثر: ١-١٧)، ﴿ **قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ... مَّتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ**﴾ (عبس: ١٧-٣٢).

وحقيقة الأمر بشأن هذه الظاهرة، وبشأن الخاصية التى يدور الحديث عنها عموماً ترجع إلى مقتضيات موضوعية نابعة من طبيعة ظروف الدعوة وأهدافها - كما سبق - فى الفترة المكية.

فالخطاب الذى يتصدى لهذه الظروف لابد أن يَنْطَلِق بأسلوب الجُرُعات المركزة المتدفقة التى تحرك النفوس الجامدة وتهز القلوب العنيدة الصلدة، ومتى انطلق الكلام بهذا الأسلوب فإن قالبه العام -أى السورة القرآنية جملة - يأتى تلقائياً محدود الحجم، كما أن وحداته الداخلية - أقصد الآيات التى تشتمل عليها كل سورة -تأتى محدودة أيضاً يغلب عليها الإيجاز وشدة الإيقاع، فالتركيز ما هو إلا (إيجاز) والتدفُّق ما هو إلا إيقاعات شديدة متتابعة.

ولعل هذا التعليل لهذه الخاصية مدار الحديث يتضح بالوقوف مع مسألة وثيقة الصلة بهذه الخاصية، وهى كثرة التوافق أو التسجيع فى خواتم الفواصل القرآنية بالسور المكية الأمر الذى يزيد إيقاعات هذه السور وضوحاً إلى وضوح وقوة إلى قوة، ويدل بوضوح على ذلك النماذج التى سبق ذكرها.

---

[1] ينظر ص ٣٥.

[2] ينظر فى تقسيم سور القرآن إلى طوال ومئين ومثانى ومفصل، الإتقان. النوع الثامن عشر ١/ ٨٤: ٨٥ وما بعدها.

ولقد اختلف العلماء - والبلاغيون بخاصة - اختلافاً مشهوراً حول جواز تسمية هذا التوافق الموسيقى فى خواتم الفواصل بالسجع، كما يسمى بذلك حين يقع فى كلام الخطباء والشعراء، فمنهم من رفض تَخَوُّفاً من تشبيه القرآن بسجع الكهان المعروف بسماجته وتكلّفه، ومنهم من أجاز طالَمَا أنَّ هذا السَّجْع يقع فى مَوْقِعَه بلا تَكَلُّف ولا إخلالٍ بالمعنى[1] ولا مشاحة فى الاصطلاح كما يقال[2].

كما أنهم تَطرَّقُوا أيضاً إلى قضية أخرى فى إطار نفس المسألة، وهى قضية (مراعاة الفاصلة) أى المراعاة التى تبدو مقصودة أو مُتَعَّمدة للتوافق الإيقاعى فى خواتم بعض الفواصل القرآنية، وقد اختلفوا فى ذلك أيضاً بين رافض ومؤيد.

أما الرافضون فَيَرَوْن أن القول بذلك يؤدى إلى ادعاء التَّعَمَّل أو التَّصَنُّع فى النظم القرآنى تحقيقاً لهذا التوافق ولو كان على حساب المعنى.

وأما المؤيدون فيرون أمامهم الشواهد القرآنية الدالة على هذه المراعاة متضافرة متكاثرة فلا يسعهم إلا التأييد[3] وهم بذلك قد استوعبوا ظاهرة المراعاة هذه استيعاباً لا يتوجه بالانفعالات السطحية الفجة، وإنما يتوجه بالدرس العلمى الموضوعى، وبالذوق الفنى الناضج، فمراعاة التوافق الإيقاعى هذه ظاهرة لا تُنْكَر فى قوافى الشعر على سبيل المثال بصرف النظر عن قديمه وجديده مع أن الشاعر لا يرتب قوافيه ترتيباً أو يختارها أولاً ثم يبنى عليها، لكنه بقَصْدٍ أو بغير قَصْدٍ - ملتزم بها.

وليس القصد من ذلك المقارنة بين الشعر والقرآن، أو تشبيه الفواصل بالقوافى، وإنما القصد هو التنبيه إلى أن الجانب الإيقاعى فى النصوص الأدبية قيمة لها وزنها وأهميتها فى حد ذاتها، ولا بأس من تَصَرُّف صاحب النص أحياناً فى بعض تراكيب اللغة أو الخروج على المألوف من قواعدها لأجل هذه القيمة، طالما أن ذلك لا يَخِلُّ بالمقومات الأخرى التى يقوم عليها النص، ويدل على ذلك أن شمس الدين بن الصائغ الحنفى "ت ٧٧٦هـ" أحد هؤلاء المؤيدين يقول فى كتابه "إحكام الرأى فى أحكام الآى": "إعلم أن المناسبة أمر مطلوب فى اللغة العربية، يُرْتَكَبُ لها أمور من مخالفة الأصول ... وقد تتبعت الأحكام التى وقعت فى آخر الآى مراعاة للمناسبة، فَعَثُرت منها على نيف عن الأربعين حكما)[4]، وقد ذكر بالفعل أربعين شاهداً قرآنياً على كلامه هذا، جُلُّها من القرآن المكى، وقد يُخْتَلَفُ معه فى بعضها، لكن أغلبها يَحْمِل بالفعل دلالة واضحة على ما يقول، كما فى بعض الشواهد التى سأعرضها بشىء من التَّصَرُّف والتَّوْضيح:

١- حذف ياء المنقوص المعرَّف، نحو ﴿**يَوْمَ التَّنَادِ**﴾ (غافر: ٣٢)، فـ(التناد) فى أصلها: (التنادى)، لكنها جاءت كذلك لتوافق الفواصل المنتهية قبلها وبعدها بمد فسكون[5].

٢- حذف ياء الفعل غير المجزوم، نحو: ﴿**وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ**﴾ (الفجر: ٤)، فـ(يسر) فى أصلها (يسرى)، لكنها جاءت كذلك لتوافق أيضاً الفواصل التى تنتهى قبلها وبعدها بالراء الساكنة[6].

٣- إيثار تذكير اسم الجنس فى موضع، وإيثار تأنيثه فى موضع آخر، كقوله تعالى: ﴿**أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ**﴾ (القمر: ٢٠)، و﴿**أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ**﴾ (الحاقة: ٧)، وذلك لأنَّ فواصل سورة القمر كلها تنتهى بالراء الساكنة، فكانت كلمة (منقعر) وليس (منقعرة) هى الأنسب مع هذه الفواصل، كما أن كلمة (خاوية) وليس (خاوٍ) هى الأنسب أيضاً فى سورتها لما قبلها وما بعدها من الفواصل الموجودة على هذه الشاكلة.

٤- تقديم (موسى) على (هارون) فى قوله تعالى: ﴿**قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ**﴾ (الأعراف: ١٢١-١٢٢)، وحدوث العكس فى قوله تعالى: ﴿**فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى**﴾ (طه: ٧٠) وذلك لأن الفواصل السابقة واللاحقة على كلمة (هارون) فى سورة (الأعراف) تنتهى بحركة طويلة بعدها نون، وعلى هذه الشاكلة الآيات من (١١٧-١٢٣) بينما الفواصل السابقة على كلمة (موسى) فى سورة (طه) تنتهى بالألف المقصورة،

---

[1] الإتقان: النوع التاسع والخمسون، ٢/ ١٢٤ وما بعدها.

[2] مما يحتج به الفريق الرافض قوله ﷺ: (أسجعٌ كسجع الكهان)؟ غير أنه يمكن الرد عليهم بنفس الحديث، وهو أنه لا يذم أى سجع، وإنما يذم الذى يأتى مرذولاً متكلفاً كسجع الكهان. يراجع هذا الحديث بألفاظ مختلفة فى: صحيح مسلم ٦/ ١٩١ برقم ١٦٨٢ كتاب القسامة.= باب: دية الجنين ووجوب الدية فى قتل الخطأ وشبه العمد على عاقلة الجانى، وأبو داود فى سننه ٤/ ٤٥٦٨، والترمذى ٣/ ١٤١١، والنسائى ٨/ ٤٩، وابن ماجة ٢/ ٢٦٣٣ مختصراً عن إبراهيم به.

[3] ينظر: الإتقان، ٢/ ١٢٦ وما بعدها.

[4] السابق: ٢/ ١٢٧، ومن المهم أيضاً فى هذا الصدد الرجوع إلى تفسير (فى ظلال القرآن) للأستاذ قطب فى تفسير سورة النجم، وما ذكره بشأن موسيقاها المميزة والقصد الواضح إلى التنغيم فى بعض فواصلها. الظلال: ٦/ ٣٤٠٤.

[5] أو بمد فكسر فى حال الوصل.

[6] أو بالراء المكسورة فى حال الوصل.

وعلى هذه الشاكلة الآيات من (٦٩-٧١) **ومن الطريف القول** بأن (موسى) مقدم دائماً على (هارون) كلما ذُكِرَا معاً فى أى موضع بالقرآن الكريم، إلا فى هذا الموضع من سورة (طه)[١] الأمر الذى يؤكد أم مراعاة الفاصلة فى هذه السورة هى السبب الأساسى فى مخالفة هذا الترتيب.

٥- تغيير بنية الكلمة، نحو ﴿**سِينِينَ**﴾ (التين: ٢)، التى أصلها (سينا) أو (سيناء)، وذلك مراعاة للفواصل فى قوله تعالى: ﴿**وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ**﴾ (التين: ١-٣)[٢].

المطلب الثانى: تكثيف اللغة التصويرية

لُلغة التصويرية أهميتها فى تحقيق أغراض الخطاب اللغوى حيث إنها هى التى تحرك خيال المتلقى وتُثريه، وهى التى تفتح أمامه الآفاق وتنقله من عالمه المحدود إلى عوالم أخرى غير محدودة، وهى أيضاً التى تُقَرِّب إليه البعيد وتُحْضِر الغائب وتشخص المعانى المجردة لِتَغْدُو أمامه كائنات حية متحركة.

ولقد استخدم الخطاب القرآنى فى الفترة المكية -وفق قضاياه واهتماماته التى مرت - هذه الإمكانات لِلُّغة التصويرية استخداماً مُكَثَّفاً يَصْعُبَ معه الإحاطة به على وجه التفصيل، لكن سأحاول إبراز أهم ملامحه من خلال النماذج التالية:

١- يقول الله تعالى: ﴿**وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا ... إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ**﴾ (فاطر: ١٨-٢٣) إن هذه الآيات الكريمة تُشْعِر الكُلَّ بخطر المسؤلية الملقاة على عاتق كل واحد منا، وتقدم أيضاً لكل واحد منا حقيقة الهدى والضلال من خلال مشاهد حية نعيشها بمشاعرنا وحواسنا، لا من خلال معان مجردة نستقبلها بعقولنا، فالآية الأولى تَنْقُلنا إلى يوم الحساب لنعيش بالفعل مشهداً من مشاهده، وذلك باستخدامها للزمن المضارع الذى يفيد الحضور والتجدد بـ(ولا تزر)، و(إن تدع)، (لا يحمل)، إذ نشاهد مَنْظَر الناس وقت الحشر، ومَنْظَر الأعمال أيضاً وقد أصبحت أحْمَالاً، كلٌّ يحمل حصاده فوق ظهره، وكل يَوَدُّ لو ألقى بحمله على غيره ليتخلص من تبعته، وأنَّى لهم ذلك، إنها أحمال من نوع فريد لا يقبل المبادلة أو المفارقة، لكن الأمل قد يدفع بعضهم إلى الرجاء والاستغاثة ليحمل عنه غيره ولو بعض حمله، فلا يجد صَدَىً لرجائه[٣] بل يبقى الحمل كما هو مَهْمَا كان ثقيلاً، ومهما كانت صلة صاحبه بمن يرجوه وهذا كله إنذار تخويف من الله تعالى، لكن ليس كل أحد يتأثر بالإنذار وينتفع به، فلا يتأثر به ولا ينتفع إلا كل صاحب قلب خاشع تقيٍّ زاكٍ، ومن ثم فَرَّقَت الآيات التالية بين المتقين المهتدين والضالين المكذبين المستكبرين تَفْرِقة بليغة قائمة على عنصر التصوير من ناحية، وعنصر التقابل أو التضاد من ناحية أخرى بين الأعمى والبصير، والظلمات والنور، والظل والحرور، والأحياء والأموات، ثم كانت الخاتمة التى تُيْئِسُ من استجابة هذه القلوب الخربة ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ**﴾[٤].

٢- يقول تعالى: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا ... فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ (الأعراف: ١٧٥-١٧٦) ويقول سبحانه: ﴿**مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ**﴾ (هود: ٢٤)، ويقول سبحانه: ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً ... وَيُضِلُّ اللّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللّهُ مَا يَشَاءُ**﴾

---

[١] يراجع كلمتى: (موسى) و (هارون) بالمعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم وضعه محمد فؤاد عبد الباقى ص٧٧٦، ٧٧٨، ص٧٢٧.

[٢] يراجع الشواهد السابقة فى: الإتقان: ٢/ ١٢٧- ١٢٨.

[٣] ومما قاله الإمام بن كثير -رحمه الله - فى تفسير قوله تعالى: ﴿**وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا**﴾ أى وإن تدع نفس مثقلة بأوزارها إلى أن تساعد على حمل ما عليها من الأوزار أو بعضه ﴿**لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى**﴾ أى: وإن كان قريباً إليها حتى ولو كان أباها أو ابنها كل مشغول بنفسه وحاله] تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٥٥١: ٥٥٢ طبع ونشر: مكتبة التراث الإسلامى سوريا حلب. وما قاله الشيخ الطَّاهر بن عاشور: (ثم نبه على أن هذا الحكم العادل مطرد مستمر حتى لو استغاثت نفس مثقلة بالأوزار من ينتدب لحمل أوزارها أو= بعضه لم تجد من يحمل عنها شيئاً، لئلا يقيس الناس الذين فى الدنيا أحوال الآخرة على ما تعارفوه، فإن العرب تعارفوا النَّجدة إذا اسْتُنْجدوا ولو كان الأمر يضر بالمُنْجِد ... ولذلك سمى طلب الحمل هنا دعاء لأن الدعاء فى معنى الاستغاثة). ينظر: التحرير والتنوير: ١١/ ٢٣/ ص٢٨٨: ٢٨٩. دار سحنون للنشر والتوزيع تونس.

[٤] وفى هذا المقام يقوم الشيخ ابن عاشور: [لما كان أعظم حرمان نشأ عن الكفر هو حرمان الانتفاع بأبلغ كلام وأصدقه وهو القرآن كان حال الكافر الشبيه بالموت أوضح شبهاً به فى عدم انتفاعه بالقرآن وإعراضه عن سماعه ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ**﴾ (فصلت: ٢٦) وكان حال المؤمنين بعكس ذلك إذ تَلَقَّوا القرآن ودرسوه وتفقهوا فيه ﴿**الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ**﴾ (الزمر: ١٨)، وأعقب تمثيل حال المؤمنين والكافرين بحال الأحياء والأموات بتوجيه الخطاب إلى النبى ﷺ مقدرة له فى التبليغ للفريقين، وفى عدم قبول تبليغه لدى أحد الفريقين ... فقيل له: إن قبول الذين قبلوا الهدى واستمعوا إليه كان بتهيئة الله تعالى نفوسهم لقبول الذكر والعلم، وإن عدم انتفاع المعرضين ذلك هو سبب موت قلوبهم فكأنهم الأموت فى القبور وأنت لا تستطيع أن تسمع الأموات، فجاء قوله: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ**﴾ على مقابلة قوله: ﴿**وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاء وَلَا الْأَمْوَاتُ**﴾ مقابلة اللف بالنشر المرتب.... ينظر: التحرير والتنوير: ١١/ ٢٢/ ص٢٩٥.

(إبراهيم: ٢٤-٢٧)، ويقول سبحانه: ﴿**وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ ... وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً**﴾ (الكهف ٤٥-٤٦)، ويقول سبحانه: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاء ... وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ**﴾ (العنكبوت: ٤١-٤٣) هذا النموذج بآياته يتعلق بأمثال القرآن التى (تُقَرِّبُ المراد للعقل وتُصَوِّرُه بصورة المحسوس، وتصور المعانى بصورة الأشخاص لأنها أثبت فى الأذهان لاستعانة الذهن فيها بالحواس، ومن ثم كان الغرض من المثل تشبيه الخفى بالجلى والغائب بالشاهد)[1] وهى - الأمثال - قائمة على أداة بيانية شائعة وهى (التشبيه)، وقد استثمر القرآن الكريم ما فى الأداة من إمكانات عن طريق ملائمته الدقيقة بين المشبه والمشبه به من ناحية، وعن طريق تفصيل جوانب التقابل بينهما -كلما لزم - من ناحية أخرى.

وَمِنْ ثَمَّ فإن المثل الذى يضربه القرآن يقدم لنا مشهداً فسيحاً متكاملاً لا يَمَلُّ النظر منه، ولا من تَأَمُّل العلاقات العميقة التى تربط بين جميع جوانبه.

ولا يفوتنى أن أذكر أن الأمثال القرآنية ظاهرة أسلوبية لا تقتصر على المكى دون المدنى[2] ومع ذلك فإنها تحمل سمات خاصة فى كلا النوعين، من حيث ارتباطها باهتمامات كل نوع من ناحية، ومن حيث طريقة بنائها من ناحية أخرى، ولعله يلاحظ فى الأمثلة السابقة مدى صلتها باهتمامات الدعوة -كما سبق - فى الفترة المكية، أما طريقة بنائها أو تركيبها فإنها - برغم ما تقدمه من مشاهد خصبة - قائمة على الصور المبسطة الواضحة التى تخاطب الوجدان مباشرة، دون أن تدفع إلى إعمال الفكر أو كِدِّ الذهن فى تَتَبُّع حدودها ومعالمها.

٣- قد أكثر القرآن فى الفترة المكية استخدام الصيغة الاستفهامية بجميع صورها فى كل المواقف التى تناسبها، وهى مواقف يتعلق أغلبها بأحوال المخاطبين فى هذه الفترة - المتمثلة فى العناد والاستكبار والصد عن سبيل الله والكفر بنعمه وتكذيب رسله، وما شابه ذلك، **وهذه بعض نماذج لهذا الاستخدام:**

أ- أرأيت، أفرأيت: ﴿**أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً**﴾ (الفرقان: ٤٣) ﴿**أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَاءهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ مَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ**﴾ (الشعراء: ٢٠٥-٢٠٧). ﴿**أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى**﴾ (النجم: ٣٣- ٣٤). ﴿**أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْداً إِذَا صَلَّى أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى**﴾ (العلق: ٩- ١٤).

ب- أرأيتم، أفرأيتم - أرأيتكم: ﴿**قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـهٌ غَيْرُ اللّهِ يَأْتِيكُم بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ**﴾ (الأنعام: ٤٦-٤٧) ﴿**قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ**﴾ (فصلت: ٥٢)، ﴿**أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ**﴾ (الواقعة: ٥٨- ٥٩)، ﴿**قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ**﴾ (الملك: ٣٠).

ج- ألم تر: ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ**﴾ (إبراهيم: ١٩-٢٠)، ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاء لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً**﴾ (الفرقان: ٤٥- ٤٦)، ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ**﴾ (الفجر: ٦-١١)، ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ**﴾ (الفيل ١-٢).

د- ألم يرو، أفلم يرو، أو لم يروا: ﴿**أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَاراً وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ**﴾ (الأنعام: ٦)، ﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ**﴾ (الشعراء: ٧-٩)، ﴿**أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ**﴾ (سبأ: ٩)، ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ**﴾ (الملك: ١٩).

ومن يتتبع ويحلل الصيغ السابقة يخرج بأمور لها دلالاتها الهامة ومنها:

---

[1] يراجع فى ذلك: البرهان فى علوم القرآن للزركشى، النوع الحادى والثلاثون ١٠/ ٦٨٠: ٦٨١، والإتقان للسيوطى. النوع السادس والستون. ٢/ ١٦٧.

[2] تضمن القرآن الكريم حوالى (٢٦) ستا وعشرين مثلا، تنقسم بالتساوى تقريباً بين المكى والمدنى. يراجع: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم مادة (م ث ل) ص٧٥٧- ٧٥٩.

أ- جميع الصيغ التى مَثُلتَ لها فى المجموعتين الثانية والرابعة تردَّدَت فى القرآن قريباً من أربعين مرة كلها فى الفترة المكية[1]، فكأن المعاندين والمستكبرين فى الفترة المكية هم الذين خُصَّوا وحدهم بهذه الصيغ فى جميع القرآن، إمَّا خطاباً لهم (أرأيتم) وإما إخباراً عنهم (ألم يروا) وهو تخصيص فى موضعه تماماً، من حيث ملاءمة ترديد هذه الصيغ لأحوالهم التى نعرفها من ناحية، ومن حيث إسهام هذه الترديد فى إبراز صورتهم وملامحهم الخاصة فى القرآن من ناحية أخرى.

ب- صيغة (ألم تر) والتى مَثُلت لها فى المجموعة الثالثة لم يقتصر ترديدها فى القرآن على الفترة المكية، بل ترددت إحدى وثلاثين مرة مشتركة بين المكى والمدنى، وذلك لأن الخطاب فيها متوجه من الله تعالى لرسوله ﷺ وشخصيته -عليه السلام- لم يقتصر حضورها ولا تفاعلها مع الأحداث على فترة دون فترة، لأن القرآن كان يخاطبه بهذه الصيغة فى شأن أحوال وقضايا بعينها تختص بالمرحلة المكية كما سبق فى شواهد المجموعة الثالثة، وكان يخاطبه بها أيضاً فى الفترة المدنية بشأن أحوال وقضايا أخرى تتعلق بهذه المرحلة أو أحوال وقضايا لا تنفك عن أى مرحلة كما فى هذه الأمثلة: **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾** (آل عمران: ٢٣)، **﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللّهِ الْمَصِيرُ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللّهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾** (النور: ٤١- ٤٣)، **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾** (الحشر: ١١).

جـ- صيغة (أرأيت) و (أفرأيت) ترددت فى القرآن عشر مرات كلها أيضاً فى السور المكية[2] وكلها أيضاً خطاب من الله لرسوله ﷺ إلا مرة واحدة جاءت فيها خطابا موجهاً لرسول الله موسى عليه السلام من فتاه الذى كان معه فى رحلته المعروفة بسورة الكهف.

فإن قلت: لم انفردت هذه الصيغة دون التى قبلها (ألم تر) بالفترة المكية، مع أن كلتيهما تخاطب الرسول ﷺ؟ قلت: إن الإجابة على ذلك -بغير شك- تعتمد على تحليل السياق فى كل موضع ترددت فيه هذه الصيغة، من أجل التوصل إلى الأسباب التى دعت إلى استخدامها دون غيرها، وأضيف إلى ذلك حسب فَهْمِى القاصر - أن سر اقتصار هذه الصيغة على المرحلة المكية أمر يرجع أيضاً إلى مقتضيات هذه المرحلة التى منها: تسلية الله تعالى لرسوله الكريم وإيناسه له فى مواجهة ما يلقاه من عنت المكذبين وجفوة المستكبرين، ولو خيرت بين صيغتين لاستخدام إحداهما فى هذا الغرض لاخترت (أرأيت) دون (ألم تر) إذ هى التى تعبر أكثر -بطبيعة تركيبها - عن قرب المخاطب ممن يخاطبه، **وذلك من ناحيتين: الأولى**: عدم الفصل بين همزة الاستفهام وبين الفعل، **والثانية**: اتصال الفعل بتاء الفاعل المخاطب التى تبرز وجوده وحضوره أمام من يخاطبه.

ويُصَدِّقُ ذلك أن كل مواضع مخاطبة الرسول ﷺ بهذه الصيغة - بلا استثناء - تتصل فعلاً بمواقف التعنت والغلظة التى كان يواجهها فى المرحلة المكية، وذلك واضح من شواهد هذه الصيغة التى سبق أن ذكرتها والتى لم أذكرها كذلك[3].

المطلب الثالث: صيغ وتعبيرات مكية:

يدور هذا المطلب حول ما يُلحظ فى السور المكية من كثرة الأساليب والتعبيرات التى تفيد الاستنكار، أو التعجب، أو التقرير، أو التحقير، أو الاستهزاء، أو الندم، أو التمنى، أو التقريع، أو الإضراب ...، ونحو ذلك من الأغراض الموائمة لظروف الدعوة وأهدافها فى المرحلة المكية[4] **ومن أهم هذه الأساليب والتعبيرات ما يلى:**

---

[1] إلا مرتين إحداهما قوله تعالى: **﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللّهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾** (الرعد: ٤١)، والأخرى قوله تعالى: **﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾** (الأحقاف: ١٠)، وكلتاهما آية سورة (الرعد) و (الأحقاف) من المختلف عليه بين المكى والمدنى.

[2] لعله لا يغيب -عن عقل القارئ ووعية أنه مع بداية الذكر والاستخدام المكثف للإحصاءات المقارنة بين المكى والمدنى - التنبه إلى أننا لا نستدل بغلبة شيءٍ ما فى القرآن المكى إلا إذا كانت غلبة حقيقية، فالقرآن المدنى يمثل من حيث الكم أَحَدَ عشر من ثلاثين فقط من القرآن الكريم كله.

[3] يراجع فى الصيغ التى لم أذكرها: المعجم المفهرس ص٣٤٥- ٣٤٦.

[4] كانت الصيغ التى تحدثت عنها من قبل - التابعة لرقم (٣) فى المطلب الثانى - مما يفيد أيضاً بعض هذه الأغراض، وكان ذلك فى إطار التصوير البيانى أو علم البيان، أما هنا فالحديث تقريباً فى إطار علم المعانى.

١- إن أساليب الاستفهام لها أدوات متعددة، مثل: هل وكيف ومتى وهمزة الاستفهام وما ومن وأى ... إلخ. وقد يقصد بها حقيقة الاستفهام وقد تخرج عنها، لتفيد أغراضا أخرى كتلك المذكورة من قبل. وإن الذى يُلقى نظرة على صيغ الاستفهام فى القرآن يمكن أن يلْحَظ غَلَبتها فى القرآن المكى، كما يمكن أن يلْحَظ أيضاً أن مجيئها على الغرض الأصلى للاستفهام إنما هو فى مواضع قليلة[1] بينما يعد خروجها عن هذا الغرض لأداء أغراض أخرى هو الغالب الأعم، ولا يتسع المجال لاستقصاء كل ما يتعلق بصيغ الاستفهام وأدواته فى القرآن، ومن ثم فَسَأُرَكِّزُ على بعضها فقط - لمجرد الاستشهاد - على النحو التالى:

أ- وَرَدَ الاستفهام بـ(كيف) ثلاث وثمانون مرة فى القرآن كله، منها اثنتان وعشرون مرة فى المرحلة المدنية، والباقى كله إحدى وستون مرة فى المرحلة المكية، كما فى هذه الأمثلة:

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (الأنعام: ٨١)، ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ (الأعراف: ٩٣)، **﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً﴾** (مريم: ٢٩)، **﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾** (غافر: ٥).

فالاستفهام فى المثال الأول فى سورة الأنعام يراد به التَّعَجُّب والتوبيخ، وفى المثال الثانى من سورة الأعراف يراد به الإنكار أى لا يجب الحزن على قوم كافرين، وفى المثال الثالث من سورة مريم يراد به التعجب أو السخرية، وفى المثال الرابع من سورة غافر يراد به التهويل أو التخويف.

ب- ورد الاستفهام بالهمزة فى القرآن كله أربع مائة وسبع وتسعون مرة، منها تسع وتسعون مرة فى المدنى، والباقى ثلاثمائة وثمان وتسعون مرة فى المكى[2] كما فى هذه الأمثلة: **﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾** (الأعراف: ١٩٥)، **﴿... أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَواْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾** (يوسف: من الآية ١٠٩)، **﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً﴾** (الفرقان: ٤١)، **﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾** (القيامة: ٣٦- ٤٠).

فالاستفهام فى المثال الأول من سورة الأعراف يراد به السخرية والتوبيخ، وفى المثال الثانى من سورة يوسف يراد به الحث على الاعتبار بمصائر السابقين، وفى المثال الثالث من سورة الفرقان يراد به التحقير والاستهزاء، وفى المثال الرابع من سورة القيامة يراد به الإنكار فى الآية الأولى، أى: لا يترك الإنسان سدى أو يراد به التعجب أيضاً، وفى بقية الآيات يراد به التقرير، ومن ثم فإن رسول الله ﷺ كان إذا قرأ سورة القيامة قال عقب الآية الأخيرة: (سبحانك اللهم فبلى)[3].

ج- ورد الاستفهام بـ(هل) ثلاثا وتسعين مرة فى القرآن كله، منها ثمان عشرة مرة فى المدنى، و خمسا وسبعين مرة فى المكى[4] كما هو فى هذه الأمثلة: **﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللّهُ يَبْدَؤا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾** (يونس: ٣٤- ٣٥)، **﴿وَبَرَزُواْ لِلّهِ جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللّهِ مِن شَيْءٍ قَالُواْ لَوْ هَدَانَا اللّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاء عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا**

---

[1] كما فى قوله تعالى: **﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾** (يونس: ٣١)، وقوله: **﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً﴾** (الكهف: ٦٦)، وقوله: **﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَى سَوَاء وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾** (الأنبياء: ١٠٩).

[2] ينظر: معجم الأدوات والضمائر فى القرآن الكريم، تكملة المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص١ وضعه: د/ إسماعيل أحمد عمايرة ود/ عبد الحميد مصطفى السيد. طبع: مؤسسة الرسالة، ط٤ ١٤١٨هـ ١٩٩٨م.

[3] الحديث: أخرجه أبو داود فى كتاب الصلاة باب الدعاء فى الصلاة - ٢/ ٨٨٤، والحاكم فى كتاب التفسير باب سورة القيامة ٢/ ٥١٠ وصححه ووافقه الذهبى، والإمام أحمد فى مسنده ٢/ ٢٤٩، والبغوى فى شرح السنة ٦٢٥، وفى التفسير ٥/ ١٨٨، طبع: دار إحياء التراث العربى، والبيهقى فى سننه ٢/ ٣١٠، وعبد الرازق فى التفسير ٣٤٢٢، والواحدى فى الوسيط ٤/ ٣٩٧ طبع: دار الكتب العلمية بيروت، وابن كثير فى تفسيره ٤/ ٤٥٢.

[4] ينظر: معجم الأدوات والضمائر فى القرآن الكريم ص٦٤٨.

مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ (إبراهيم: ٢١)، **﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾** (طه: ٩) **﴿وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾** (القمر: ١٥- ١٦).

فالاستفهام فى المثال الأول (من سورة يونس) فى أول آيتين منه هو للتقرير، ويلاحظ أن مضمون التقرير قد ورد فى نفس الآيتين عقب الاستفهام الوارد فى بداية كل منهما. وفى المثال الثانى من (سورة إبراهيم) يراد به التحسر والتفلت من المسؤلية، وفى المثال الثالث من (سورة طه) يراد به التشويق إلى التلقى، وفى المثال الرابع من (سورة القمر) يراد به الحض على التذكر والاتعاظ.

د- ورد الاستفهام بـ(متى) تسع مرات فى القرآن كله، منها مرة واحدة فى المدنى، والباقى كله -وهو الثمانى مرات - فى المكى[1]، ومن ينظر فى هذه المرات الثمانى يجد أنها تتعلق بموقف الكفار من البعث أو يوم الحساب، وهو موقف الإنكار أو الاستبعاد أو الاستهزاء أو هو مزيج من ذلك كله، كما فى هذه الأمثلة: **﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَـذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾** (يونس: ٤٨)، **﴿وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً أَوْ خَلْقاً مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيباً﴾** (الإسراء: ٤٩- ٥١)، **﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾** السجدة: (٢٨- ٢٩).

ومما يلفت النظر كذلك أن كل هذه المرات تكاد تكون بصيغة واحدة، وهى: **﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾** حيث ترددت هذه الصيغة ست مرات من ثمان للتعبير عن هذا الموقف السابق - موقف الكفار من البعث أو يوم الحساب، وهو موقف الإنكار أو الاستبعاد أو الاستهزاء - وليس من شك أن القرآن قد تَعَمَّدَ توحيد هذه الصيغة إلى هذا الحد، لتكون بمثابة نغم متميز فى ترديده، فيتميز معه فى حِسِّ المتلقى هذا الموقف المزرى الذى يقضه بعض بنى البشر من حقيقة البعث والحساب، هذه الحقيقة التى لا يَسَع أى إنسان سَوِىّ النَّفس والفطرة إلا أن يسلم بها راضيا مطمئناً دون أدنى مكابرة[2].

٢- أساليب التمنى:

من المعلوم أن (ليت) هى الأداة الأساسية فى التمنى وأن هناك أدوات أخرى يمكن أن تستخدم فيه مثل (لو) و(هل) و(لعل)[3] غير أنى سأكتفى فى الشواهد التالية بما يتصل فقط بهذه الأداة الأساسية: فلقد تردد أسلوب التمنى بهذه الأداة أربع عشرة مرة فى القرآن كله، منها مرتان فقط فى القرآن المدنى، والباقى كله اثنتا عشر مرة فى القرآن المكى، وهو فى هذه المرات كلها يرتبط بمعان وثيقة الصلة بموضوعات الدعوة فى الفترة المكية، فقد جاء مرة فى سياق قصة (صاحب الجنتين) تعبيرا عن ندمه وحسرته بعد أن أبادهما الله تعالى جزاء على كفره وطغيانه: **﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً﴾** (الكهف: ٤٢)، ومرة تعبيرا عن الأزمة النفسية الشديدة التى عاشتها السيدة مريم أثناء ولادتها للمسيح -عليهما السلام -: **﴿فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْياً مَّنسِيّاً﴾** (مريم: ٢٣)، ومرة فى سياق قصة (قارون) للتعبير عن بعض الذين فتنوا بزينته وكنوزه فقالوا: **﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾** (القصص: ٧٩)، ومرة فى سياق قصة (أصحاب القرية) بسورة يس. تعبيراً عن شفقة الرجل المؤمن على قومه ورثائه لهم، بعد أن لقى ما لقى عند ربه جزاء على إيمانه وتصديه للباطل: **﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾** (يس: ٢٦- ٢٧). ثم جاء فى جميع المرات المتبقية -وهى ثمان - تعبيراً عن تحسر الكفار وندمهم وارتعادهم عند الحساب ومعاينة العذاب، كما فى قوله تعالى: **﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً﴾** (الفرقان: ٢٧- ٢٨)، وقوله: **﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهْ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهْ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾** (الحاقة: ٢٥-٢٧).

---

[1] السابق: ص٥٧٠.

[2] كل ما ذكرته عن أغراض الاستفهام فى الأمثلة السابقة وما قبلها إنما هو من قبيل الاجتهاد والتقريب لامن قبيل الجزم أو الحصر، لأن تَبَينُّ هذه الأغراض قد يخضع كثيراً للتذوق الخاص، ولعله مما يؤيد ذلك حديث الإمام السيوطى عن معانى الاستفهام فى القرآن، حيث ذكر فيها اثنين وثلاثين وجهاً. ينظر: الاتقان. النوع السابع والخمسون ٢/ ١٢٠ وما بعدها.

[3] وذلك كما فى قوله تعالى: **﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء فَيَشْفَعُواْ لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾** (الأعراف: ٥٣) وقوله سبحانه: **﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾** (هود: ٨٠)، وقوله تعالى: **﴿إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾** (القصص: ٢٩).

ولا يخفى أن غلبة استخدام هذا الأسلوب تعبيراً عن هذا المعنى الأخير أمر فى موضعه تماماً، حيث إن الغاية الحقيقية من كل الرسالات السماوية إنما هو الفوز بمرضاة الله فى اليوم الآخر، كما أن الإيمان بهذا اليوم والاستعداد له يُعَدَّان أيضاً من قضايا الدعوة الهامة فى الفترة المكية، ومما يُلْحَظ أيضاً أن هذا الأسلوب لم يرد فى جميع المواضع السابقة على معنى التمنى الحقيقى إلا مرة واحدة تقريباً، وهى تلك المتعلقة بقصة قارون[1] أما فى باقى المواضع فقد كانت له أغراض أخرى كما سبق أن ذكرت.

٣- أساليب الردع والتهديد والتحذير:

هناك خمس أدوات أو وسائل تشكل أهم ملامح هذه الأساليب فى السور المكية وهى: كلمة **(كلا)** - و **(وَيْلٌ)** - صيغة **(وما أدراك)** - أسماء القيامة وأوصافها - تجاور الأدوات وتكرارها، وسألقى الضوء فيما يلى على كل أداة منها إجمالاً:

أ- كَلَّا: قال سيبويه: (إن كلا ردع وزجر، وقال الزجاج: كلا ردع وتنبيه، وذلك قولك: كلا لمن قال لك شيئاً تنكره، نحو: فلان يبغضك وشبهه، أى: ارتدع عن هذا وتنبه عن الخطأ فيه)[2].

لكن السياقات والمناسبات التى ترد فيها هذه الأداة تدل على أن معناها لا يقف عند هذا الحد، وإنما تعنى كذلك شدة الإنكار والاعتراض وقوة المواجهة والصمود، وبكل هذه المعانى وردت فى القرآن الكريم ثلاثا وثلاثين مرة كلها فى الفترة المكية التى تناسب ظروف الدعوة فيها كثرة استخدامها كما فى هذه الأمثلة:

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدّاً﴾ (مريم: ٧٧-٧٩)، **﴿فَلَمَّا تَرَاءى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾** (الشعراء: ٦١- ٦٢)، **﴿قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاء كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** (سبأ: ٢٧)، **﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾** (التكاثر: ٣-٥).

ب- ويل: ورد فى أصل اللغة أن (ويل) كلمة مثل (ويح) إلا أنها كلمة عذاب، يقال: ويله وويلك وويلى، وفى النُّدبة: ويلاه[3] وقد ترددت هذه الكلمة بجميع صيغها ويل، ياويلتى، ياولتنا... إلخ أربعين مرة فى القرآن كله، ليس منها إلا ست مرات تقريباً[4] فى المرحلة المدنية والباقى كله فى المرحلة المكية، والذى يُهم فى هذا الترديد -حسب نوع الأساليب التى سأتحدث عنها - هو ما كانت الكلمة موجهة فيه من الله سبحانه على سبيل التوعد والتهديد لأهل الباطل والمجرمين والمكذبين، وقد ورد ذلك سبعا وعشرين مرة -من أصل الأربعين السابقة - كلها فى الفترة المكية أيضاً إلاَّ ثلاثاً فى الفترة المدنية، وذلك كما فى هذه الأمثلة: **﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾** (ص: ٢٧)، **﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾** (الجاثية: ٧-٨)، **﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاء مَوْراً وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾** (الطور: ٩-١١).

ج- وما أدراك: هذه الصيغة صيغة استفهامية يقصد بها التهويل والتعظيم لما سيذكر بعدها، وقد ترددت فى القرآن كله ثلاث عشرة مرة، تقع جميعها فى الفترة المكية، وتتعلق فى تسع منها تحديداً بتعظيم شأن اليوم الآخر وما سيكون فيه من شدة الهول والعقاب، كما فى هذه الأمثلة: **﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾** (المدثر: ٢٦-٣٠)، **﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾** (الانفطار: ١٣-١٩).

---

[1] وقد صرح القرآن الكريم بهذا المعنى الحقيقى فى قوله تعالى: **﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾** (القصص: ٨٢).

[2] ينظر: شرح المفصل لابن يعيش ٩/ ١٦ طبع: عالم الكتب بيروت.

[3] ينظر: الصحاح للجوهرى، مادة (و ى ل) ٢/ ٧١٨ إعداد وتصنيف نديم مرعشلى، أسامة مرعشلى طبع: دار الحضارة العربية بيروت، وقد ورد فى كتب التفسير، ومنها: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ١٧٦ أن (الويل) واد فى جهنم، وذلك - أيا كان درجة صحته - لا يعارض الاستخدام اللغوى لأصل هذه الكلمة.

[4] استخدمْتُ صيغة التقريب فى بعض الإحصاءات لعدة أسباب، من أهمها: تعلق هذه الإحصاءات أحياناً ببعض ما لا يلزم التفصيل فيه من النصوص المختلف عليها بين المكى والمدنى - كما فى هذا الموضع - أو تعلقها ببعض النصوص المختلف على معناها مما لا يَحْسُن القطع فيه برأى معين.

د- أسماء القيامة وأوصافها: للقيامة أسماء متعددة ظاهرة واضحة فى السور المكية، وذلك كالحاقة والواقعة والقارعة والطامة والصاخة والراجفة، وهى تُشْعر بخَطَرها العظيم، وهذه الأسماء وما يتبعها من صفات تُشَكِّل ظواهر أسلوبية متميزة من هذه السور وبخاصة فى أوائلها، كما فى هذه الأمثلة:

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجّاً وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً فَكَانَتْ هَبَاء مُّنبَثّاً﴾ (الواقعة: ١-٦)، **﴿الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾** (الحاقة: ١-٦)، **﴿الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾** (القارعة: ١-٥).

ومن أوصاف القيامة التى تَتَعَلقَّ بهذا الحديث وتُمَثِّل أيضاً ظواهر أسلوبية واضحة فى القرآن المكى، تلك الأوصاف المشهورة الواردة فى أوائل بعض قصار السور على وجوه مختلفة:

فمنها -على سبيل المثال - ما تبدأ السورة به مباشرة، كما هو فى سورة التكوير **﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ وَإِذَا السَّمَاء كُشِطَتْ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾** الآيات من (١: ١٤)، ومثل ذلك فى سورة الانفطار من أولها إلى الآية (٥)، وفى سورة الأنفال من أولها إلى الآية (٦).

ومنها ما يرد تابعاً لبعض الأسماء السابقة، كتلك الأوصاف الواردة عقب ذكر الواقعة والحاقة والقارعة، وإن كانت تبدأ فى السورة الثانية من الآية الثالثة عشرة حتى الآية السابعة عشرة، بعد أن اعترض بينها وبين الحاقة حديث عن المصير الدنيوى لبعض الأمم السابقة تمهيداً لوصْلِهِ بهذه الأوصاف المتعلقة بالمصير الأخروى.

ومنها ما يأتى عقب بعض الأقسام الواردة فى أوائل بعض السور، كما فى الآيات من (٧-٩)، من سورة القيامة، وفى الآيات من (٨-١٠) من سورة المرسلات، وفى الآيتين (٦، ٧) من سورة النازعات.

هـ- تجاور الأدوات السابقة وتكرارها: إذا أضفنا التجاور أو المزج بين هذه الأدوات السابقة فى كثير من المواضع والسياقات مع تكرارها أيضاً فى بعض الأحيان تكون الصورة كاملة.

أما عن تجاورها: فهاهى - مثلاً - تجتمع كلها فى أوائل سورة المطففين: **﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾** (الآيات من ١: ١٠).

وها هى -إلا كَلَّا - تجتمع أيضاً فى أوائل المرسلات: **﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ وَإِذَا السَّمَاء فُرِجَتْ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ لِيَوْمِ الْفَصْلِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾** (الآيات من ٨-١٥) وها هى تكاد تجتمع فى سورة الهمزة، أو تكاد تسيطر على جو السورة كلها: **﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾**.

وأما عن تكرارها: فهو أمر واضح فى كثير من شواهد الأدوات السابقة -كلا، ويل، وما أدراك، الحاقة، القارعة ... إلخ، ومن شواهد هذا التكرار أيضاً أن القرآن قد يجعل من بعض الأساليب فى هذه الأدوات قُفلاً إيقاعياً خاصاً يتردد عقب مقاطع السورة كلها كما فى سورة القمر التى يتردد بين مقاطعها كثيراً -بصيغ معينة - ذكر العذاب والنذر، فضلاً عن ترديد الراء الساكنة فى أواخر فواصل السورة كلها، وكما هو الشأن فى سورة المرسلات التى يتردد فيها قوله تعالى: **﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾** عشر مرات.

وبهذا يظهر أن تجاور هذه الأدوات أو المزج بينها يتحول بها إلى نوع من التركيز الذى يزيد من فاعليتها، وأن تكرار أساليبها مما يتحول بها أيضاً إلى إيقاعات مُدَوِّية تُجَلِّى أغراضها وتُمَكِّنُ لها فى النفوس.

٤- أساليب الإضراب:

يوضح النحاة أن (بل) - وهى الأداة المستخدمة للإضراب - نوعان: **أولهما** (بل الابتدائية) التى تليها جملة، وهى التى تدل على الإضراب، كما فى قوله تعالى: **﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾** (الأنبياء: ٢٦)، أى: بل هم عباد، **والثانى:** (بل العاطفة) أى التى تأتى حرف عطف بشرط إفراد معطوفها، وأن تُسْبَق بإيجاب أوأمر أو نفى أو

نهى، كما فى قولنا: (قرأ بكر بل عمرو) و (ليكتب صالح بل محمد) و (ما كنت فى طائرة بل باخرة) و (لا تقاطع عليا بل خالداً)[1].

ويُفهم من هذا التقسيم أنهُ يَركِّزُ على الوظائف الإعرابية بالدرجة الأولى، ولا يمكن أن يُفْهَم منه قصر معنى الإضراب على (بل الابتدائية) أو حجبه عن بل العاطفة بدليل أن أصحاب هذا التقسيم يقولون: إن (بل العاطفة) تفيد سلب الحكم عما قبلها، وجعله لما بعدها إذا سبقها إيجاب أوأمر، وتفيد تقرير حكم ما قبلها وجعل ضده لما بعدها إذا سبقها نفى أو نهى[2] فذلك كله -كما لا يخفى - دَاخِلٌ فى معنى الإضراب.

ولا يفوتنى أن أُوَضِّح أن الإضراب لا يعنى دائماً إبطال ما قبل (بل) من الكلام لإثبات شىء آخر بعدها، إنما المقصود -كما هو ظاهر من واقع الاستعمالات اللغوية - أن يأتى بعد هذه الأداة كلام جديد، وأن يصبح ما قبلها فى حكم المسكوت عنه بصرف النظر عن كونه خطأً أو صواباً أو مُنَاقِضاً لما جاء بعدها أو غير مناقض.

مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ**﴾ (الأعراف: ١٧٩)، وقوله: ﴿**أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ**﴾ (المؤمنون: ٧٠).

ففى الآية الأولى يظهر أن ما بعد (بل) لم يأت ليصحح خطأ قبلها، لأن كون الكفار كالأنعام ليس بخطأٍ، إنما يأتى ليضيف شيئاً آخر يخدم نفس القضية التى يدور حولها الكلام، ومهمة (بل) فى مثل هذا الحال أن تعزل انتباه المتلقى عما قبلها ليكون مُهَيَّئاً تماماً للتأثر بما سيأتى بعدها، على الرغم من عدم تعارضه أصلاً مع ما قبله، أما فى الآية الثانية، فإن ما قبل (بل) يخالف بالفعل ما بعدها، فما قبلها ادعاء باطل عن الرسول ﷺ وما بعدها إنكار وتصحيح لهذا الإدعاء.

وعلى أى حال، فإن أسلوب الإضراب هذا - بصورتيه فى هاتين الآيتين - يُعَدُّ أيضاً من الأساليب الغالبة فى القرآن المكى، فهو أسلوب يرتبط بجو المواجهات والمجادلات بين الخصوم، حيث يُضْرِبُ كل طرف عن آراء غيره لِيُدْلى بما يراه صحيحاً أو لِيُمْعِنَ فى إثبات رأيه، ولابد أن يكون إضراب صاحب الحق فى هذه المواجهات أظهر وأكثر.

لقد ترددت كلمة (بل) فى القرآ كله سبعة وعشرين ومائة مرة، منها إحدى وعشرون مرة فقط فى القرآن المدنى، والباقى كله مائة وستٌ فى القرآن المكى[3]، وهذه بعض أمثلته: ﴿**وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاء وَالأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ بَلْ قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ**﴾ (الأنبياء: ٣-٥)، ﴿**وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ{٥٤} أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ**﴾ (النمل: ٥٤- ٥٥)، ﴿**أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَـهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ{٦٠} أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلاَلَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَـهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾ (النمل: ٦٠-٦١)، ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلاَلِ الْبَعِيدِ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ**﴾ (سبأ: ٧-٩).

هذا وَأَلْفِتُ نَظَرَ القارئ إلى أنه من المعلوم أن أساليب الاستدراك بـ لكن ولكنَّ وثيقة الصلة وظيفةً وأداءً بأساليب الإضراب، لكن الأمر اللافت للنظر أن هذه الأساليب لا غَلَبَة لها فى القرآن المكى كالأساليب الأولى، بل تكاد استخداماتها فيه تكاد تكون متساوية مع استخداماتها فى القرآن المدنى[4] ولعل السبب فى ذلك أن الأساليب الأولى ألصق بمواقف التصدى وشدة النكير التى كثيراً ما أخذها القرآن تجاه المستكبرين والمعاندين فى الفترة المكية، أما الأساليب الثانية، فإنها ألصق بمواقف التصحيح والتوضيح بوجه عام، الأمر الذى يحتاج إليه أعداء الدعوة وأتباعها على حد سواء، كلٌ بما يناسب حاله، ومن هنا كادت هذه الأساليب تتساوى فى كلتا الفترتين، ومن أمثلتها فى الفترة الأولى:

﴿ **قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ**﴾ (الأنعام: ٣٣)، ﴿**وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللّهُ مَن يَمُوتُ بَلَى وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾ (النحل: ٣٨)، ﴿**وَلَوْ بَسَطَ اللّهُ**

---

[1] ينظر: معجم النحو لعبد الغنى الدقر ص٨٨-٨٩ مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.

[2] ينظر: معجم النحو لعبد الغنى الدقر ص٨٨-٨٩ مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.

[3] إن حشد القرآن لهذا الإضراب - خلال قالب موجز- لهو أبلغ ما يعبر عن أحوال أعدائه، إنه يعكس هَمَّهُم وانشغالهم الدائب بتكذيبه من ناحية، ويعكس حيرتهم وتخبطهم فى محاولاتهم من ناحية أخرى.

[4] يراجع: معجم الأدوات والضمائر فى القرآن الكريم ص٥٠٤ وما بعدها.

الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْاْ فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ (الشورى: ٢٧)، ومن أمثلتها فى الفترة الثانية: ﴿**وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاء أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَـكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرّاً إِلاَّ أَن تَقُولُواْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً ...**﴾ (البقرة: ٢٣٥)، ﴿**... وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ (النور: ٢١)، ﴿**قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ (الحجرات: ١٤).

المبحث الرابع
ضوابط السور المكية

تمهيد:

أود فى بداية هذا المبحث أن أنبه على أمور أو أؤكدها:

الأمر الأول: أنه لا يصعب على أى باحث مهتم بالدراسات القرآنية أن يكتشف عشرات الضوابط المطلقة أو الغالبة لكل من السور المكية وغيرها، عن طريق المصادر الإحصائية الحديثة لتعبيرات القرآن وألفاظه كالمعجم المفهرس وغيره، لكن الذى يحتاج إلى بذل الجهد حقا، هو اختيار الضوابط الأوضح تعبيرا عن مرحلتها مع الربط بينهما وبين هذه المرحلة، بما يتيح المزيد من الكشف عن طريق الخطاب القرآنى فى معالجته لقضاياه واختياره لأساليبه وألفاظه حسبما يناسب هذه القضايا وحسبما يناسب المرحلة الزمنية التى تتنزل فيها سوره وآياته، فنعرف من خلال ذلك إلى أى مدى تتلائم الألفاظ والأساليب مع القضايا أو مع الواقع الذى تتعلق به، ولماذا يقتصر شيئ منها تماما على مرحلة دون مرحلة، أو يكثر استخدامه فى مرحلة بعينيها وإن لم يغب عن هذه المرحلة الأخرى، أويكاد يظهر مشتركا أو متساويا بين المرحلتين، وما أثر هذه المعرفة فى إيضاح مقاصد القرآن وخصائصه من ناحية، وفى الإسهام بمزيد من العطاء فى قضية إعجازة من ناحية أخرى، ونحو ذلك.

وما سوف أتعرض له من ضوابط فى هذا المبحث، لا يُمَثِّلُ حصراً لكل الضوابط بالطبع، وإنما يمثل نماذج لها فقط أولأبرزها، محاولا من خلالها- قدر الإمكان- التركيز على هذا الربط الذى ذكرته وعلى ما يسهم من إجابات عن هذه التساؤلات السابقة.

الأمر الثانى:- أن هذا المبحث لن يكون إلا امتداداً من نوع ما للمباحث السابقة، تَبَعاً لما أكَّدْتُه منذ بداية البحث من أن ضوابط السور ليست إلا نوعا من التفصيل أو التفريع لخصائص القرآن الموضوعية والأسلوبية، ومما يزيد ذلك تَأكُّداً أن المبحث الثالث لم يخل من شواهد واضحة لهذه الضوابط، تَطَرَّقْتُ إليها كلما اقتضى البحث ذلك.

الأمر الثالث:- أن قيمة أى ضابط لا تقاس بِكَمِّ الشواهد التى يُبْنى عليها، وإنما بتعبير هذه الشواهد- مهما كان عددها- عن خاصية أو ظاهرة حقيقية فى النوع الذى تنتمى إليه أو تغلب فيه، ومثال ذلك صيغة ﴿**يَا بَنِي آدَمَ**﴾ التى تمثل ضابطا واضحا من ضوابط السور المكية- كما سيظهر- رغم أنها لم ترد فى القرآن إلا خمس مرات.

الأمر الرابع:- أن التقسيم للضوابط إلى نوعين (مطلقة وغالبة) لا يعنى أيضا أى تفاوت فى القيمة بين النوعين، طالما كانت الغلبة فى شواهد أى ضابط- من هذا النوع الثانى- غلبة حقيقية تدل بوضوح على ما سيقت من أجله، فلا يضر أن يوجد مع الشواهد الغالبة فى نوع بعينة بعض ما يشبها فى النوع لدواع موضوعية أو فنية تستدعى هذا الوجود.

المطلب الأول:- ضوابط قديمة

ليس الغرض من وراء عرض الضوابط القديمة للسور المكية مجرد العرض، بل الغرض هو تناولها بالتحليل والتمحيص قبل أن أعرض بعدها أهم ما توصلت إليه من ضوابط جديدة، وتكاد ضوابط السور المكية- فيما هو معروف من كتب علوم القرآن القديمة والحديثة- تنحصر فى التالى:-

كل سورة فيها ﴿**يَا بَنِي آدَمَ**﴾ أو فيها ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ**﴾ فقط أو (كلا) أو أولها حرف تَهَجٍّ سوى الزهراوين والرعد أو فيها قصة آدم وإبليس سوى البقرة فهى مكية، وكل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم الغابرة سوى البقرة فهى مكية، وكل سورة فيها سجدة فهى مكية.

وفيما يلى أتناول هذه الضوابط ببعض الإيضاحات والتعليقات الضرورية:

١- **كل سورة فيها (يابنى آدم) فهى مكية:** لقد ورد هذا التعبير فى القرآن خمس مرات، كلها فى السور المكية، أربع منها فى سورة الأعراف، وواحدة فقط فى سورة يس كما فى قوله تعالى:

﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف:٢٧) **﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾** (الأعراف٣١).

أما قَصْر هذا التعبير على المرحلة المكية، فالحكمة فيه- كما يظهر لى- هى تذكير الناس عامة- والمخاطبين فى هذه المرحلة خاصة- بقصة المواجهة الأولى بين آدم والشيطان، وأظهر دليل على ذلك، أن هذا التعبير فى جميع مرات تَرَدُّده

لم يرد إلا فى سياق العرض القرآنى لهذا القصة أو عقبها مباشرة أو فى سياق التحذيرمن الشيطان[1] ، هذا فضلا عن أن هذه القصة نفسها يكاد يقتصر ترددها على الفترة المكية.

٢- **كل سورة فيها (يأيها الناس) فقط فهى مكية:** المقصود من هذا الكلام أن كل سورة فيها ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ**﴾ فقط وليس يأيها الذين آمنوا فهى مكية، وبعبارة أخرى أقول: إن السورة التى يجتمع فيها ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ**﴾ و﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ**﴾ أو يرد فيها ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ**﴾ فقط، فهى مدنية، أما التى فيها ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ**﴾ فقط فهى مكية.

فقد وردت الصيغة بـ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ**﴾ فى القرآن عشرين مرة، منها عَشْرٌ فى السور المكية، وست فى السور المدنية، وأربع فى سورة الحج المختلف عليها بين المكى والمدنى، ووردت الصيغة بـ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ**﴾ فى القرآن تسعين مرة، كلها فى السور المدنية، إلا مرة واحدة فى سورة الحج المختلف عليها بين المكى والمدنى، وَرَغْم أن قاعدة هذا الضابط التى ذكرتها فى بدايته واردة فى الإتقان إلا إنه قد ورد فى سياقها أيضا رواية أخرى تقول [إن ما كان فى القرآن ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ**﴾ فإنه مكى، وما كان ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ**﴾ فإنه مدنى ٠٠هكذا بإطلاق. وقد أراد البعض أن يصحح هذا القول فجاء بما هو أعجب-، حيث قال: هذا إنما هو فى الأكثر وليس بعام، وفى كثير من السور المكية ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ**]﴾[2]، فهو يقصد أن صيغة ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ**﴾ أكثر فى المكى، وصيغة ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ**﴾ أكثر في المدنى، وإن لم تختص إحداهما تماما بأى من النوعين. هذا بينما الإحصاءات التى أثبَتُّها سابقاً تدل على أن صيغة ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ**﴾ هى وحدها المشتركة بين المكى والمدنى، أما صيغة ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ**﴾ فليس لها وجود فى المكى إلا ما ذكرته عن سورة الحج المختلف عليها، فكيف يقال: وفى كثير السور المكية: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ**﴾؟!

٣- **كل سورة فيها (كلا) فهى مكية:-** وهذا من ضوابط السور المكية الدقيقة التى نَصَّ عليها القدماء بوضوح تام حيث قال أحدهما:

وما نزلت كلا بيثرب فاعلمنْ ∴ ولم تأت فى القرآن فى نصفه الأعلى

وأدركوا حكمته أيضا، حيث قالوا: وحكمة ذلك أن نصفه الأخير نزل أكثره بمكة، وأكثرهم أهلها جبابرة، فتكررت فيه على وجه التهديد والتعنيف لهم والإنكار عليهم[3] وقد سبق أن تطرقت إلى هذا الضابط فى المطلب الثالث من المبحث الثالث.

٤- **كل سورة فيها حرف تَهَجٍّ سوى الزهراوين والرعد فهى مكية:** وهذا ضابط دقيق أيضا، لولا أن سورة الرعد ليست مدنية باتفاق، إن لم تكن على الأرجح، وقد وردت هذه الفواتح فى مطالع تسع وعشرين سورة قرآنية، كلها مكى، إلا ثلاث سور، منها اثنتان مدنيتان بإجماع وهما البقرة وآل عمران، والثالثة وهى سورة الرعد من المختلف عليه بين المكى والمدنى، ومن ثم فإن هذه الفواتح تعد خاصية واضحة من الخواص الأسلوبى للقرآن المكى، وهذا النوع- الافتتاح بحروف التهجى- بخاصة لا يتميز فيه القرآن المكى عن المدنى فقط، بل يتميز فيه القرآن عموما على كل فنون القول التى عرفها العرب قبل نزوله.

٥- كل سورة فيها قصة آدم وإبليس فهى مكية عدا سورة البقرة: من المعلوم أن الشيطان رمز الشر والاستكبار والغواية، فقد تمرد على ربه، وأغوى آدم وزوجه حتى أوقعهما فى المعصية، وأقسم ليقعدن لذريتهما الصراط المستقيم، فكأن القرآن المكى يردد هذه القصة على مسامع الكفار المستكبرين ليذكرهم دائما بقصة الاستكبار الأولى، وَلِيُحَذِّرهم من هذا العدو المتربص بهم ليلاً ونهاراً.

٦- **كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم الغابرة فهى مكية، عدا سورة البقرة:** إن صلة قصص الأنبياء والأمم الخالية بالسور المكية أمر واضح، وقد سبق أن عرضت لذلك خلال المبحث الثانى، لكن الذى يحتاج إلى تعليق هو الاستثناء المتعلق بسورة البقرة فى هذا الضابط، فالعلماء لم يحددوا فى هذا الاستثناء أى قصص يقصدون، هل يقصدون القصص المتعلق بتلك الأمم المهلكة بعقوبات عامة كعاد وثمود وقوم لوط ونحوهم؟ أم يقصدون كل ما ورد عن قصص الأنبياء مع أممهم السابقة عموما؟ وكيفما كان الأمر فأرى أن هذا الاستثناء غير دقيق، **فبحسب القصد الأول،** لا يوجد فى سورة البقرة ما يتصل بهذه الأمم التى أهلكت بعقوبات عامة سوى خبر إغراق آل فرعون فى (الآيه:٥٠)، وهو خبر عابر فى سياق موضوع آخر يتعلق بأحوال بنى إسرائيل مع نبيهم موسىﷺ بعد الخروج من مصر، لا بقصتهم أو قصته مع فرعون قبل هذا الخروج،إلى جانب أن هناك إشارة فى نفس السور (الآيه ٢٥٩) إلى

---

(1) يراجع سورة الأعراف: الآيات من (١١إلى٣٥)، وسورة يسن: الآية (٦٠).
(2) ينظر: الإتقان: ٢٢/١-٢٣.
(3) السابق: ٢٣/١.

القرية التى مر بها عزير﴿**وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا**﴾ غيرأنها ليست من قرى هذه الأمم التى أهلكت، وإنما المقصود بها- كما يقول المفسرون-: (بيت المقدس بعد أن خَرَّبَها يختنصر وقتل أهلها)[1].

وبحسب القصد الثانى، فإن هذه السور لا تقتصر على سورة البقرة وحدها، بل ينضم إليها سورة آل عمران التى تطرقت فى آيات متتابعة إلى طائفة من أخبار زكريا ويحيى وعيسى -عليهم السلام- ،وقد جاء صراحة عقب هذه الآيات قول الله تعالى :﴿ **إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ (الأية:٦٢)، بل ربما لا تخلوا سورة مدنية أخرى من بعض مشاهد تَتَّصِلُ بهذه القصص أو غيرها.

والذى أميل إليه فى هذا الضابط أن يقتصر توجيهه على القصد الأول فقط، وألا يتضمن- بالتالى- هذا الاستثناء المتعلق بسورة البقرة.

٧- **كل سورة فيها سجدة فهى مكية:** ورد هذا الضابط بإطلاق، وكان ينبغى التنبيه إلى أن: سورتى (الرعد) و(الحج) فيهما سجدتان[2] وهما من المختلف عليه بين المكى والمدنى، ومن المعلوم أن، السجود هو أبرز مظاهر الخضوع، وأن القرآن المكى يُعْنىَ بمواجهة غرور الكفار واستكبارهم، ومن ثم فإن ارتباطه بتلك الآيات اللافته إلى سجود الكائنات لربها أو الداعية إليه يُعَدُّ نوعا من هذه المواجهة، بما عليه ذلك من شذوذ هؤلاء المستكبرين عن ناموس الكون الخاضع المنقاد لخالقه.

المطلب الثانى: ضوابط إضافية

من أبرزهذه الضوابط أن كل سورة ذكر فيها- بأى صيغة- (الوصف)أو (الخرص) أو(الجنون) أو(الزخرف) أو(الزجر) أو(التضرع) أو(الصور) أو(الصيحة)- التى بمعنى العقوبة أوالنفخ فى الصور- أو(الوزر)- الذى بمعنى الإثم أو أحمال الذنوب- أو ذكر فيها الفعل الماضى (حاق) أو مضارعه (يحيق) فهى مكية.

وفيما يلى أتناول هذه الضوابط بشيئ من الفصيل:

١- **الوصف**: ذكر(الوصف) بصيغ متعددة فى القرآن كله أربع عشر مرة، كلها فى السور المكية، كما فى هذه الشواهد: قوله تعالى﴿**وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ**﴾ (الأنعام:١٠٠)، وقوله: ﴿ **وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ**﴾ (الأنعام:١٣٩)، وقوله: ﴿**أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾ (الأنبياء ٢١-٢٢)، وقوله سبحانه: ﴿**مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾ (المؤمنون:٩١).

ومن يتأمل المرات الأربع عشرة التى أشرت إليها [3]، يلحظ أن(الوصف) فيها كلها يتعلق بالمعتقدات الباطلة أو الإدعاءات الكاذبة ذات الصلة الوثيقة بالفترة المكية التى اهتم القرآن فيها بمواجهة معتقدات الكفار وتصوراتهم الباطلة، وبمواجهة ادعاءاتهم أيضا التى يبررون بها ممارستهم الجاهلية فى مجال الحلال والحرام، ومصداق ذلك أن اثنى عشر من هذه الشواهد الأربعة عشر تحديداً تتعلق بهذه المواجهة، وأما الشاهدان المتبقيان فيتعلقان بقصة يوسف عليه السلام **أحدهما:** حين جاء إخوته على قميصه بدم كذب ليقنعوا أباهم بأن الذئب قد أكله، وذلك فى قوله تعالى: ﴿**وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ**﴾ (يوسف:١٨).

والآخر: حين رموا يوسف وأخاه الشقيق بالسرقة، وذلك فى قوله تعالى: ﴿**قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ**﴾ (يوسف:٧٧).

وبالرغم من أن هذين الموضعين لا يتعلقان بالكفار الجاهلين، إلا أنهما يَتَّسِقان مع بقية المواضع لعدم خروج استخدام(الوصف) فيهما عن نفس الدائرة التى تشمل الجميع فى دائرة التصورات الباطلة أو التقولات الكاذبة.

٢- **الخَرْص**: ذكر الخرص- بفتح الخاء وسكون الراء- بصيغ متنوعة خمس مرات فى القرآن كله، جميعها فى السور المكية، كما فى هذه الشواهد.

---

(1) ينظر: معالم التنزيل ٣٥/١، تفسير القرآن العظيم ٣١٤/١.

(2) ينظر قوله تعالى﴿ **وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ**﴾ "الرعد:١٥"، وقوله تعالى﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ "الحج:٧٧"

(3) يراجع: المعجم المفهرس، مادة (و ص ف) ص٨٤١-٨٤٢.

قوله تعالى﴿**سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ**﴾ (الأنعام:١٤٨)، وقوله: ﴿**أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ**﴾ (يونس: ٦٦)، وقوله: ﴿**قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ**﴾ (الذريات:١٠-١٢).

وهذا الضابط- كما يبدوا- وثيق الصله بالذى قبله، أو هو يدور معه فى دائرة واحدة، فمن معانى الخرص- كما فى أصل اللغة- حَزْر[١] ما على النخل من الرطب، وخَرَص النخل، أى: قدر كمية ماعليه من الرطب، والخَّرص أيضا: الكذب، والخَّراص: الكذاب[٢]، فهذه المعانى ترتبط كلها- كما هو واضح- بالتقدير العام القائم على التخمين دونما دليل قاطع، أو بالإدعاءات والتقولات الكاذبة، وربما اشترك كل من(الزعم) و(الخرص) فى هذه المعانى، لكن الخرص أدخل من الزعم فى باب الأوهام والأكاذيب، كما تشهد جميع سياقاته فى القرآن[٣]، ومنها ما جاء فى الشواهد المذكورة من قبل، وقد ارتبطت أربعة من هذه السياقات بتخرصات الكفار وأوهامهم فى قضايا العقيدة والتحليل والتحريم فى الفترة المكية[٤] أما السياق الخامس فهو قوله تعالى:﴿ **وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ**﴾ (الأنعام:١١٦)، والقصد من هذا السياق الأخير هو الإرشاد إلى المعيار الصحيح فى تَلَمسُّ المناهج، وهو ألا يبنى هذا المعيار على عدم من يحملون المنهج، وإنما على طبيعة المنهج نفسه مهما كان عدد الذين يحملونه، وبخاصة أن أغلب الناس- كما يشهد الواقع- ضعاف أمام أهوائهم وشهواتهم، ومنساقون وراء ظنونهم وأوهامهم، ولا شك أن هذا الإرشاد مما يتسق أيضا مع ظروف الدعوة بالفترة المكية، التى كان من أشد العقبات فى سبيلها غلبة الكفر وأهله مقابل العصبة القليلة المؤمنة، وهو ما ينشأعنه السؤال التقليدى الذى يطلقه الكثيرون بغير علم: كيف يكون هؤلاء على الحق وهم قلة؟! وكيف يكون هؤلاء على الباطل وهم كثرة؟!

ولقد قَصَرَ معجم التعبيرات القرآنية استخدام الْخَرْص تماما على المرحلة المكية، كما ربطه أيضا بالكفار وحدهم، ولم يربطه بغيرهم ولو على سبيل الحكاية[٥] ذلك لأن هذه المرحلة كانت هى ميدان الصراع الحقيقى بين (تخرصات الجاهلية) و(حقائق الوحى)، فكأنها كانت هى الأولى وحدها باستخدامات هذا اللفظ، أو كأن القرآن أراد أن يجعل منها عَلَماً خاصاً على أوهامها وأباطيلها.

٣- **الجنون:** ذُكِرَ لفظ (مجنون) فى القرآن كله إحدى عشره مرة، وذكر لفظ (جنة) الذى بمعنى الجنون لا بمعنى الجن خمس مرات[٦]، فيكون المجموع ست عَشْرَةَ مرة، كلها فى السور المكية، على هذا النحو.

﴿**وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ**﴾ (الصافات:٣٦)، ﴿**كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ**﴾ (الذريات:٥٢)، ﴿**فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ**﴾ (الطور:٢٩)، ﴿**أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ**﴾ (المؤمنون:٧٠).

واقتصار كل هذه المرات السابقة الخاصة بالجنون على الفترة المكية أمْرَ فى موضعه تماما، حيث كانت هذه الفترة هى فترة المواجهة الكبرى بين الدعوة وأعدائها الذين اتخذوا من رميها ورمى حاملها بكل نقيصةٍ أَحَدَ أَسْلِحَتِهم الهامة فى هذه المواجهة، وقد كان الاتهام بالجنون من أبرز هذه النقائص التى رمو بها الرسول الله ﷺ، ويبدو أنهم تشبثو بهذا الاتهام فترات طويلة من المرحلة المكية، بديل أنه تردد فى سور متعددة تكاد تتوزع على هذه المرحلة كلها من بدايتها إلى نهايتها، وهذه السور- حسب الترتيب الراجح لنزولها- هى القلم، التكوير، القمر، الأعراف، الشعراء، الحجر، الصافات، سبأ، الدخان، الذاريات، المؤمنون، الطور.

فأول هذه السور وهى القلم هى الثانية فى ترتيب النزول، وآخرها وهى الطور هى السابعة والسبعون فى هذا الترتيب الذى ينتهى فى المرحلة المكية بالسورة السابعة والثمانين[١].

---

(١) الحَزْر- بفتح فسكون- أى: التقدير ينظر: الصحاح، مادة: (ح زر) ٢٥٩/١.
(٢) ينظر: المصدر السابق: مادة: (خرص) ٣٣٨/١ ، والمعجم المفهرس ص ٢٨٣.
(٣) وكما تشهد سياقات الزعم أيضا التى سأتعرض لها خلال المجموعة الثانية.
(٤) يراجع الشواهد الثلاثة التى أثبتها من قبل، ويراجع أيضا قوله تعالى: ﴿**وَقَالُوا لَوْ شَاء الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ**﴾ "الزخرف: ٢٠".
(٥) كما فى حكاية القرآن لقول الكفار: ﴿**أَو تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً**﴾ "الإسراء: ٩٢".
(٦) ينظر: المعجم المفهرس مادة (مجنون) و(جُنَّة) ص ٢٢٠-٢٢١.

وقد كانوا يرتبون مع هذا الاتهام اتهامات أخرى موجهة إلى الرسولﷺ أيضا، من أشهرها:أنه (كاهن) أو(شاعر) أو(ساحر)، وهذه الألفاظ الثلاثة مما يسهم أيضا فى تميز القرآن المكى بقاموسه التعبيرى الخاص، حيث إن ترددها قد اقتصر تماما على الفترة المكية، فالكلمة الأولى ترددت مرتين، والكلمة الثانية ترددت أربع مرات، والكلمة الثالثة ترددت اثنتى عشره مرة.

ومن يمعن النظر فى طبيعة التهم الأربعة (الكهانه والشعر والسحر والجنون) يتبين له سبب لجوئهم إليها، فهم إذا أرادو فى طعنهم التسلل من جهة (الأسلوب) ادعوا- تارة- أن القرآن كهانة، برغم الصلة بين موسيقاه المتفردة وسجع الكهان المرذول، وادعوا- تارة ثانية- أنه شعر، حيث كان الشعر أرفع فنون القول عندهم، وادعوا- تارة ثالثة- أنه سحر، لتأثير نظمه الذى لا يُقَاوم فى النفوس.

وإذا أرادو التسلل من جهة (المضمون) نفسه، ادعو أيضا أنه كهانة، لما يجدونه فيه- حسب انغلاق عقولهم وقلوبهم- من غموص يربطون بينه وبين غموض الكهانة الحقيقى النابع من إفلاس الكهان وتصنعهم، وادعو كذلك أنه جنون، لغرابة ما يدعوهم إليه حين يزنونه بموازينهم الفاسدة فى فهم الكون والحياة، والجنون وعدمه- كما هو معلوم- أمران نسبيان، حسب طبيعة العقول أو النفوس التى تصدر الحكم بشأنهما.

وقبل مغادرة هذا المقام أود أن أنبه إلى أن الاتهام بـ(ساحر) أو (مجنون) أمر مشترك فى القرآن بين الرسول ﷺ وجميع الأنبياء بنص الآية التى سبق ذكرها (الذاريات:٥٢) أو الاتهام بـ(كاهن) أو(شاعر) فلم يُوَجَّه إلا إلى الرسول ﷺ، وذلك أيضا من دقائق القرآن، حيث كان الشعر والكهانة فنيَّن متميزين فى البيئة العربية خاصة، وكان للكهان والشعراء منزلتهم المعروفة فى هذه البيئة، فكان تمييز الرسول ﷺ عن غيره من جميع الأنبياء- عليهم السلام- بهذين الاتهامين نابعا بالتالى من تَمَيُّز بيئته بهذين الفنين.

٤- **الزخرف:** ورد هذه الكلمة- بعدة صيغ- أربع مرات فى القرآن كله[٢]، جميعها فى السور المكية، وهى:

قوله تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً**﴾ (الأنعام:١١٢)، وقوله: ﴿**إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ (يونس:٢٤)، وقوله: ﴿**وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللّهُ بَشَراً رَّسُولاً**﴾ (الإسراء:٩٤)، وقوله سبحانه: ﴿**وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِؤُونَ وَزُخْرُفاً وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ (الزخرف:٣٣-٣٥).

وقد ورد فى أصل اللغة أن (الزخرف) هو الذهب، ثم يشُبَّهُ به كلَّ مُمَوَّه مُزَوَّر، و(الزخرف) أيضا: المزين[٣]، ومن هذا المعنى يسهل فهم سر استئثار الفترة المكية بهذه الكلمة التى أُطْلِقَت على إحدى سورها، فالزخرف مرتبط بالدنيا وشهواتها وإغراءاتها، التى تعد عاملا أساسيا من عوامل الطغيان والضلال حين يخضع لها الإنسان، فتصبح هى فائده الذى وضع غشاؤة على عينيه ليتوجه به حيث يشاء.

وليس ببعيد أثر هذا العامل فى محاربة الكفار للدعوة بالفترة المكية، وبخاصة مع علمهم بأن دخولهم فى الدين الجديد سوف يحدث انقلابا شاملا فى نظام أخذهم وتركهم من هذه الشهوات، وهذا هو سر تحذير القرآن من الدنيا والركون إليها فى كثير من آياته المكية، كما هو فى الشاهدين الثانى والرابع (يونس والزخرف) من الشواهد السابقه، وفى الشاهد الثالث (الإسراء) وما سبقه من آيات[٤]- يتبين مدى سيطرة المقومات المادية الدنيوية على مشاعر الكفار، حتى إنها لتصبح فى نظرهم من أدلة صدق الرسول ﷺ لو أنه استطاع أن يجيبهم إلى ما طلبوه منها، وفى الشاهد الأول، يرتبط الزخرف بعامل آخر من عوامل الضلال، وهو الأقوال الخادعة والوساوس المزخرفة، التى يتبادلها أشقياء الجن والإنس لِيُغْرى بعضهم

---

(١) سيكون هناك كلام موسع فى ترتيب نزول السور وعدد مكيها ومدنيها فى المبحث الأخير من هذا البحث إن شاء الله.
(٢) يراجع: المعجم المفهرس مادة (زخرف) ص٤٠٥.
(٣) ينظر: الصاح، مادة (زخرف) ٥٣٢/١.
(٤) يراجع سورة الإسراء، من الآية (٩٠) إلى(٩٢).

بعضا بالغواية ومحاربة رسالات السماء، فلقد شغف أهل الجاهلية بممارسة هذه الهواية الخسيسة، وكانوا يتواصون معاً بهذه الغواية، ثم ينطلقون بين يدى الرسول ﷺ ومن خلفه حيثما يذهب، كى يحاربوه ويصدوا الناس عن سبيله[1].

٥- الزجر: وردت هذه الكلمة- بصيغ متعددة- ست مرات فى القرآن كله[2] جميعها فى السور المكية، وذلك فى سياق الآيات التالية:

﴿**وَالصَّافَّاتِ صَفّاً فَالزَّاجِرَاتِ زَجْراً**﴾ (الصافات:١-٢)، ﴿**فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ**﴾ (الصافات: ١٩). ﴿**وَلَقَدْ جَاءهُم مِّنَ الْأَنبَاء مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ**﴾ (القمر: ٤-٥)، ﴿**كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ**﴾ (القمر:٩)، ﴿**فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ**﴾ (النازعات:١٣-١٤).

---

(1) يراجع أمثله على ذلك فى مختصر سيرة الرسول (ﷺ) ص٥٩-٦٠، ص٧٦-٧٧ تحقيق: محمد حامد الفقى طبع: مكتبة المحمدية ١٣٧٥هـ-١٩٥٦م.

(2) ينظر: المعجم المفهرس مادة (زجر) ص٤٠٥.

والزجر فى اللغة له عدة معان، أشهرها وأنسبها مع استخداماته فى القرآن: المنع والنهى[1] وهذه الاستخدامات تدل أيضا على أنه أكثر من مجرد المنع والنهى، إنه المنع والنهى المصحوبان بالشدة والحسم.

والزجر وإن كان أساسا وظيفة (كَلاَّ) التى سبق التعريف بها، وأنها من خصائص المكى وضوابطه البارزة، لكنه- كما يبدومن شواهده السابقة- يتعلق بمدلولات أخرى وثيقة الصلة بالمرحلة المكية، فهو فى الشاهد الثالث يشير إلى أنباء الأمم الماضية التى فيها الكفاية لتخويف كفار العرب وردعهم، وإن لم يرتدعوا بها، وهو فى الشاهدين الثانى والخامس يقصد به صيحة البعث التى يَهَبَّ بها جميع الموتى من قبورهم إلى أرض المحشر، وهو فى الشاهد الأول يتعلق بالملائكة القاذفين للشياطين بالشهب، مَنْعاً له من التَّسَمُّع إلى الملأ الأعلى[2] وقيل أيضا: الزاجرات، أى السائقات السحب المحملة بالغيث إلى حيث يريد الله[3] وهو فى الشاهد الرابع: يتعلق بأحد مواقف المكذبين المتوقحين مع الأنبياء، فقوم نوح- عليه السلام- لم يكتفوا بتكذيبه ورميه بالجنون، وإنما نهروه أيضا وعَنَّفُوه على دعوته.

ومن الجدير بالذكر أن استخدامات الزجر فى القرآن تكاد تنحصر فى سورتى (الصافات) و(القمر)، ويشهد لذلك قضايا هاتين السورتين وأسلوب كل منهما، فقضاياهما متعلقة أساسا بمصائر الطغاة والمستكبرين والاعتبار بهما، وآياتهما القصار الشبيهة بالقذائف المتتابعة، تشيعان جو الزجر بالفعل وتبثانه من كل ناحيه، لذا كانتا- مع سورة (النازعات) التى تتسق معهما أيضا فى موضوعها وأسلوبها- من أولى السور إطلاقا بهذه الاستخدامات السابقة.

٦- التضرع: إن (التضرع) هو الابتهال والدعاء فى خضوع وخشوع، ومن ثم فإنه من أبواب انقياد المستكبرين لله ﷻ، حيثما تسمح بعض الظروف أو الأزمات التى تلجئهم إليه جل وشأنه.

وهو أيضا روح العبادة فيما يختص بالمؤمن، لأن أبرز مظاهر التعبد إظهار العابد لضعفه وافتقاره أمام معبوده، وفى ذلك جاء قوله تعالى:﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ**﴾ (غافر:٦٠)، وفسرت العبادة فى هذه الآية بأنها هى الدعاء، واستشهد لهذا التفسير أيضا بقول الرسول ﷺ: (إن الدعاء هو العبادة) [4].

لكل ذلك وجه الله سبحانه (الكافر) و(المؤمن) معا إلى التضرع وأحَبَّهُ منهما معا كما فى الشاهد السابق والشواهد التالية فقد ذكر التضرع فى القرآن بصيغ متنوعه سبع مرات[5]. جميعها فى السور المكية كما فى هذه الشواهد:

﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَـكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**﴾ "الأنعام:٤٢-٤٣"،﴿**قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَـذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ**﴾ (الأنعام:٦٣)، ﴿**ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**﴾ (الأعراف:٥٥)، ﴿**وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ**﴾ (الأعراف:٢٠٥).

وقد ظلت استعمالات هذه الكلمة مقصورة على الفترة المكية ولم تمتد إلى الفترة المدنية برغم تعلقها بكلا الصنفين (الكفار) و(المؤمنين) كما سبق، لأن هذه الفترة- خصوصا- هى فترة (المكابرة) عن قبول الرسالة، ولا يقابل المكابرة إلا (الخضوع) الذى يعبر عنه التضرع، ولعل ذلك يتأيد أيضا بأن أغلب استعمالات هذه الكلمة- أو خمسة منها تحديدا[6]- تتعلق بالكفار وعدم انقيادهم إلى الإيمان، رغم ما ينزل بهم من ألوان البلاء والعقاب.

---

(1) ينظر: الصحاح ٥٣٠/١، ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة. الطاهر أحمد الزاوى ٤٣٦/٢ طبع: عيسى البابى الحلبى.

(2) يراجع فى أقسام سورة الصافات: تفسير الجامع لأحكام القرآن للقرطبى، والتفسير الكبير للرازى، ومعالم التنزيل للبغوى، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير، والتفسير المظهرى، والوجيز لشوقى ضيف.

(3) الزجر بمعنى: السوق وَارِدٌ أيضا فى أصل اللغة. يقال: زجرالبعير، أى: ساقه، ينظر: الصحاح ٥٣٠/١، وترتيب القاموس المحيط ٤٣٦/٢، مادة : (ز ج ر).

(4) الحديث: أخرجه أبو داود فى كتاب الوتر باب الدعاء ٥٥١/١، والترمذى فى كتاب تفسير القرآن باب ومن سورة المؤمن برقم ٣٣٧٢ وقال: حسن صحيح، والحاكم فى المستدرك ٤٩٠/١، ٤٩١ وصححه ووافقه الذهبى، والنسائى فى التفسير ٤٨٤، وابن حاجه ٣٨٢٨، وأحمد فى المسند ٢٧١/٢٦٧/٤، وابن أبى شيبه ٢٠٠/١٠، والبغوى فى شرح السنة ١٣٧٨، وفى التفسير ١٢٠/٤، وابن كثير فى تفسيره ٨٥/٤.

(5) يراجع: المعجم المفهرس. مادة (تضرعا) ص٥١٦-٥١٧.

(6) وهى الواردة فى آيات سورة الأنعام: ٦٣/٤٣/٤٢، وفى سورة الأعراف: ٩٤، وسورة المؤمنون: ٧٦.

٧- **الصور:** وردت هذه الكلمة- بصيغتها هذه- عشر مرات فى جميع القرآن[١] كلها فى السور المكية كما فى هذه الشواهد: ﴿**فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءلُونَ**﴾ (المؤمنون:١٠١)، ﴿**وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ**﴾ (النمل:٨٧)، ﴿ **وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ**﴾ (الزمر:٦٨)، ﴿**يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً**﴾ (النبأ:١٨).

والمعروف بداية عند علماء التفسير أن (الصور) ينفخ فيه **ثلاث** نفخات: **النفخة الأولى** تسمى (نفخة الفزع) وهى الواردة فى آية سورة النحل فى الشاهد الثانى، **والنفخة الثانية**- التى تلى الأولى – هى (نفخة الصعق) الواردة فى آية سورة الزمر فى الشاهد الثالث، **والنفخة الثالثة** هى (نفخة البعث) الواردة فى نفس الآية السابقة[٢] أما صلة النفخ فى الصور بالمرحلة المكية واقتصاره عليها فأمر واضح تماما فى ضوء ما هو معروف من تركيز القرآن فى هذه الفترة على قضايا العقيدة، ومنها يوم البعث والحساب وما يتبعها من ذكر أحداث هذا اليوم وأهواله، ترهيبا للمعاندين المكذبين من ناحية، وحفزاً لهم على مراجعة أمرهم قبل أن تفاجئهم هذه الأحداث من ناحية أخرى.

٨- **الصيحة:** وردت هذه الكلمة فى القرآن- مُعَرَّفةً ومُنَكَّرة اثنا عشرة مرة، كلها فى السور المكية[٣]، كما فى هذه الشواهد ﴿**وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ**﴾ (هود:٩٤)، ﴿فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (العنكبوت:٤٠)، ﴿**إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ وَمَا يَنظُرُ هَؤُلَاء إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ**﴾ (ص:١٤-١٥)، ﴿**وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ**﴾ (ق:٤١-٤٢).

وقد جاءت هذه الكلمة فى جميع مواضعها المشار إليها على معنيين: **المعنى الأول** يختص بأحد أنواع العقاب الإلهى التى كان الله سبحانه ينزلها ببعض الأمم السابقة، وقد استخدمت الكلمة بحسب هذا المعنى ثمان مرات.

والمعنى الثانى يختص بصيحة الصور الذى ينفخ فيه إيذاناً بقيام الساعة، وقد استخدمت الكلمة بحسب هذا المعنى أربع مرات.

وقد وردت نفس الكلمة مرة واحدة فى القرآن المدنى، لكن بمعنى آخر متميز تماما عن المعنيين السابقتين، وذلك فى قوله عن المنافقين: ﴿**يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ**﴾ (المنافقون:٤)، أى: يرتعدون- لضعف نفوسهم وإيمانهم- عند سماع أى صوت، ولهذا استبعدت هذه المرة كلية عن الإحصاء المتعلق بهذه الكلمة، وحرصاً أيضا منذ البداية على التنبية إلى مَعنَيَيها الأوَّليين اللَّذين تَقَيَّدتُ بهما.

فبالعود إلى هذين المعنيين يتبين بوضوح اتصالهما الوثيق أيضا باهتمامات القرآن المكى، ومن بين هذه الاهتمامات المتصلة بالمعنى الأول: سرد أنباء الأمم الخالية وما حل بها من عقوبات لقاء طغيانها وتصديها لأنبيائها، عظة وتخويفا لكفار العرب من ناحية، ومواساةً وتثبيتاً للرسول ﷺ وأصحابه ﷺ من ناحية أخرى، **ومن الاهتمامات المتصلة بالمعنى الثانى**: التأثير على هؤلاء الكفار المنكرين للبعث، بذكر مقدماته وأحداثه التى تزلزل القلوب على نحو ما أشرت إليه فى الحديث عن كلمة (الصور).

٩- **الوزر:** جاء ذكر الوزر والأوزار بمعنى الإثم أو أحمال الذنوب فى القرآن كله [٤]- بضيغ متنوعة- اثنتين وعشرين مرة، كلها فى السور المكية كما فى هذه الشواهد:

﴿**قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**﴾ (الأنعام:١٦٤) ﴿**لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ**﴾ (النحل:٢٥) ﴿**كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْراً مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْراً خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاء لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً**﴾ (طه:٩٩-١٠١).

ولقد جاءت مادة (وزر) فى القرآن كله سبعا وعشرين مرة. فجاءت مرة بمعنى الملجأ والمهرب فى قوله تعالى:﴿**كَلَّا لَا وَزَرَ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ**﴾ (القيامة: ١١-١٢) وجاءت مرتين بمعنى المؤازر أو النصير فى قوله تعالى: ﴿**وَاجْعَل لِّي**

---

(١) يراجع: المعجم المفهرس مادة (الصور) ص٥١٢.

(٢) يراجع فى ذلك كتب التفسير ومنها: تفسير القرآن العظيم ٣/٦٠٢،٦٠٣، ٤/٩٦ وما بعدها.

(٣) يراجع: المعجم المفهرس مادة (الصيحة) ص٥١٢-٥١٣.

(٤) يراجع: المعجم المفهرس. مادة: (وزر) و(وزرا) و (أوزار) ٠٠٠ص٨٤٠.

وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي﴾ (طه:٢٩-٣٠) وجاءت بمعنى الأحمال الضخام فى قوله تعالى:﴿ **وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ**﴾ (طه:٨٧)، ومرة للتعبير عن انتهاء الحرب فى قوله تعالى: ﴿**حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنّاً بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا**﴾ (محمد:٤)، ثم جاءت فى بقية المرات اثنتان وعشرون على المعنى الأول الذى يدور حوله هذا الضابط.

وعلى أى حال فإن هذا المادة كلها مكية، إلا هذا الموضع الذى سبق ذكره من سورة محمد ﷺ وسر التركيز فى المرحلة المكية على هذا المعنى الأول- وهو الإثم أو أحمال الذنوب- الذى يدور حوله هذا الضابط أمران:

الأمر الأول: هو حرص القرآن على غرس الإحساس بالمسؤلية الفردية فى هذه المرحلة التى كانت واقعة تحت سطوه الجاهلية التى تختل فيها المعايير دائما، ويكاد ينمحى فيها الإحساس بهذه المسؤلية، وذلك لشيوع الفساد فى المجتمع إلى الدرجة التى يصعب فيها تحديد مصدره، ولتقسيم المجتمع إلى كبراء متبوعين وضعفاء أتباع، يلقون بالمسؤلية على هؤلاء الكبراء فى الخطأ والصواب، ويتخذونهم شفعاء أيضا إذا ما حدث أن حوسبوا أو تعرضوا للمساءلة، ومن هنا كانت الحرب الواضحة فى القرآن على الشفاعات الباطلة التى تضيع معها الحقوق، وكان فضحه أيضا لتَنَصُّل الضالين والمضلين بعضهم من بعض فى ساحة العرض يوم القيامة.

ومن أوضح السياقات القرآنية الدالة على هذا الأمر، والمرتبطة فى الوقت نفسه بشواهد هذا الضابط قوله تعالى:﴿ **وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً**﴾(الإسراء: ١٣-١٥).

الأمر الثانى: ترهيب هؤلاء الكبراء والمضلين من سوء المصير الذى ينتظرهم يوم القيامة: ﴿لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ﴾ (النحل:٢٥)، فكل إنسان- حقا يُقْدِم على ما يُقْدم عليه باختياره الحر، إلا أن ذلك لا يمنع من تأثير الظروف المحيطة به فى توجيه هذا الاختيار، ولكل نصيبه من الاثم، كما ورد فى الحديث: (من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا)[1].

والمؤدى إلى هذا الترهيب ليس هو مجرد تقرير الحقيقة التى يتعلق بها، لأنه ربما كان المضلون أنفسهم على علم بهذه الحقيقة، وإنما هو فى الصورة البيانية التى قدم من خلالها صورة الآثام، وقد أصبحت فى ذلك اليوم أحمالا فوق ظهور أصحابها، لا يجدون منها مهربا، ولا يجدون من يحملها معهم.

وإذا كانت أحمالهم هم تكفى لقصم ظهورهم، فكيف يكون الأمر إذا أضيف إليها من أحمال غيرهم؟!

ومن هنا فإن القرآن لم يعبر عن هذه الأحمال بالأوزار فقط، وإنما عبر عنها بالأثقال أيضا ليزيد الصورة جَلاءً: ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ**﴾ (العنكبوت:١٢-١٣) ولم يقل القرآن فى هذه الآيه الأخيرة " وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً أخرى" وإنما قال :" وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ" بتعمد التكرير لكلمة "الأثقال" حتى يشعر القارئ أو السامع بوطأتها تماما، كأنه هو الذى يحملها فوق ظهره.

١٠- **حاق- يحيق:** ورد الفعل الماضى (حاق) فى القرآن تسع مرات، كما فى الشواهد التالية:

﴿ **وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ**﴾ (الأنعام:١٠)، ﴿ **وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلاَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ**﴾ (هود:٨)، ﴿ **وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ**﴾ (الجاثية: ٣٣-٣٤).

وورد الفعل المضارع (يحيق) مرة واحدة، وبهذا يكون المجموع عشر مرات كلها فى السور المكية[2] كما فى قوله تعالى ﴿**وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً اسْتِكْبَاراً**

---

(١) الحديث: أخرجه مسلم فى كتاب: العلم باب من سَنَّ سنة حسنة أو سيئة ٤٨٠/٨ رقم ٢٦٧٤، وأبو داود فى السنة ٤٦٠٩/٤، والترمذى فى كتاب العلم باب ما جاء فيمن دعا إلى هدى فاتبع أو إلى ضلالة ٤٦٨/٤ رقم ٢٦٧٤ وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن خزيمة ٢٦٧٤، وابن ماجة فى المقدمة ٢٠٦، والدرامى ١٣١/١٣٠/١، وابن خزيمة ٢٦٧٤، والبغوى فى شرح السنة ١٠٩، وفى التفسير ٧٦/٣.

(٢) يراجع المعجم المفهرس مادة: (يحيق) و (حاق) ص ٢٧٢:٢٧٣.

فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئُ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾(سورة فاطر: ٤٢-٤٣).

وقد ورد بالمعجم فى مادة (ح ى ق): حاق به الشيئ: أحاط به، وحاق بهم العذاب، أحاط بهم ونزل[1] فهذه المادة مقترنة إذا بالعقاب الشديد الماحق، لكن استخداماتها القرآنية تكسبها ظلالا أخرى من المعانى، وهى أن هذا العقاب عادل، كما أنه سنة إلهية ثابتة لا بد أن تلحق بالمجرمين سواء فى الدنيا أو فى الآخرة.

وهذه المادة لم تستخدم فى الفترة المدنية رغم كثرة أعداد الإسلام فيها، وإنما بقيت خاصة بالفترة المكية وحدها، لتشارك غيرها من التعبيرات فى الدلالة على تعنت الكفار فى هذه الفترة تجاه الرسالة الخاتمة، ووقوفهم أمامها كالصخرة الصماء التى لا يجدى معها- إن لم يزحها أصحابها- سوى التفجير الشامل أو تهديدهم- على الأقل- بهذا التفجير وتخويفهم بمصائر أمثالهم فى الدنيا والآخرة، وهذا هو ما ورد فى كل الشواهد المتعلقة بهذه المادة، فمنها سبعة تقريبا، تختص بالعقاب الماحق للمجرمين فى الدنيا، وثلاثة تختص بعقابهم فى نار جهنم بالآخرة.

ومما يلفت الانتباه أن ثمانية من هذه الشواهد العشرة تنتهى دائما بخاتمة تكاد موحدة فيها كلها على هذا النحو :﴿ **فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ**﴾ (الأنعام:١٠) وكذا فى سورة (الأنبياء:٤١) ﴿**وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ**﴾ (هود:١٠)، وكذا فى سورة (النحل:٣٤)، وفى سورة (الزمر:٤٨)، وفى سورة (غافر:٨٣)، وفى سورة (الجاثية:٣٣)، وفى سورة (الأحقاق:٢٦)، فهى خاتمة أسلوبية مميزة تلفتنا بتميزها بقوة إلى وقاحة هؤلا المجرمين بسخريتهم واستهزائهم من رسل الله- من ناحية- وإلى عاقبة جرمهم هذا من ناحية أخرى، لا سيما أنها تعبر عن هذه العاقبة تعبيرا خاصا، حين تُغْفِل نوع العذاب الذى يحيق بهم وتجعل الجرم نفسه هو الذى يحيق بهم، فهو تعبير مرعب يُقر فى المشاعر أن الجرم والعذاب شئ واحد، لا ينفك أحدهما عن الآخر بأى حال من الأحوال.

وبلغت النظر أيضا هذا التناسق الدلالى بين استخدامات هذه المادة، واستخدامات كلمة (الصيحة) التى سبق الحديث عنها، حيث كان أغلب استخدامات كلمة (الصيحة) ثمانى مرات مختصا بما حاق بالمجرمين من عقاب إلهى فى الدنيا، وكان أربع منها مختصا بنفخة الصور التى هى إنذار لهم بعقاب الآخرة، وهنا كذلك نجد أن أغلب استخدامات كلمتى (حاق) و (يحيق) سبع مرات مختص بعقاب الله للمجرمين فى الدنيا، وأن ثلاثة منها مختص بعقابه لهم فى الآخرة، فهناك تَوافُقٌ وتَوَحُّد بين المادتين فى الميدان الذى تتعلقان به تقريبا فى العدد وفى توزيعه وكذلك فى الميدان، فهو تناسق واضح إن دل على شئ فإنما يدل على موازين القرآن الدقيقة فى أهدافه ومقاصده، وعلى موازنيه الدقيقة أيضا فى ألفاظه وتراكيبه المعبرة عن هذه الأهداف والمقاصد.

المطلب الثالث: ضوابط إضافية غالبة

هذا النوع من الضوابط – سواء فى السور المكية أو المدنية – أكثر كَمًّا من النوع السابق – الضوابط المطلقة – وسأكتفى فيه بطائفة من أبرز نماذجه على النحو التالى:

١- كل سورة ذكر فيها (السحر) – بأى صيغة – فهى مكية، ما عدا سورة، البقرة والمائدة والصف فإنها مدنية، وقد وردت هذه الكلمة بصيغها المختلفة فى القرآن ستين مرة، منها سبع وخمسون مرة فى السور المكية، وثلاث مرات فى هذه السور المدنية التى سبق ذكرها[2]، وذلك كما فى هذه الآيات الكريمة: ﴿**لَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ**﴾ (الأنعام: ٧)، ﴿ **فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ**﴾ (الشعراء: ٤١)، ﴿ **فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ**﴾ (القصص: ٣٦)، ﴿ **وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ**﴾ (ص: ٤).

هذا وصلة (السحر) بظروف الدعوة فى الفترة المكية أمر واضح، لأن السحر – كما سبق – أحد الاتهامات التى حاول الكفار أن يواجهوا بها الدعوة فى هذه الفترة، كالشعر والكهانة والأساطير والجنون، ونحو ذلك، لكنهم كانوا أكثر تركيزاً على تهمة (السحر) خاصة لسبب أساسى، وهو أن التهم الأخرى يمكن – ولو جدلا – أن تَقْبَل الدراسة والمقارنة مع القرآن الأمر الذى سيكشف كذبهم بسبب المفارقة التى لا شك فيها بين القرآن وحقيقة هذه التهم، أما (السحر) فإنه اتِّهامٌ غامضٌ يَسْهُل التَّنصُّل منه بتقديم الأدلة عليه، ومن ثم فإن كان بضاعة جميع المكذبين فى مواجهتهم لأنبيائهم، وهو اتهام يُدِين

---

(1) ينظر هذه المادة فى: الصحاح ٣٢٣/١، ولسان العرب لابن منظور ٧٧١/١ طبع: دار لسان العرب بيروت لبنان.

(2) يراجع: المعجم المفرس مادة: (السحر) بصيغها، ص ٤٢٥: ٤٢٦.

أصحابه فى الحقيقة ولا يؤيدهم، لأنه ليس إلا إفلاساً أو هروباً من مواجهة الحقيقة بطريقة موضوعية تخضع للبحث والمقارنة.

ومَنْ يُجِل النظر فى هذه المواضع المتعلقة بالسحر فى القرآن، يلحظ أن أغلبها يرد فى سياق قصة موسى عليه السلام مع فرعون، وذلك لأن تهمة السحر قد ألصقت – من قبل فرعون – بهذا النبى الكريم إلصاقا مباشرا، وكانت محورا لِجَوْلة حقيقية حاسمة من جولات الصراع بينه وبين فرعون وقومه[1]، ولما كان المراد بالقصص القرآنى هم المخاطبين به لِيَسْتَمِدُّوا منه العبرة، كانت مواجهةُ القرآن لهذه التهمة على مستوى قصة موسى – فى حقيقة الأمر – مواجهة لها على مستوى الكفار المعاندين فى الفترة المكية، لا سيما أن هذه القصة تعد أكثر القصص ترددا فى هذه الفترة.

وقد اقتضت ظروف الدعوة فى الفترة المدنية أيضا أن تمتد إليها خيوط قلائل من هذه التهمة، وذلك لأن اليهود كان لهم وجودهم المعروف بالمدينة فى ذلك الوقت، وكانت لهم مواجهاتهم ومكايدهم أيضا تجاه الرسالة الخاتمة، وهم لم يتهموا الرسول ﷺ بالسحر كما حدث من كفار مكة، لكنهم اتهموا به من قبل عيسى عليه السلام كما أنهم كثيرا ما شغلوا فى تاريخهم بتعلُّم (السحر) واتباعه دون تعلُّم (الوحى) واتباع الأنبياء، وهذا هو ما ذكره القرآن عنهم فى مواجهته معهم، على سبيل تبكيتهم وتعديد مثالبهم التى تذكرهم بأن ما يفعلوه حديثا مع الرسول الخاتم ليس إلا حلقة من تاريخهم الطويل المليئ باللؤم والضلال، وذلك ما نجده فى الآيات المدنيات الثلاث التى أشرت إليها فى بداية الكلام، فيقول الله سبحانه عنهم: ﴿**وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ**﴾ سورة (البقرة: ١٠٢)، ويخاطب الله تعالى عيسى عليه السلام بقوله: ﴿**وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ**﴾ (المائدة: ١١٠)، ويقول سبحانه: ﴿ **وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ**﴾ (الصف: ٦).

٢- كل سورة ذكر فيها (التسخير) فهى سورة مكية، إلا سورة (البقرة) المتفق على مدنيتها، وسورتى (الرعد) و(الحج) المختلف عليهما بين المكى والمدنى. **وقد ورد ذلك** بصيغ متنوعة فى القرآن سبعا وعشرين مرة، منها اثنتان وعشرون مرة فى السور المكية، والباقى خمس مرات فى السور الثلاث السابقة[2]، كما فى هذه الشواهد:﴿ **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ . وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**﴾ (إبراهيم: ٣٢-٣٣)، ﴿**أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ (النحل: ٧٩)، ﴿**وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ**﴾ (الأنبياء: ٧٩)، ﴿**وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا**﴾ (الزخرف: ٣٢).

ومن يتأمل المواضع المتعلقة بالتسخير فى القرآن المكى يلحظ أنها جميعا ذات صلة وثيقة باهتمامات القرآن فى الفترة المكية، فالتسخير فى أغلب هذه المواضع يتعلق بالكون المسخر أى: الخاضع المنظم بنواميس إلهية ثابتة لا يخرج عليها منذ خلقه الله تعالى وإلى أن تقوم الساعة، ويأتى هذا المعنى دائما، إما فى إطار الإشارة إلى قدرة الله سبحانه التى تتحكم فى تدبير شأن هذه النواميس، وإما فى إطار التذكير بفضل الله على البشر حين سخر لهم هذا الكون بجميع نعمه وخيراته[3]، وهما أمران يتصلان مباشرة بقضية (التوحيد) التى هى أساس بناء العقيدة فى الفترة المكية.

ثم يرد التسخير بعد ذلك فى ثلاثة مواضع مرتبطا بداود وسليمان عليهما السلام، حين سَخَّرَ للأول ﴿**الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ**﴾[4] وحين سخر للثانى﴿ **الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ**﴾ (ص: ٣٦).

وإذا كان التسخير الذى تَحَدَّثت عنه فى البداية عاما من حيث (المُسَخَّر) وهو (الكون كله)، ومن حيث (المُسَخَّر لهم) وهم (البشر جميعا) فإنه هنا (تسخير خاص) من حيث المسخَّر أيضا وهو (الجبال والريح) ومن حيث المسخَّر له وهو (داود وسليمان) وواضحٌ أن هذا الاستعمال الثانى للتسخير يرتبط بسير الأنبياء ومعجزاتهم التى هى سمة أصلية من سمات السور المكية.

---

(١) يراجع فى ذلك على سبيل المثال: (سورة الشعراء). الآيات من "٢٩: ٤٨".

(٢) يراجع: المعجم المفهرس مادة (سَخَّر) بصيغتها المتنوعة. ص٤٢٦: ٤٢٧.

(٣) وذلك واضح فى الشاهدين الأول والثانى من الشواهد السابق ذكرها.

(٤) يراجع آية الأنبياء السابقة، والآية (١٨) من سورة (ص).

ثم يرد التسخير فى موضع واحد بهذا الاستعمال الخاص أيضا، وإن كان مُتَعَلّقا بمسألة أخرى وثيقة الصلة بالقرآن المكى كذلك، وهى مسألة العقوبات المهلكة التى كان الله سبحانه يُنْزِلها ببعض الأمم السابقة، وذلك فى قوله ﷻ: ﴿ **وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا**﴾ (الحاقة: ٦،٧)، فالتسخير هنا لشئ مخصوص وهو (الريح) فى مناسبة مخصوصة وهى (العقاب).

كما يَرِد فى موضع واحد بمعنى (الاستخدام)، وذلك فى إطار قضية أخرى من قضايا الفترة المكية، وهى قضية التصديق بنبوة الرسول ﷺ ومكابرة الكفار بشأنها، وفى ذلك ورد قوله ﷻ: ﴿**وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءَانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ . أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ**﴾ (الزخرف: ٣١- ٣٢). فحجة الكفار فى رفضهم لهذا التصديق هى: (أنهم قالوا منصب الرسالة منصب شريف فلا يليق إلا برجل شريف، وقد صَدَقُوا فى ذلك إلا إنهم ضَمُّوا إليه مقدمة فاسدة، وهى أن الرجل الشريف هو الذى يكون كثير المال والجاه، ومحمدٌ ليس كذلك فلا تليق رسالة الله به، وإنما يليق هذا المنصب برجل عظيم الجاه كثير المال فى إحدى القريتين، فرد الله عليهم وأبطل شبهتهم بأن تنزيل الرسالات وهى رحمة الله للناس ليس من شأنهم، وإذا كان ﷻ هو الذى تولى قسمة حظوظهم الدنيوية فيما بينهم فمن باب أولى يكون هو المَسْؤول وحده عن اصطفاء الأنبياء[١] أما قوله تعالى: ﴿**وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا**﴾ (الزخرف: ٣٢)، فمعناه (اختلاف القدرات والتخصصات بين الناس، كى يتعاون بعضهم مع بعض ويخدم كل منهم غيره فيما يُحْسِنه مقابل أن يخدمه الآخرون أيضا فيما يُحْسِنونه)[٢]

أما السور الثلاث المستثناة من هذا الضابط، فقد ورد التسخير فيها على أول معنى ذكرته[٣]، وفى سورتى (الرعد) و(الحج) خلاف كما سبق، أما سورة (البقرة) المتفق على مدنيتها فقد تَطَرَّقَتْ إلى هذا المعنى فى أحد سياقاتها المتصلة بقضية التوحيد[٤] وهى قضية مكية أساسا لكن القرآن المدنى كان يعاود طَرْقَها أحيانا للتذكير بها أو لِتَثْبيت جُذُورها.

هذا فضلا عن أن هذه السورة – خصوصا – تَتَضَمَّنُ غير قليل من السمات والدلالات التى تربطها بالفترة المكية، وكأنها بعض خيوط لا تزال مَشْدُودة إلى هذه الفترة السابقة على نزولها مباشرة، ويُلْحَظُ ذلك فى بعض الضوابط السابقة، كالضابط الخاص بقصة آدم وإبليس، والخاص بالسحر، وقد يُلْحَظ أيضا فى ضوابط أخرى قادمة.

٣- كل سورة ذكرت فيها (السُّخْرية) فهى سورة مكية، إلا سورة البقرة والتوبة والحجرات فإنها مدنية، وقد ورد ذلك فى القرآن بصيغ متنوعة خمس عشرة مرة، كلها فى السور المكية إلا أربع فى هذه السور السابقة[٥]، كما فى هذه الآيات الكريمة:

﴿**وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ**﴾ (هود: ٣٨)، ﴿**بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ . وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ . وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ**﴾ (الصافات: ١٢- ١٤)، ﴿ **وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ . أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ**﴾ (ص: ٦٢- ٦٣).

إن السخرية هى الاستخفاف والاستهزاء، وهذا معنى وثيق الصلة بظروف الدعوة فى الفترة المكية، حيث كانت سخرية الكفار من الرسول وأتباعه إحدى طرقهم فى مواجهة هذه الدعوة وصد الناس عنها، وهذه الطريقة يمكن أن يَلْجَأ إليها أهل الحق أنفسهم فى مواجهة أهل الباطل، لكن لجوء هؤلاء إليها أكثر، كى يستروا عجزهم كلما أعوزتهم الحيلة فى مواجَهَةِ الحق مواجهةً موضوعية قائمة على الحجة والبرهان.

وربما كان من أشد سياقات القرآن على الكفار فى سخريته منهم، هذا المشهد الحى الذى ينقله أمامهم نقلا من يوم الحساب، ليروا من خلاله أنفسهم وهم يتخاصمون فى النار ويتساءلون عمن كانوا يسخرون منهم فى الدنيا[٦]، وكذلك هذا المشهد الوارد فى قوله تعالى: ﴿**إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ . طَعَامُ الْأَثِيمِ . كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ . كَغَلْيِ الْحَمِيمِ . خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ . ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ . ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ**﴾ (الدخان: ٤٣- ٤٩).

---

(١) يراجع: مفاتيح الغيب للإمام الرازى ١٤/ ٩٥ طبع: دار الغد، وتفسير المظهرى ٨/ ٢٨٤ طبع: إحياء التراث العربى، تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/ ١٢٧.

(٢) يراجع السابق وأيضا: تفسير أبدع البيان لجميع آى القرآن للشيخ محمد بدر الدين بن الملا درويش التلوى ص٥١٩ طبع: دار النيل.

(٣) يراجع الآيه (١٦٤) من سورة (البقرة) والآيه (٢) من سورة (الرعد) والآيات (٣٦، ٣٧، ٦٥) من سورة (الحج).

(٤) يراجع هذا السياق فى الآيات من (١٦٣) إلى (١٦٧) بهذه السورة.

(٥) يراجع: المعجم المفرس. مادة (سَخَر) ص٤٢٦.

(٦) يراجع هذا المشهد فى سورة (ص) الآيات (٥٩- ٦٤) وقد نقلت بعضه ضمن الشواهد القرآنية السابقة.

ففى هذين المشهدين لا يَسْخَر القرآن من الكفار باللفظ الصريح، بل بالواقع الحى المهين الذى سيكونون عليه فى الآخرة، والذى يُفهم من ذلك أن سخرية أهل الحق من أهل الباطل قد تكون مطلوبة – إن لم تكن واجبة – فى بعض الأحيان، ليعرفوا حجمهم الحقيقى وليوقنوا بصلابة الحق وثقته فى نفسه.

أما (السخرية) التى وردت أربع مرات فى القرآن المدنى، فإن مَرَّةً مِنْها هى بمثابة خيط لا يزال ممتدا من الفترة المكية عبر سورة البقرة القريبة العهد بهذه الفترة، وذلك فى قوله تعالى: ﴿**زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ (البقرة: ٢١٢).

وأما المرَّات الثلاث الأخر، فإنها تتعلق كلها بظروف وأحكام تختص بالعهد المدنى، فمنها مرتان فى سياق مواجهة المنافقين الذين يسخرون من صدقات فقراء المؤمنين، وذلك فى الآية (٧٩) من سورة (التوبة)، ومنها مرة واحدة فى سياق الإرشادات والتوجيهات الاجتماعية التى تضمنتها سورة (الحجرات) بشأن علاقات المؤمنين فيما بينهم، وذلك فى الآية الحادية عشرة من هذه السورة.

٤- كل سورة ذكر فيها (الزَّعْم) فهى مكية، إلا سورتى: (النساء) و(الجمعة) فإنهما مدنيتان، وفى (التغابن) خلاف.

وقد ورد ذلك فى القرآن بصيغ متنوعة أربع عشره مرة، منها إحدى عشرة مرة فى السور المكية، وثلاث مرات فى هذه السور المذكورة[1]، وذلك كما فى هذه الشواهد: ﴿**وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ** ﴾(الأنعام: ٩٤)، ﴿ **وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ**﴾ (الأنعام: ١٣٨)، ﴿**وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا . أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا**﴾ (الأسراء: ٩٠- ٩٢)، ﴿**وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا**﴾ (الكهف: ٤٨).

و(الزعم) فى أصل اللغه هو: القول عموما[2] لكن استخدامه قد اشتهر – خصوصا – فى الأقوال والادعاءات الباطلة أو التى لا تزال بحاجة إلى دليل لإثبات حقيقتها.

وحسب هذا الاستخدام المشهور، ورد (الزعم) بصيغه المختلفة فى السور المكية، وسِرُّ غَلَبَتِه فيها إنما يرجع إلى طبيعة التَّصَوُّرات والأحكام الجاهلية الفاسدة فى ميدان العقيدة والسلوك، فكان القرآن فى بعض سياقاته يَنْسِبُ إليهم هذه التصورات والأحكام بصيغة (الزعم) التى تُوحِى بتَخَبُّطِهم وضلالاتهم فى هذا الميدان، كما هو واضح من الشواهد السابقة.

وجميع المواضع القرآنية التى وردت فيها هذه الصيغ ترتبط بهذه الضلالات الجاهلية، إلا مَرَّةً واحدة وردت فيها ضمن حكاية القرآن لكلام الكفار فى هذه الآيات السابقة من سورة (الاسراء)، فَهُمْ فى الآية الأخيرة يقولون: ﴿**أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا**﴾ أى: أن ما تهددنا أو يهددنا القرآن به من عقوبات مهلكة ليس إلا زَعْما أو ادِّعَاءً نريد أن نَتَثَبَّت من صِحَّتِه.

وحكاية القرآن لكلام الكفار هذا أمرٌ مقصودٌ بالطبع، يريد به أن يلفت الأنظار والعقول إلى مدى الْهُوَّة السحيقة التى يَسْقُط فيها أهل الباطل، حين تنقلب الموازين تماما فى تصوراتهم، فَيُصْبح الباطل عندهم هو الحق الثابت، ويُصَّبح الحق الثابت هو الزعم الذى يحتاج إلى دليل، هذا مع أن نفس مطالبهم المتعنتة التى حكاها القرآن بالغة الدلالة على حُمْقهم وضلالهم، فمتى يُؤْمنون إذا أسقط الله عليهم السماء كسفا؟! وهل ينفع الإيمان حينئذ؟! وكيف يأتى الله سبحانه الذى ليس كمثله شئ هو والملائكة قبيلا يرونهم بأعينهم؟!.

أما الموضعان اللذان فى سورتى: (النساء) و(الجمعة) المدنيتين، فإنهما يرتبطان بفئتَيْن بارزتَيْن فى المجتمع المدنى يُتَوَقَّع منهما دائما الأكاذيب والادعاءات الباطلة. **أما الفئة الأولى** فهى: المنافقين الذين جاء عنهم قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ...**﴾ (النساء: ٦٠)، **وأما الفئة الثانية** فهى: اليهود الذين جاء عنهم قوله تعالى: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾ (الجمعة: ٦).

---

(١) يراجع: المعجم المفهرس. مادة: (زعم) بصيغها المتنوعة ص ٤٠٥- ٤٠٦.

(٢) ينظر: الصحاح ١/ ٥٣٨، لسان العرب ٢/ ٢٦ مادة: (زعم).

وأما الموضع الذى فى سورة التغابن، فهو ما ورد فى قوله تعالى: ﴿**زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا**﴾ (الآيه: ٧). وهذه – كما ذكرت – من المختلف عليه بين المكى والمدنى، إلا أن مطلعها – خاصة – ذو طابع مكى واضح، ومن هنا فإن هذا الموضع قد جاء متعلقا ببعض مزاعم الكفار، على شاكلة ما هو معروف منها فى العهد المكى.

٥- كل سورة ود فيها ضمير الرفع المنفصل (أنت) خطابا من الله تعالى لرسوله ﷺ فهى مكية، إلا سورتى: (البقرة) و(الأنفال)[١] فإنهما مدنيتان، وفى (الرعد) خلاف.

وقد ورد ذلك فى القرآن سبعا وعشرين مرة، منها أربع وعشرون مرة فى السور المكية، وثلاث مرات فى هذه السور الثلاث السابقة، كما فى هذه الشواهد: ﴿**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ**﴾ (الأنعام: ١٠٧)، ﴿**فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ**﴾ (هود: ١٢)، ﴿**فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ . وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ (الذريات: ٥٤- ٥٥)، ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ. لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ (الغاشية: ٢١- ٢٢).

لقد ورد الضمير الذى أَتَحَدَّثُ عنه إحدى وثمانين مرة فى القرآن كله فى شَتَّى أغراضه، خطابا من الله تعالى لبعض خَلْقِه أو خطابا منهم له سبحانه أو خطابا من البشر بعضهم لبعض، ومن هذه المرات كلها، ورد ثلاثين مرة خطابا من الله تعالى لبعض أنبيائه، منها ثلاث مرات تَخْتَصُّ بسيدنا نوح وموسى وعيسى -عليهم السلام-، والباقى وهو سبع وعشرون مرة يختص كما ذكرت بالرسول محمد ﷺ[٢]

ومن يتأمل هذه المرات الأخيرة فى المرحلة المكية، يلحظ أن ذلك أيضا يرجع إلى أسباب هى من صميم قضايا هذه المرحلة، فمن هذه القضايا ما يتصل بحزن الرسول ﷺ وأسفه العميق على ضلال الكفار وشرودهم عن طريق الإيمان، وهو ما أشار إليه القرآن المكى كثيرا فى مثل قوله تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً ﴾ (الكهف: ٦)، وقوله: ﴿**وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا**﴾ (لقمان: ٢٣).

من ثم فإن هذا النوع من الخطاب قد ورد عشرين مرة من مجموع أربع وعشرين مرة بالسورة المكية، إيناساً من الله تعالى لرسوله ﷺ وسلوانا[٣] لهمه وحزنه بشأن هذه القضية.

وظاهر هذا الخطاب – كما يبدو من خلال شواهده السابقة وغيرها[٤] تعريف الرسول الكريم بطبيعة المهمة التى كلف بها حتى لا يشغل نفسه بما فوقها، وهى أنه (نذير) فقط أو (مذكر) أو(مبلغ)، لكن المراد – حسبما أعتقد – هو هذا الإيناس والسلوان، ولو كان القصد أن يُعَرِّفه بمهمته لكفى التنبيه إلى ذلك مرة واحدة، وفى المرة الواحدة كفاية له ﷺ وهو من هو فى الوقوف عند حدود الله، لكن الخطاب كان يتكرر كلما تكررت الأحزان والهموم، مصداقا لقوله تعالى: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا**﴾ (الفرقان: ٣٢).

بقى بعد ذلك أربع مرات: هناك مرتان منهما فى قوله تعالى: ﴿**أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى . فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى . وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى . وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى . وَهُوَ يَخْشَى . فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى**﴾ (عبس: ٥- ١٠)، والخطاب فى هاتين المرتين ليس لنفس الغرض السابق، إنما هو لغرض العتاب والتوجيه، غير أن الغرضين جميعا يتعلقان بنفس القضية الأساسية قضية اهتمامه ﷺ بهداية الكفار، بدليل السبب المشهور فى نزول هذه السورة المتعلق بعبد الله بن أم مكتوم (الأعمى) ﷺ[٥]، وبدليل سياق نفس الآيات السابقة التى جاء بعدها مباشرة: ﴿**كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ . فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ**﴾ (الآيتان: ١١- ١٢).

أما المرتان الأخريان، فَإِنَّهُمَا لا تفارقان أيضا اهتمامات القرآن المكى، **فالأولى** منهما وردت فى سياق قوله تعالى عقب قصة سيدنا نوح عليه السلام: ﴿**تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ (هود: ٤٩)، فكلمة ﴿**أنتَ**﴾ فى هذه الآيه تأكيد لضمير الرفع المتصل الخاص بالرسول ﷺ فى كلمة ﴿**كُنتَ**﴾، وهو تأكيد مطلوب للدلالة على صدقه ﷺ فى رسالته، بدليل ما يأتى به من أنباء الغيب التى لا عهد له ولا لقومه بها، وأما

---

(١) أود أن أنبه إلى أن النص المتعلق فى هذه السورة بموضوع هذا الضابط واردٌ ضمن آيات مختلف عليها أيضا بين المكى والمدنى، وهى الآيات من "٣٣ إلى ٣٦".

(٢) يراجع: معجم الأدوات والضمائر فى القرآن الكريم. ص٦٦٩- ٦٧٠.

(٣) هذا مما ذكر بالصحاح ١/ ٦٠٨ فى مادة: (س ل ا)، (وقيل: السلوان "بالضم" دواء يُسْقَاه الحزين فيسلوا أى: ينكشف همه).

(٤) ينظر أيضا: سورة (يونس) (٤٢- ٤٣) و(الفرقان) (٤٣) و(النحل) (٨١) و(الروم) (٥٣) و(فاطر) (٢٢- ٢٣) و(الزمر) (٤١) و(ق) (٤٥) و(النازعات) (٤٣- ٤٥).

(٥) السبب: أخرجه الترمذى ٣٣٣١، وابن حبان ٥٣٥، والحاكم ٢/ ٥١٤، ومالك فى الموطأ برقم ٤٧٦ طبع: دار إحياء التراث العربى. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقى، والبغوى فى تفسيره ٥/ ٢٠٩، ٢١٠، وابن كثير فى تفسيره ٤/ ٤٧٠ وقال: وفيه غرابة ونكاره. والخلاصة: كلهم رووه بألفاظ متقاربة، والمعنى متحد، وأن الآيات نزلت فى شأن عبد الله ابن أم مكتوم.

المره **الثانية**: فهى الواردة فى قوله تعالى: ﴿**لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ . وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ**﴾ (البلد: ١- ٢) فـ﴿**أَنتَ**﴾ هنا واردة فى سياق تكريمه ﷺ وتعظيم شأنه، وهو أمْرٌ مطلوبٌ فى جَوِّ المرحلة المكية خصوصاً، جَرَّاءَ تَكْذيب الكفار وانحطاطهم فى مواجهته ﷺ.

ولا يفوتنى بعد ذلك أن أشير إلى دلالة أخرى لهذا الخطاب فى جميع مواضعه السابقة، وهو من شواهد صدق هذا الكتاب الكريم، من حيث دلالته على التمَّيْز الواضح فيه بين (الذات الملقية) و(الذات المتلقية)، فبتكراره وكثرة توجهه من الله لرسوله يكون الشعور التام بوجود (من يعانى) و(من يُعنى به) وبوجود (من يهتم) و(من يهتم به) أى يكون الشعور تماما بوجود المُلْقى والمُتَلقى، وهذا الشعور يصح أن يكون دليلا مستقلا من أدلة إعجاز القرآن الكريم، يمكن تسميته بدليل (الإلقاء والتلقى)، وهو دليل يَتَأيَّد بشواهد كثيرة إذا لوحظ – مثلا – ما يمكن إحصاؤه فى القرآن بالمئات من أنواع الخطاب الإلهى الموجه إلى الرسول ﷺ إرشاداً أو جوابا أو عتابا أو تَثْبيتا أو تذكيرا أو أمرا أو نهيا... إلخ ذلك[1]

٦- كل سورة ذُكِر فيها بَسْط الرزق وتقديره فهى مكية، إلا سورة (البقرة)، وفى (الرعد) خلاف، وقد ورد ذلك فى القرآن كله إحدى عشره مرة، منها تسع فى السور المكية، واثنتان فى (الرعد) و(البقرة) كما فى هذه الشواهد:

﴿**وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا . إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا . وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا**﴾ (الاسراء: ٢٩- ٣١)، ﴿**وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ . اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ (العنكبوت: ٦٠- ٦٢)، ﴿**وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ . قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ**﴾ (سبأ: ٣٥- ٣٧)، ﴿**وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ**﴾ (الشورى:٢٧).

هذا وغلبة مسألة بسط الرزق وتقديره – أى تَقتيرُه أو تضييقه – فى السور المكية أمر فى موقعه تماما، سواء بالنسبة للمشركين أو بالنسبة للجماعة المؤمنة الناشئة فى العهد المكى وذلك للأسباب التالية:

أ- هذه المسألة تتصل بأركان العقيدة مباشرة، التى منها الإيمان بالله ﷻ على الوجه الصحيح، فمن صحة الإيمان معرفة ما يستحقه ﷻ من الأسماء والصفات التى من بينها (الرزق) و(الرازق).

ب- وقوف قضية الرزق فى كثير من الأحيان سداً حائلاً دون تَقَبُّل دعوات الأنبياء، حين يعتقد البعض أن هذا التقبَّل قد يُشْغلهم عن تحصيل أرزاقهم، أو تنميه ثرواتهم، أو يعرضها للضياع من قبل أعداء الدعوة، أو يكلفهم شيئا منها زكاةً أو جهاداً فى سبيل الله، ولعله لذلك أكثر القرآن من التحذير من فتن الدنيا ومتاعها، وضرب الأمثال ببعض من ضلوا وأضلوا بسببها، كما فى قصة قارون الذى أعْمَتْه النعمة عن المُنْعم والأرزاق عن الرزاق حتى قال: ﴿**إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي**﴾ (القصص: ٧٨) وحتى كانت النهاية هى الخَسْف به وبداره، مِمَّا أيقظ الذين فُتِنوُا به وَرَدَّهم مرة أُخْرى إلى الحقيقة الناصعة فى هذه القضية: ﴿**وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ**﴾ (القصص: ٨٢).

ت- تَخْلية قلوب الجماعة المؤمنة الناشئة على هذا العهد من أىِّ قَلَقٍ بشأن الرزق، ومَلْأ هذه القلوب بالتوكُّل الكامل على الله ﷻ وليس بالتواكل، فعليهم أن يستمسكوا بمنهج الله ويبذلوا الوُسْع فى تحصيل الرزق، ثم يُوقنوا بعد ذلك أنه بيده وحده سبحانه ولا يستطيع أحد أن ينقص منه أو يزيد فيه مثقال ذرة إلا بإذنه ﷻ.

وهذا التوكل-بلا شك- من أعظم الزاد الذى يعينهم على مواصلة الطريق ليس فقط من جهه مسألة الرزق، وإنما من جهة الإيمان بالقَدَر كذلك، حيث يَغْرِس القرآن فى نفوسهم هذا الإيمان كُلَّما حدثهم عن هذه المسألة، كما هو واضح من شواهده السابقة.

---

(1) حيث وردت (قُلْ) فى القرآن كله أكثر من (٣٣٠) مرة معظمها فى القرآن المكى، وكلها أيضا إلا ماندر خطاب من الله لرسوله محمد ﷺ الأمر الذى إن دل فإنما يدل على الحضور البارز لذاتية الرسول الكريم أمام ربه فى المرحلة المكية إيناساً لهُ فى الصراع الدائر بينه وبين قوى الجاهلية من ناحية، وتوجيهاً له فى هذا الصراع من ناحية أخرى. تراجع هذه المادة (قل) فى المعجم المفهرس ص (٦٧٧- ٦٨١) ويراجع أيضا: معجم الأدوات والضمائر ص (٦٦٩، ٦٩٦، ٧٤٢، ٧٧١، ٧٧٢، ٧٧٤، ٧٧٥، ٨٠٢، ٨٠٣، ٨٠٤، ٨٠٦، ٨٠٨، ٨١٢) فيما يختص بضمائر الخطاب الواردة فى مثل: (رأيت) و(أتاك) و(ذكرك) و(بكَ) و(عليْكَ) و(مْنكَ) ونحوها.

وفى النهاية أود الإشارة إلى مَلْحَظٍ مُعَيَّنٍ بشأن ما جاء فى سورة (البقرة) مُتَعلّقاً بشأن هذا الضابط، وهو قوله تعالى: ﴿**مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾ (الآيه: ٢٤٥)، وهذا الملحظ هو عمومية التعبير المتعلق بمسألة الرزق ﴿**وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ**﴾ واختلافه فى الصياغة أيضا عن الصيغ المتعلقة بهذه المسألة فى السور المكية، ففى هذه السور – كما مر- نجد الرزق منصوصا عليه مباشرة فى كل تعبير، ونجد أنَّ الصياغة دائما بلفظ (يبسط) و(يقدر) وليس فيها مرة واحدة: يبسط ويقبض أو يقبض ويبسط، وهذا كله مِمَّا يُعْطى السور المكية أيضا خصوصيتها فى هذه المسألة، سواء من ناحية التركيز المباشر أو من ناحية طريقة التعبير.

٧- كل سورة ورد فيها كلمة (يومئذ) إشارة إلى اليوم الآخر فهى مكية، ما عدا سورتى: (النساء) و(النور) فإنهما مدنيتان، وفى سورة (الحج) و(الرحمن) و(الزلزلة) خلاف.

وقد جاءت هذه الكلمة خاصة باليوم الآخر ثلاثا وستون مرة فى القرآن كله، منها سبع وخمسون مرة فى السور المكية، وثمانى مرات فى هذه السور الأخرى التى سبق ذكرها، كما فى هذه الشواهد:

﴿**فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ . فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ . وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ**﴾ (الأعراف: ٦- ٩)، ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا . فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا . لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا . يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا . يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا**﴾ (طه: ١٠٥- ١٠٩)، ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ. وَخَسَفَ الْقَمَرُ. وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ. يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ. كَلَّا لَا وَزَرَ. إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ. يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ (القيامة: ٧: ١٣)، ﴿**هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ . وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ . وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ**﴾ (المرسلات: ٣٥- ٣٧). إن كثرة الحديث عن اليوم الآخر فى القرآن المكى ليس بالأمر الغريب فى ضوء ما هو معروف عن اهتمامات الدعوة فى الفترة المكية، سواء من ناحية تأسيس أركان الإيمان أومن ناحية تهديد الكفار بسوء عاقبتهم فى ذلك اليوم وكلمة (اليوم) عموما بمختلف صيغها من أكثر كلمات القرآن تَرَدُّداً حيث تَرَدَّدت ثلاثمائه وأربعا وسبعون مرة، ومن يَتَفَحَّص هذه المرات يجد أن (اليوم) فى أغْلبها حوالى ثلاثمائه وإحدى وعشرين مرة يقصد به اليوم الآخر، والباقى وهو ثلاث وخمسون مرة يقصد به أيام أخرى، كاليوم الدنيوى، أو اليوم البرزخى، أو اليوم عند الله، ومن يَتَفَحَّص هذه المرات الأخيرة يجد أن أغلبها حوالى مائتان وست وثلاثون مرة فى السور المكية، بينما الباقى وهو خمس وثمانون مرة فى السور المدنية أو المختلف عليها بين المكى والمدنى[1].

ومن وراء هذا يمكن الوصول إلى فَهْمٍ واضحٍ لسر هذا التجمع الحاشد لكلمة (يَوْمَئِذٍ) فى السور المكية الذى يشكل سمة واضحة من سماتها الأسلوبية، فهذه الكلمة ظرف زمان متعلق باليوم الآخر، وورودها فى أى سياق قرآنى معناه أنه قد سبقها حديث عن هذا اليوم أو ذِكْر لبعض أحداثه، ثم تأتى هى لِتُعَقِّبَ على ذلك بمزيدٍ من التفاصيل أو النتائج، كما هو واضح من الشواهد السابقة التى تدل على صلة هذا الظرف بما قبله، فكثرة هذه الكلمة فى السور المكية نابعة من طبيعة اهتمام هذه السور باليوم الآخر وبَسْطها وتفصيلها فى الحديث عنه، وفى مقابل ذلك فإن قِلَّتها فى المدنية ترجع أيضا إلى نوع صلة هذه السُّوَر بهذا اليوم، فهو قد تَرَدَّد فيها خمسا وثمانين مرة – كما أشرت – لكنه لا يَرِدُ فيها لذاته، وإنما كَمُجَرَّد رُكْن من أركان الإيمان التى لا بد من حضورها فى أى مرحلة، كيفما كانت طريقة هذا الحضور، ودونما شرط ينبَسْط أو التَّفصيل.

ومما يشهد لذلك أن هذه الكلمة (يومئذ) عندما ظهرت فى هذه السور الأخيرة – أى المدنية – لم تظهر إلا فى مواضع يقتضى السياق فيها نوعا من التفصيل بشأن اليوم الآخر، ومن أمثلة ذلك ظهورها فى سورتى (النساء) و(النور) المتفق على مدنيتهما فى موضعين:

أولها: يجرى فيه السياق على النحو التالى: ﴿**وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُواْ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللّهُ وَكَانَ اللّهُ بِهِم عَلِيماً. إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً. فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاء شَهِيداً. يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللّهَ حَدِيثاً**﴾ (النساء: ٣٩- ٤٢).

([1]) يراجع فى ذلك: المعجم المفهرس. مادة (يؤمئذ) ص (٨٦٩).

والثانى: يجرى فيه السياق أيضا على النحو التالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ. يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ**﴾ (النور: ٢٣- ٢٥).

٨- كل سورة فيها ذكر (الوزن) أو (الموازين) فهى مكية، إلا سورة (الحديد) فإنها مدنية، وفى سورتى (الرحمن) و(المطففين) خلاف.

وقد ورد ذلك فى القرآن بصيغ متعددة ثلاثا وعشرين مرة، منها سبع عشرة مرة فى السور المكية، ومرة واحدة فى سورة (الحديد)، وأربع مرات فى سورة (الرحمن)، ومرة واحدة فى سورة (المطففين)[١]، وذلك كما فى الشواهد التالية: ﴿**وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً**﴾ (الإسراء: ٣٥)، ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً**﴾ (الكهف: ١٠٥)، ﴿**وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ**﴾ (الأنبياء: ٤٧)، ﴿**اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ**﴾ (الشورى: ١٧).

والمقصود بـ (الوزن) أو (الميزان) فى جميع شواهد هذا الضابط، لا يخرج عن أربعة مدلولات، تتمثل كلها فى الشواهد الأربعة السابقة، فالموازين فى الشاهد الثالث هى موازين الأعمال يوم القيامة، التى يُحَدَّد بها ما عمله كل إنسان من الحسنات والسيئات، ﴿**فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ**﴾ أى رجحت حسناته على سيئاته – فأوليك هم المفلحون، ﴿**وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ**﴾ أى رجحت سيئاته – ﴿**فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ**﴾(المؤمنون١٠٢،١٠٣)

والميزان فى المشهد الرابع: هو العدل والإنصاف[٢]، أو هو منهج الله الذى تستقيم به الحياة، وتوفية الوزن فى الشاهد الأول يقصد بها تحرى الحق فى موازين الناس المعروفة التى يتعاملون بها فى التجارة والبيع والشراء. **أما الوزن فى الشاهد الثانى**، فيقصد به القيمة أو القدرة، فإنه لا قيمة للذين كفروا يوم القيامة، بعد أن أحبط الكفر كل أعمالهم.

ولا شك أن هذه الدلالات كلها فروع متنوعة عن دلالة أصلية واحدة، وهى وضع كل شئ فى نصابه بالحق والإنصاف، دونما إفراط ولا تفريط، وهذه الدلالة الأصلية هى سِرُّ غَلَبَة ذكر الميزان والموازين فى السور المكية، لأن الجاهلية التى كانت تواجهها هذه السور ما هى إلا خلل كبير فى موازين البشر، موازين التصورات والغايات، وما يترتب عليها من موازين المناهج والتعاملات، فما أحوج هذه الجاهلية إلى من يُصْلِح لها هذا الخلل وإلى من يُذَكِّرها دائما بنَقِيضِه، وهو (الميزان) رمز الحق والعدل والالتزام.

٩- كل سورة ذكر فيها (الرَّجْم) فهى مكية، إلا سورة (آل عمران) فإنها مدينة.

وقد ورد ذلك فى القرآن بصيغ متنوعة أربع عشرة مرة، منها مرة واحدة فى سورة (آل عمران)، والباقى كله فى السور المكية[٣] كما فى هذه الشواهد: ﴿**قَالُواْ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ**﴾ (هود: ٩١)، ﴿**فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**﴾ (النحل: ٩٨)، ﴿**إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً**﴾ (الكهف: ٢٠)، ﴿**وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ**﴾ (الملك: ٥).

وقد ورد فى أصل اللغة أن أصل (الرجم) هو القتل، وأصله: الرمى بالحجارة، و(الرُّجَم) (بتشديد الراء المضمومة وفتح الجيم) والرِّجام (بتشديد الراء المكسورة) هى الحجارة الضخام[٤]

وعلى المدلول الأصلى: ورد (الرجم) فى ستة مواضع من القرآن المكى – منها الشاهدان الأول والثالث السابقان – مُعَبِّراً عن مدى عداء أهل الباطل لأهل الحق، فالأخيرون فى نظر الأوَّلين مجرمون مُطَارَدون مستحقون دائما لشر قتله تقضى عليهم، وإنها إشارة إلى محنة أهل الحق بين أهل الباطل فى كل زمان، وبخاصة إذا كانوا مُسْتَضْعفين، كما كان شأن الرسول ﷺ وجماعته المؤمنة فى الفترة المكية.

وهناك مدلول آخر للرجم ورد فى ستة مواضع أيضا من القرآن المكى – منها الشاهدان الثانى والرابع – يختص برجم الشيطان، فالشيطان (رجيم) أى: (مرجوم) بمعنى ملعون مدحور مطرود من رحمة الله، وبهذا الوصف جاء فى خمسة

---

(١) يراجع: المعجم المفهرس. مادة: (الموازين) ص (٨٤٠).
(٢) يراجع كتب التفسير ومنها: تفسير القرآن العظيم لابن كثير سورة المؤمنون ٤/ ٢٥٧.
(٣) يراجع: المعجم المفهرس. مادة (رجيم) ص (٣٧٣).
(٤) ينظر: الصحاح ١/ ٤٦٩، لسان العرب ١/ ١١٣٦.

مواضع من هذه الستة، وفى موضع واحد وَرَد رجم الشياطين بمعنى: دحرهم وطردهم بالشهب التى تُسَلَّطُ عليهم، كلما أرادوا التَّسَلُّل أو التَّسَمُّع إلى الملأ الأعلى.

هذا وجمع القرآن المكى بين هاتين الطائفتين المتناقضتين – طائفة الصالحين وطائفة الشياطين – داخل دائرة الرجم على هذا النحو الذى مَرَّ أَمْرٌ عجيبٌ حقًّا، وبخاصة أنهما يقتسمان معاً هذه الدائرة قِسْمَةً عادِلَة – ستة مواضع لكل منهما – إنها لَقْتَةٌ قرآنية لا يمكن أن تأتى صُدْفَة، لَفَتَةٌ إلى المُفَارقَةِ الكُبْرى حين تَنْقَلب المعايير تماماً لدى بعض البشر، فيصير المكرَّم هو المرجوم عندهم، ويصير المرجوم هو المكرَّم، يَرْجُمُون أنبياءهم وصالحيهم، ويعبدون عدوهم اللعين الرجيم، وكأن القرآن يريد أن يَجْعَلَ من هذه المُفَارَقَة الصارخَةِ صَدْمَةً تُوقِظُ عَرَبَ الجاهلية وتُوقِظ الناسَ فى كلِّ الجاهلية، عسى أن يعكسوا الصورة إلى وضعها الصحيح، فيعرفوا من الذى يَجِبُ حقًّا أن يُرجَم، ومن الذى يَجِبُ أنَ يُكرَّم.

ثم إن هناك مرة واحدة من المرات الثلاث عشرة، ورد فيها الرجم بمعنى الخبط أو القول بغير دليل، وذلك بشأن محاولة تحديد عدة أصحاب الكهف فى قوله تعالى: ﴿**سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ**﴾ (الكهف: ٢٢)، وهذا الرجم بالغيب أَمْرٌ غَيْرَ بعيد أيضا عن جَوِّ المرحلة المكية التى امتلأت بأباطيل المشركين وَتَخَرُّصَاتهم القائمةِ على غَيْرِ دليل.

١٠-كل سورة ذكر فيها (الجن) أو (الجان) أو (الإنس) فهى مكية، إلا سورة (الرحمن) المختلف عليها بين المكى والمدنى، كما فى هذه الشواهد: ﴿**وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ**﴾ (الأنعام: ١٠٠)، ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ. وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ**﴾ (الحجر: ٢٦-٢٧)، ﴿**وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ**﴾ (النمل: ١٧)، ﴿**وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ**﴾ (الأحقاف: ٢٩).

أما كلمة (الجن) فقد وردت فى القرآن كله اثنتين وعشرين مرة[١]، كلها فى السور المكية، إلا مرة واحدة فى سورة (الرحمن)، وأما كلمة (الجان) فقد وردت فى القرآن سبع مرات، منها ثلاث مرات فى سور: (الحجر) و(النمل) و(القصص) المكية، وأربع مرات فى سورة (الرحمن).

وأما كلمة (الإنس) فقد وردت فى القرآن ثمان عشرة مرة[٢]، كلها فى السور المكية، إلا أربع مرات فى سورة (الرحمن)، وَسِرُّ غَلَبَه هذه الكلمات واقتصارها على السور المكية، إذا أخذنا فى اعتبارنا الروايات والخصائص الواضحة التى ترجح مكية سورة (الرحمن).

فحديث القرآن فى المرحلة المكية عن (الجن) أو (الجان) أمر وثيق الصلة باهتمامات الدعوة وأهدافها فى هذه المرحلة، حيث كان من أبرز هذه الاهتمامات بناء العقيدة الصحيحة بكل أصولها وفروعها، ولما كان هذا البناء يقوم أصلا على الإيمان بالغيب، فإن ذلك يقتضى التطرق إلى مسألة الجن، على اعتبار أنَّ وجودهم من حقائق الغيب التى أراد القرآن أن يُقَرِّرَهَا ويُنْزِلها فى مكانها من التَّصَوُّر الإسلامى الشامل عن الكون والحياة. إلى جانب هذا فإن عرب الجاهلية كانت لهم كثير من التصورات الباطلة عن حقيقة الجن وطبيعة علاقتهم بالله سبحانه وبالحياة الإنسانية، فكانوا يتخذون منهم – كما اتخذوا من غيرهم – آلهة يعبدونها ويلجؤن إليها، وكانوا يعتقدون فيهم النفع والضر ويستعينون بهم فى أعمال السحر: ﴿**وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاء إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ. قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ**﴾ (سبأ: ٤٠-٤١)، ﴿**وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً**﴾ (الجن: ٦)، كما كان بعض النوعين – من الإنس والجن – يتعاونان معا على ارتكاب المعاصى والمنكرات والصَّدِّ عَنْ سبيل الله، أو يستمتع ببعض أيضا: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً**﴾ (الأنعام: ١١٢)، ﴿**وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِيَ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ**﴾ (الأنعام: ١٢٨).

فأراد القرآن أن يُوَاجِه كل هذه الأباطيل، وأن يَضَعَ الجن فى مكانهم الصحيح، وهو أنهم ليسوا إلا نوعا من خلق الله، خلقهم لعبادته وكَلَّفَهُم باتِّبَاع رُسُله، وسَوْفَ يقفون فى النهاية مع الإنس فى صعيد واحد بين يد الله ﷻ ليُسْألوا جميعا سؤالاً واحداً: ﴿**يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا**﴾ (الأنعام: ١٣٠).

(١) يراجع: المعجم المفهرس. مادة: (ج ن ن) ص ٢٢٠.
(٢) السابق: مادة: (أ ن س) ص ١١٥.

حتى عندما ذكر الجن فى قصة سليمان ﷺ، لم يكن ذكرهم لمجرد القَصِّ أو الحكاية، فهم بالفعل لهم قدرات وخصائص فى بعض الأمور لا يَمْتَلِكها البشر، لكنهم – مع ذلك – لا يزالون عباداً لله، بل لو أراد الله أن يُسَخِّرهم لأحدٍ من البشر لَفَعَل، كما سَخَّرهم لسليمان ﷺ الذى خضعوا له حتى تَوَفَّى، بل ظلوُّا خاضعين بعد وفاته حتى دَلَّتْهُم دابة الأرض على موته: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ (سبأ: ١٤)،

هذا إلى جانب أن المرحلة المكية هى أساس مرحلة التبليغ أوالبيان للكافة، أى لجميع المكلفين، ومن هنا فإنها تتوجه للجن كما تتوجه للإنس، ماداموا داخلين فى دائرة التكليف.

وأما عن سِرِّ غَلَبَة كلمة (الإنس) فى السُّور المكية فإنه يرجعُ إلى اقْتِرانها بكلمة (الجن)، وهى تبدو فى القرآن كأنها مُوَظَّفةٌ من أجل هذه الكلمة، ومن أجل كلمة (الجان) أيضا، وإن كان توظيفها للجن أظهر، حيث وردت معها ثمان عشرة مرة، بينما وردت مع (الجان) ثلاث مرات فقط، ويرجع ذلك – فيما أرى – إلى دلالة الكلمتين على جنسين متقابلين يراد الجمع بينهما فى بعض المناسبات من ناحية، وإلى ما بينهما من التجانس الموسيقى الواضح من ناحية أخرى. وربما يزيد هذا الكلام وضوحا بإلقاء نظرة أيضا على استخدام القرآن لكلمتى الناس والإنسان، أما كلمة (الناس) التى وردت فى القرآن مائتين وأربعين مرة، فإنها تسخدم فيه الدلالة على البشر فى عمومهم بكل شعوبهم وطوائفهم ومللهم كما فى الآيات التالية: **﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾** (البقرة: ٢١٣)، **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾** (فاطر: ١٥)، **﴿أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾** (الحجرات: ١٢).

وأما كلمة (الإنسان) فإنها فى القرآن أقرب إلى كلمة (الإنس) فى الدلالة على البشر كجنس ذى خصائص معينة، ويدل على ذلك أنَّه إذا ورد حديثٌ فى القرآن يتعلق بخصائص (الجنس) البشرى الفطرية أو الغَرَزِيَّة، فإنه يأتى غالبا - إن لم يكن دائما – مقترناً بالإنسان، كما فى الآيات التالية: **﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾** (إبراهيم: ٣٤)، **﴿وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً﴾** (الإسراء: ١١)، **﴿لَا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاء الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ﴾** (فصلت: ٤٩)، **﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى. أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾** (العلق: ٦- ٧) إلخ.

ومن هنا فإن كلمة (الناس) مشتركة فى القرآن بين المكى والمدنى، أما كلمة (الإنسان) فلها غَلَبَةٌ واضحةٌ فى المكى، حيث وردت فيه سبعا وخمسين مرة، بينما لم ترد فى المدنى إلا ثلاث مرات، إضافة إلى خمس مرات فى سور (الحج) و(الرحمن) و(الإنسان) المختلف عليها بين المكى والمدنى، وذلك لأن تَوَجُّه القرآن إلى الناس – كيفما كانت أعراقهم ومللهم – لا يقتصر على مرحلة دون أخرى، أما تَوَجُّهه إلى الإنسان كجنس ذى خصائص معينه، فقد كان أغلب فى المرحلة المكية، من حيث أهمية الكشف عن هذه الخصائص وتحليلها فى إيقاف الإنسان على حقيقة طباعه ونوازعِهِ، لَعَلَّه يجتهد فى مقاومتها أو تَجَنُّب تَعْويقها لهُ فى التَّوَجُّهِ إلى الإيمان.

المبحث الخامس
تحديد المكى والمدنى

المطلب الأول: المتفق عليه من السور

١- مصادر التحديد:

الروايات المتعلقة بتحديد السور المكية والسور المدنية تَتَوَزَّع على أكثر من مبحث من مباحث علوم القرآن، أهمها: مبحث (المكى والمدنى) نفسه، ومبحث (أول ما نزل وآخر ما نزل) ومبحث (أسباب النزول) لكنها تتركز وتُقصد لذاتها فى أوَّل هذه المباحث بالطبع، أما فى المبحث الثانى فإن الذى يَجُرُّ إليها هو ترتيب سور القرآن حسب مدى أسبقية كل منها فى النزول: العلق ثم القلم ثم المزمل ثم المدثر... الخ السور المكية، والبقرة ثم الأنفال ثم آل عمران... وهكذا إلى آخر السور المدنية، أما فى المبحث الثالث فلا وجود مباشر لهذه الروايات، وإنما هى تُسْتَنْبط استنباطاً مما يُذْكر فيه من وقائع وأحداث يمكن أن يُفْهَم منها فى كثير من الأحيان أنَّ السورة أو الآية قد نزلت قبل الهجرة أو بعدها[١]

أما مصادر هذه الروايات نفسها، فهى علماء الصحابة والتابعين ومرويات الحديث والتفسير والسيرة، ومن النادر أن يوجد فيها شيئ مباشر مرفوع إلى الرسول ﷺ، بَلْ إنَّ أغْلبها يَقِفُ إسْنَادُه عند علماء التابعين دون أن يصل إلى الصحابة[٢]

ومن يتأمل التعدد فى هذه الروايات وما بينها من الاختلافات، يتبين له أنَّ الأساس فيها الإجتهاد المحض، وأقْصِد بهذا الاجتهاد أمرين: **أولهما** هو اجتهاد الصحابة فى تحديد المكى والمدنى حسب جُهْد كل منهم وما تَهَيَّأ له من أسباب التَّتَبُّع والمُلازَمَة لمواطِنِ التَّنْزيل وأزْمانه ومُلابسَاته. **والثانى**: هو اجتهادات التابعين وتلاميذهم فى هذا التحديد حَسْبَ جَهْد كل منهم أيضا فى الأخذ عن الصحابة، ثم حَسبَ جُهْد كلٍّ منهم فى الموازنة بين الأقوال والروايات، سواء تلك التى يتلقونها عن الصحابة، أو التى يتلقاها بعضهم من بعض.

ولقد كانت هذه الموازنة قائمة على ركيزتين أساسيَّتَيْن: **أولاهما** تتعلق بالرواية، أى بمدى قوتها وصحتها **وثانيتهما** تتعلق بالدراية، أى بالدراية بمعانى القرآن وأساليبه وأسباب نزوله وبالحديث والسيرة.

وفى عهودٍ تالية تَوَسَّع العلماء أكثر فى الإعتماد على الركيزة الثانية على وجه الخصوص، ومن أمثله ذلك ما ورد عنهم فى السور المختلف عليها بين المكى والمدنى، ففى سورة (الفاتحة) مَثَلاً يقول السيوطى: (الأكثرون على أنها مكية، بل ورد أنها أول مانزل...) وسورة (الحجر) مكية باتفاق، وقد امْتُنَّ على رسوله فيها بها، فدل على تقدم نزول الفاتحة عليها[٣]

إذ يُبْعُد أن يَمْتَنَّ عليه بما لم ينزل بعد، وبأنه لا خلاف أن فرض الصلاة كان بمكة ولم يُحْفَظ أنه كان فى الإسلام صلاة بغير الفاتحة، ذكره ابن عطية[٤] وغيره[٥]... واشتهر عن مجاهد: القول بأنها مدنية، أخرجه الفريابى فى تفسيره وأبو عبيد فى الفضائل بسند صحيح عنه. قال الحسين بن الفضل: هذه هفوة من مجاهد لأن العلماء على خلاف قوله[٦]

وفى سورة (المطففين) وردت أيضا روايات قوية عن ابن عباس أنها مدنية، ولكن البعض – برغم ذلك – رَجَّحَ مكيتها بدليل موضوعى، وهو ذكر (الأساطير) فيها[٧] حيث إن اتّهام القرآن بأنه (أساطير) يكاد يكون اتّهَاماً مكيا خالصا اعتاد الكفار أن يُوجِّهوه إلى الرسول ﷺ[٨]

٢- أشهر الروايات:

---

(١) يراجع فى هذا: النوع الأول والسابع والتاسع من الإتقان.

(٢) تراجع هذه الروايات التى تقارب العشر فى: البرهان للزركشى ١/ ٢٩٠ – ٢٩٦، والإتقان للسيوطى فى النوعين: الأول والسابع المذكورين سابقا.

(٣) يراجع: البرهان: ١/ ٢٩٠، ٢٩٦.

(٤) هو أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية الغرناطى، كان فقيها، عالما بالتفسير والأحكام، ألف تفسيره المسمى: المحرر الوجيز فأحسن فيه، وأبدع ينظر: سير أعلام النبلاء ١٩/ ٥٨٧، طبقات المفسرين للداودى ١/ ٢٦٥.

(٥) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية ١/ ٦٥ طبع: دار الكتب بيروت لبنان.

(٦) الإتقان ١/ ١٥- ١٦.

(٧) السابق ١/ ١٨.

(٨) وردت كلمة (أساطير) فى القرآن تسع مرات كلها فى السور المكية باتفاق إلا مرتين إحداهما فى سورة (المطففين) المختلف عليها، والأخرى فى سورة (الأنفال) المدنية.

وسأقتصر على ذكر روايتين اثنتين من أشهر الروايات الخاصة بتحديد السور المكية والسور المدنية، لأعْرِضَ منها نموذجا لما بُذِل من جهود بشأن هذا التحديد، ثم أحاول بعد ذلك – فى المطلب القادم – حصر السور المختلف عليها بين المكى والمدنى لأصل بشأنها إلى الرأى الأرجح قَدْرَ الإمكان، وبهذا التوصل أكون قد حَقَّقتُ الْغَرَضَ، لأن المشكلة فى رَأيى ليست فيما اتُّفق عليه، وإنما فيما اختلف فيه.

الرواية الأولى: وقد نقلها السيوطى عن أبى الحسن بن الحصار "ت ٦١١هـ" فى كتابه (الناسخ والمنسوخ)، قال: المدنى باتفاق عشرون سورة، والمختلف فيه اثنتا عشرة سورة، وما عدا ذلك مكى باتفاق. وقد نَظَمَ فى ذلك أبياتا مشهورة، يُفْهم منها أن السور المدنية العشرين هى: ١- البقرة ٢- آل عمران ٣- النساء ٤- المائدة ٥- الأنفال ٦- التوبة ٧- النور ٨- الأحزاب ٩- محمد ١٠- الفتح ١١- الحجرات ١٢- الحديد ١٣- المجادلة ١٤- الحشر ١٥- الممتحنة ١٦- الجمعة ١٧- المنافقون ١٨- الطلاق ١٩- التحريم ٢٠- النصر.

وَيُفْهم منها أن السور المختلف عليها هى: ١- الفاتحة ٢- الرعد ٣- الرحمن ٤- الصف ٥- التغابن ٦- التطفيف ٧- القدر ٨- لم يكن ٩- إذا زلزلت ١٠- الإخلاص ١١- الفلق ١٢- الناس.

وبَضَمِّ هذه السور إلى ما سبقها يكون المجموع اثنتان وثلاثون سورة، ويكون المتبقى من سور القرآن الأربع عشرة ومائه هواثنتان وثمانون سورة، التى هى السور المكية المحتلف عليها فى رأيه، وهى كالتالى:

١- العلق ٢- القلم ٣- المزمل ٤- المدثر ٥- المسد ٦- التكوير ٧- الأعلى ٨- الليل ٩- الفجر ١٠- الضحى ١١- الشرح ١٢- العصر ١٣- العاديات ١٤- الكوثر ١٥- التكاثر ١٦- الماعون ١٧- الكافرون ١٨- الفيل ١٩- النجم ٢٠- عبس ٢١- الشمس ٢٢- البروج ٢٣- التين ٢٤- قريش ٢٥- القارعة ٢٦- القيامة ٢٧- الهمزة ٢٩ المرسلات ٣٠- الإنسان ٣١-ق ٣٢- البلد ٣٣- الطارق ٣٤- القمر ٣٥- ص ٣٦- الأعراف ٣٧- الجن ٣٨- يس ٣٩- الفرقان ٤٠- فاطر ٤١- مريم ٤٢- طه ٤٣- الواقعة ٤٤- الشعراء ٤٥- النمل ٤٦- القصص ٤٧- الإسراء ٤٨- يونس ٤٩- هود ٥٠- يوسف ٥١- الحجر ٥٢- الأنعام ٥٣- الصافات ٥٤- لقمان ٥٥- سبأ ٥٦- الزمر ٥٧- غافر ٥٨- فصلت ٥٩- الشورى ٦٠- الزخرف ٦١- الدخان ٦٢- الجاثية ٦٣- الأحقاف ٦٤- الذاريات ٦٥- الغاشية ٦٦- الكهف ٦٧- النحل ٦٨- نوح ٦٩- إبراهيم ٧٠- الأنبياء ٧١- الحج ٧٢- المؤمنون ٧٣- السجدة ٧٤- الطور ٧٥- الملك ٧٦- الحاقة ٧٧- المعارج ٧٨- النبأ ٧٩- النازعات ٨٠- الانفطار ٨١- الانشقاق ٨٢- الروم ٨٣- العنكبوت[١].

الرواية الثانية: وهى رواية المصحف العثمانى المتداول بين أيدينا المطبوع بإذن وإشراف مشيخة المقارئ المصرية، وهى رواية مبنية بالطبع على اجتهاد العلماء الذين أشرفوا على هذه الطبعة بعد اطِّلاعِهم على مُخْتَلَفِ الأقوال والمصادر التى أتيحت لهم، وقد نَصُّوا فى خاتِمَةِ المصحف على الإسناد الأساسى الذى اعتمدوا عليه، وعلى الكتب التى استمدوا منها ما يَخْتَص بأحكام رَسْمِهِ وضَبْطِه وقراءتِهِ وأحكام مكيه ومدنيه ونحو ذلك[٢].

وتحديد هؤلاء العلماء ليس فيه شيئ عن السور المختلف عليها، كما هو واضحٌ من عناوين سور المصحف، فإن ما رَجَّحُوا أنه مَكّى من هذه السور أثبتوه مكيا فى هذه العناوين، وما رَجَّحُوا أنه مدنى أثبتوا أنه مدنى.

ومن هنا فإن السور المكية – حسب ترجيحهم – قد جاءت ستا وثمانين سورة، هى هذه الثنتان والثمانون المذكورة سابقا فى الرواية الأولى بعد أن نَحْذف منها سورتى الحج والإنسان المعدودتين عندهم مدنيتين، وبعد أن نضيف إليها ست سور من المختلف عليه الذى رجحوا مكيته، وهى: الفاتحة (بعد رقم ٤) والفلق والناس والإخلاص (بعد رقم ١٨) والقدر (بعد رقم ٢٠) والمطففين بعد آخر سورة ليكون رقمها (٨٦) بعد تمام ما سبق من الحذف والإضافة.

أما السور المدنية فهى عندهم ثمان وعشرون سورة كالتالى: ٨٧ البقرة ٨٨ الأنفال ٨٩ آل عمران ٩٠ الأحزاب ٩١ الممتحنة ٩٢ النساء ٩٣ الزلزلة ٩٤ الحديد ٩٥ محمد ٩٦ الرعد ٩٧ الرحمن ٩٨ الإنسان ٩٩ الطلاق ١٠٠ البينة ١٠١- الحشر ١٠٢- النور ١٠٣- الحج ١٠٤- المنافقون ١٠٥- المجادلة ١٠٦ الحجرات ١٠٧ التحريم ١٠٨ التغابن ١٠٩ الصف ١١٠ الجمعة ١١١ الفتح ١١٢ المائدة ١١٣ التوبة ١١٤ النصر.

المطلب الثانى: المختلف عليه من السور

١- أبعاد الأختلاف:

لكى يتم التعرف على هذا الاختلاف بشيئ من الدِّقَّة، فسأذْهَب مع السور المختلف عليها بين المكى والمدنى إلى مدى أبْعَد ممَّا ذهب إليه ابن الحصَّار فى روايته التى مرت فى المطلب السابق، فالسيوطى – على طريقته فى الاستقصاء – لم

---

(١) ينظر: البرهان ١/ ٢٨٨ -٢٨٩، والإتقان ١/ ١٤- ١٥، وقد اعتمدت فى هذا الترتيب أيضا على الروايات التى أشَرْتُ إليها سايقا، وعلى الوارد فى عناوين سور المصحف الذى سأتحدث عنه بعد قليل.

(٢) ورد بعد ذكرهم لهذه الكتب قولهم: (وأخذ بيان مَكِّيَّه وَمَدَنِيَّه من الكتب المذكورة وكتاب أبى القاسم عمر بن محمد بن عبد الكافى، وكتب القراءات والتفسير على خلاف فى بعضها).

يكتف بذكر الإثْنَتَىْ عشرة سورة التى ذكرها بن الحصار بل ذكر حوالى اثنتين وثلاثين سورة مما ورد خلاف حول مكيته أو مدنيته، مع حكاية الأقوال الواردة فى هذا الخلاف ومناقشتها على شاكلة مامَرَّ آنفا فى حديثه عن سورة الفاتحة، وكثير من هذه السور أمْرُه ظاهِرٌ، لا يكاد يحتاج إلى تَوقُّف بشأن اكتشاف مكيه أو مدنيه، لكن سأذكرها كلها قبل أن أحصر منها ما سَأُطيل التَّوَقُّف معه حتى يأتى هذا الحصر بعد الإحاطة بالسور كلها، وهى كالتالى:

١- الفاتحة ٢- النساء ٣- يونس ٤- الرعد ٥- الحج ٦- الفرقان ٧- يسين ٨- ص ٩- محمد ١٠- الحجرات ١١- الرحمن ١٢- الحديد ١٣- الصف. ١٤- الجمعة ١٥- التغابن ١٦- الملك ١٧- الإنسان ١٨- المطففين ١٩- الأعلى ٢٠- الفجر ٢١- البلد ٢٢- الليل ٢٣- القدر ٢٤- لم يكن ٢٥- الزلزلة ٢٦- العاديات ٢٧- الهاكم ٢٨- أرأيت (الماعون) ٢٩- الكوثر ٣٠- الإخلاص ٣١- الفلق ٣٢- الناس.

ففى ضوء هذا البحث وما يوضحه من خصائص وضوابط للمكى لا يمكن الاختلاف مثلا حول مكية هذه السور: يونس والفرقان ويس وص والملك والأعلى والفجر والبلد والليل والتكاثر والقدر والكوثر.... أو لا يوجد فى نصوصها – على الأقل – داع قوى يدعوا إلى الشك فى مكيتها، هذا فضلا عن الأدلة النقلية التى تعضد مكية هذه السور[١]

ولقد كان الإمام السيوطى نفسه يذكر بعض هذه السور ثم لا يزيد على مثل قوله: (سورة محمد: حكى النَّسَفى قولا غريبا أنها مكية)، (سورة الحجرات: حكى قول شاذ أنها مكية)، (سورة الملك: فيها قول غريب أنها مدنية) [٢].

أما الذى سأطيل الوقوف معه – إلى حد ما – فهو هذه السور: ١- الفاتحة ٢- الرعد ٣- الرحمن ٤- الإنسان ٥- المطففين ٦- العاديات ٧- الإخلاص.

ونظر لأن بعض هذه السور – من خلال النظرة الأولى – واضح الإنتماء إلى نوعه أو مرحلته، فَيُتَسَاءل عن سر الإدراج له فى هذه المجموعة، فأقول: إن لذلك عدة عوامل من أهمها اثنان، **أولهما:** عامل النقل أو الرواية الذى قد يقرر انتماء السورة إلى أحَدِ النوعين برغم أن طابعها أو مضمونها يميل بها إلى النوع الآخر. **والثانى:** أن السورة قد يتأكد انتماؤها إلى- بالفعل- إلى نوع بعينه، غير أنه قد يكون فى مضمونها أو أسلوبها مايثير الشك فى هذا الانتماء، فيحتاج الأمر بشأنها إلى إزالة هذا الشك.

ومن الواضح أن عدد هذه السور متقارب مع عدد السور المختلف عليها عند ابن الحصار، فهى عنده – كما سبق – اثنتا عشرة، وهى عندنا ثلاث عشرة، غير أنى قد اختلفت معه حول بعض السور من حيث المحتوى، حيث ذكر هو (الصف) و(القدر) اللتين لم أذكرهما، ولا أرى شبهة فى تحديد انتمائهما كما أشرت، وذكرت (الحج) و(الإنسان) و(العاديات) التى لم يذكرها والتى تثير جدلا قويا - كما سيظهر – حول حقيقة انتماء كل منها.

٢- مناقشة الآداء:

سوف ترتكز مناقشة حقيقة انتماء السور الثلاث عشرة السابقة على الأسس التالية:

أ- إذا كان هناك إجماع أو شبه إجماع فى الأقوال والروايات على انتماء السور إلى أى من النوعين فسأقر هذا الانتماء حتى لوبدا فى طبيعة السورة ما يخالفه، فسأحمله فى هذه الحالة على أنه مما يُشْبه المكى فى المدنى أو مما يُشْبه المدنى فى المكى، وهو لَوْنٌ من ألوان الخطاب القرآنى الذى سبق أن أشرت إلى ما يُبَرِّرُهُ، وخصوصا فى المطلب الأول من هذا البحث.

ب- إذا لم يَتَحَقَّق الإجماع أو تَعَدَّدت النُّقُول – مع عدم إمكان القطع بأرجحها – فسأعتمد فى تحديد الانتماء على ما سبق التوصل إليه فى هذا البحث من الخصائص الموضوعية للمكى، أو على ما يمكن إضافته إليها مما لم ترد مناسبة لبيانه من قبل، غير أن ما سبق تناوله من هذه الخصائص سأشير إليه إشارات مجمله مكتفيا بالإحالة على مواضعه السابقة[٣]

ت- لا يُتَوقَّع فيما أُدْلِى به أن يَصِل دائما إلى حَدّ الجَزْم، فقد تتيح الأدلة أن أجزم فعلا بانتماء السورة إلى نوع بعينه، وقد تتيح مجرد الترجيح، ولا يُسْتَبْعد التوقف أيضا إن لم أستطع أن أجزم أو أرجح، ومن قال لا أدرى فقد أفتى، كما هو معلوم.

---

(١) يراجع: الإتقان ١/ ١٦ وما بعدها. ولو تَوَقَّفْتُ مع كل سورة – على حدة – من هذه السور لطال الحديث، فلو عرضها القارئ الكريم على الخصائص والضوابط التى أشرت إليها، فسيجد فيها من الناحية الموضوعية والأسلوبية ما يؤيد هذا الكلام.

(٢) ينظر: الإتقان ١/ ١٧- ١٨.

(٣) سوف أرمز فى هذه الإحالة للمبحث بـ(مبحث)، وللمطلب بـ(مطلب).

ث- الروايات التى سيتم الرجوع إليها هى التى أشرت إليها فى بداية المبحث، وهى سبعة فى (الإتقان) وواحدة فى (البرهان) إضافة إلى رواية مشيخة المقارئ المصرية، فيكون المجموع تسع روايات، وقد استبعدت بالطبع رواية ابن الحصار لأنه لم يرجح فيها شيئا بشأن المختلف عليه، باستثناء سورة الفاتحة[١].

وسوف أستَأْنِس فى هذا الغرض باثنين من المفسرين المحدثين، قد اهتما اهتماما كبيرا بقضية المكى والمدنى وأعْطَيَا فيها عطاءاً عظيما.

أما أحدهما فهو: الشيخ محمد عزة دروزة[٢] فى كتابة (التفسير الحديث) الذى اتَّبَع فيه طريقة فريدة، هى تفسير القرآن حسب ترتيب نزوله لا حسب ترتيبه فى المصحف، مُقْتَنِعا بأن هذه الطريقة هى الأفضل لفهم القرآن وخدمته وأنه عن طريقها – كما يقول -: (يمكن متابعة السيرة النبوية زمنا بعد زمن، كما يمكن متابعة أطوار التنزيل ومراحله بشكل أوضح وأدق، وبهذا وذاك يندمج القارئ فى جو نزول القرآن وجو ظروفه ومناسباته ومداره ومفهوماته، وتتجلى له حكمة التنزيل) [٣] فكان بهذه الطريق لصيقا تماما بقضية المكى والمدنى، الوثيقة الصلة بكل هذه الأغراض التى ذكرها فى كلامه.

وأما الآخر فهو: الشيخ سيد قطب فى كتابه (فى ظلال القرآن) وهو فى هذا الكتاب يفسر القرآن حسب ترتيب المصحف كما هو المعتاد، لكنه يربط دائما بينه وبين واقع الدعوه وقت نزوله ربطا وثيقا كى يستخلص الدروس التى يريد استخلاصها فى فقه الدعوه من ناحية، ويتوجه به إلى إصلاح الواقع المعاصر من ناحية أخرى، ذلك لأنه كان يهمه تتبع مراحل الدعوه المختلفة وما يواكبها من التنزيلات القرآنية تَتَبُّعاً دقيقا، الأمر الذى ربطه بقضية المكى والمدنى ربطا وثيقا.

وأبدأ الآن فى الغرض بشأن تحديد المكى من السور التى ذكرتها:

١-سورة الفاتحة: وردت هذه السورة مكية فى ثمان من الروايات التسع التى أشرت إليها، ووردت مدنية مرة واحدة[٤]، وقد سبق من قبل ترجيح الإمام السيوطى لمكيتها بدليل آية سورة (الحجر: ٨٧) المكية باتفاق[٥] كما سبق فى الحاشية السابقة على التعريف بالشيخ دروزة دليل ابن الحصار على مكيتها، وهو دليل وجيه أيضا.

أما موضوع السورة وأسلوبها فليس فيهما أى دليل قاطع على مدنيتها، بل هما أقرب إلى خصائص الخطاب القرآنى فى الفترة المكية، فموضوعها يتضمن الركائز الأساسية لعقيدة المسلم التى يُعلم مدى اهتمام القرآن ببنائها فى هذه الفترة، وقد افْتُتِحَتْ بالحمد الذى هو من السمات الخاصة فى فواتح السور المكية واحتوت على اسم الله (الرحمن) الذى يكاد يكون من الألفاظ المكية الخالصة، حيث تَرَدَّد فى القرآن كله سبعا وخمسين مرة كلها فى المكى إلا مرتين فى سورتى (البقرة) و(الحشر) المدنيتين، ومرتين أُخْرَيَيْن فى سورتى (الرعد) و(الرحمن) المختلف عليهما بين المكى والمدنى، هذا بالإضافه إلى قصرها وقصر آياتها، وتلك سمة من السمات الواضحة أيضا فى السور المكية وبناءاً على ذلك فلا شك عندى فى مَكِّيَّة هذه السورة.

٢-سورة الرعد: وردت هذه السورة مكية فى ثلاث روايات فقط من الروايات التسع، ومدنية فى ست منها[٦]، وهى رغم ذلك ذات طابع مكى خالص، فجزم الشيخ دروزة بمكيتها[٧] ، وقال عنها الشيخ سيد قطب: (مكية السورة شديدة الوضوح،

---

(١) وذلك حين ذكر فى منظومته تعارض النقل فيها ثم قال: أم القرى وفى أم القرى نزلت .:. ما كان للخمس قبل الحمد من أثر ينظر: الإتقان ١/ ١٥، والخمس فى هذا البيت هى الصلوات الخمس، فهو – رحمه الله – يستدل على مكية الفاتحة بأن المسلمين كانوا يصلون بها فى الفترة المكية التى فرضت بها الصلاة من غير خلاف.

(٢) هو محمد بن عزة بن عبد الهادى بن درويش بن إبراهيم بن حسن دروزة، ولد ليلة السبت الموافقة للحادى عشر من شهر شوال سنة ١٣٠٥ هجرية ١٨٨٨م فى مدينة نابلس بفلسطين، له مؤلفات كثيرة أشهرها التفسير الحديث. يراجع فى ذلك: أعلام الفكر والأدب فى فلسطين ص ٢١٢ يعقوب العودات. عمال المطابع التعاونية عام ١٩٧٦، والنفسير الحديث ١٢/ ٢٨٠ طبع: دار الغرب الإسلامى ط ٢.

(٣) ينظر: مقدمة: التفسير الحديث ترتيب السور حسب النزول تأليف محمد عزة دروزة ١/ ٧.

(٤) يراجع: تفسير الخازن المسمى: لباب التأويل فى معانى التنزيل لعلاء الدين على بن محمد بن إبراهيم البغدادى الشهير بالخازن حيث ذكر الأقوال وأن الأشهر منها القول بمكيتها ١/ ١٥ طبع ونشر: مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر.

(٥) هناك خلاف بين المفسرين حول المراد من السبع المثانى فى هذه الآيه، والراجح أنها سورة الفاتحة. يراجع فى ذلك : جامع البيان للإمام ابن جرير الطبرى ١/ ١٢٦: ١٢٨، ١٤/ ٦٨: ٨٠ طبع: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، والتفسير الكبير للإمام الرازى ٩/ ٤٥١ وما بعدها: طبع: دار الغد العربى، وأيضا تفسير ابن كثير، والألوسى وغيرهم كثير.

(٦) ينظر: لباب التأويل للخازن ٢/٤.

(٧) ينظر: التفسير الحديث ٥/ ٥١٥: ٥١٦.

سواء فى طبيعة موضوعها أو فى طريقة أدائها أو فى جو ها العام) [1] **وأضيف إلى ذلك بعض التفاصيل** منها: أ- افتتاح هذه السورة بالحروف المقطعة[2] ب- تضمنها لإحدى السجدات القرآنية فى الآية (١٥) [3] ورد فيها ذكر (الوحى) فى الآيه (٣٠) [4] د- ورد فيها ذكر (التسخير) فى الآيه (٢) [5] هـ- ورد فيها ضمير الرفع المنفصل (أنت) فى الآيه (٧) [6] و- ورد فيها قوله تعالى **﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ﴾** فى الآيه (٧) الذى يحدد مهمة الرسول ﷺ فى (الإنذار)، ومثل هذا القول – بأداة القصر (إنما) – يكاد يكون سمة مكية خالصة، ورد فى القرآن بأساليب متقاربة ثلاث عشرة مرة تقريبا، كلها فى السور المكية المتفق عليها إلا مرتين، إحداهما التى ذكَرْتُها من هذه السورة – سورة الرعد -، والأخرى فى سورة الحج[7] ز- طريقة هذه السورة فى الحث على الإنفاق كطريقة السور المكية عموما، ففيها قوله تعالى: **﴿وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً﴾** (الآية: ٢٢) وهذا مثل قوله تعالى فى سورة إبراهيم: **﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ يُقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً﴾** (الآيه: ٣١)، وقوله فى سورة فاطر: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾** (الآيه: ٢٩).

٣-سورة الرحمن: ورد فى ثلاث روايات أن هذه السورة (مكية)، وورد فى ست منها أنها (مدنية)، لكنَّ مكيتها – فى الواقع – هى الأرجح[8]، فهى عند الشيخ دروزة، والشيخ سيد قطب مكية بالتأكيد[9]، ومما يَدُلُّ على مَكِّيَّها أيضا ما يلى:

أ- التأمل السريع فى قضاياها واهتماماتها – على ضوء ما سبق من خصائص القرآن المكى المرضوعية – الذى يؤكد أنها قضايا واهتمامات مكية خالصة. **ب-** القالب اللغوى الذى صُبَّت فيه قالب مُحَدَّد مُرَكَّز فى صورته العامة، وفى وحداته الداخلية، فهى من (مُفَصَّل القرآن) المعروف بقصر سُوَرِه وآياته، مع جَرْسٍ موسيقى أَخَّاذ وواضح جدا، وذلك من الخصائص المشهورة أيضا فى أساليب القرآن المكى. **جـ-** افتتاحها باسم الله (الرحمن) وتسميتها به أيضا، ولهذا الإسم خصوصية فى القرآن المكى، سبق توضيحها إحصائيا أثناء الحديث عن سورة الفاتحة. **د-** ورد فيها ذكر الوزن والميزان أربع مرات (فى الآيات من ٧-٩) [10]. **هـ-** توجيه الخطاب فيها إلى الثقلين معا (الجن والإنس)، مع استخدامها المميز لهاتين الكلمتين ولكلمة (الجان) كذلك[11].

٤-سورة الإنسان: مع أن الآراء بشأن هذه السورة شِبْه متعادلة، إذ هى فى خمس روايات مدنية، وفى أربع منها مكية، إلا أن خصائصها الموضوعية والأسلوبية – فى ضوء ما سبق – تشهد بأنها قطعة خالصة من نسيج القرآن المكى[12]، فرَآها الشيخ دروزة هكذا[13]، وكذلك الشيخ سيد قطب حيث قال: (إن مكيتها ظاهرة جدا فى موضوعها وفى سياقها وفى سماتها كلها) [14].

ولعل المانع الذى منع البعض من القول بمكيتها هو شبهة ذكر الأسير فى قوله تعالى: **﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾** اعتبارا بأن الحروب مع الكفار وآثارها من الأسر وغيره لم تكن إلا بعد الهجرة، بينما الحقيقة أن

---

(١) ينظر: فى ظلال القرآن للشيخ سيد قطب ٤/ ٢٠٣٩ طبع: دار الشروق.
(٢) يراجع مبحث (٤) مطلب (١) رقم (٤).
(٣) يراجع مبحث (٤) مطلب (١) رقم (٧).
(٤) يراجع مبحث (٢) مطلب (٢) رقم (٢).
(٥) يراجع مبحث (٤) مطلب (٣) رقم (٢).
(٦) يراجع (٤) مطلب (٣) رقم (٥).
(٧) ينظر: مادة (نذر) بالمعجم المفهرس، ويراجع على سبيل المثال الآيات: ١٢ هود، ٥٠ العنكبوت، ٦٥ ص، ٢٦ الملك، ٤٥ النازعات.
(٨) قال بمكيتها الكثير من المفسرين، ومنهم على سبيل المثال: الخازن فى تفسيره ٢/٧، والقاسمى فى محاسن التأويل طبع: عيسى البابى الحلبى تصحيح وترقيم وتخريج وتعليق: محمد فؤاد عبد الباقى، وغيرهما كثير.
(٩) ينظر: التفسير الحديث ٦/ ٨٩، فى ظلال القرآن ٦/ ٣٤٤٥.
(١٠) يراجع: مبحث (٤) مطلب (٣) رقم (٨).
(١١) يراجع: مبحث (٤) مطلب (٣) رقم (١٠).
(١٢) قال بمكية (الإنسان) الكثير، ومنهم: البغوى فى معالم التنزيل ٥/ ١٨٨، وابن كثير فى تفسيره ٤/ ٤٥٢، والطبرسى فى مجمع البيان ١٠/ ١٨٣ طبع: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، والقاسمى فى محاسن التأويل ١٧/ ٦٠٠٨.
(١٣) ينظر: التفسير الحديث ٦/ ١٠٥.
(١٤) ينظر: فى ظلال القرآن ٦/ ٣٧٧٧.

الحروب بوجه عام قديمة قدم التاريخ، وأن وجود الأسرى وأحوالهم من الانقطاع عن الأهل والوطن وأسباب القوة – مما يحتاج إلى صيانة حقوقهم الآدمية رغم مواقفهم العدائية الأصيلة – كل ذلك قديم ومعروف أيضا سواء فى الإسلام أو فى الجاهلية. وعلى ذلك فإن إدراج الأسير مع المسكين واليتيم فى الفترة المكية لا شيئ فيه مطلقا، وهذه الآيه ليست إلا من نوع أخَواتها التى تهتم فى هذه المرحلة بتأسيس المبادئ والفضائل الخلقية كما سبق فى المطلب الثالث من المبحث الثالث.

ومن جهة أخرى فإن فى هذه الآيه دليلا على مكيتها، وهو ذكر اليتامى والمساكين فيها بصيغة الإفراد ﴿ **مِسْكِيناً وَيَتِيماً** ﴾ وهما لا يردان مُقْتَرِنَيْن معاً أو غير مُقْتَرِنَيْن فى القرآن إلا بصيغة الإفراد فى السور المكية كما فى قوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ**﴾ (الإسراء: ٣٤)، وقوله: ﴿**فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ**﴾ (الروم: ٣٨)، وقوله سبحانه: ﴿**أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ. يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ. أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ**﴾ (البلد: ١٤- ١٦)، وَسِرُّ اختصاص الفترة المكية بذلك أن التوجيهات المتعلقة بالوجود الجمعى أو المسؤلية الجماعية كانت تخاطب أفراداً يحاول كل منهم أن يجتهد فى تنفيذها قدر إمكاناته الخاصة، وقدر ما تسمح به الظروف السائدة من حوله، وورد ذكر (اليتامى) و(المساكين) مُقْتَرِنَيْن معا بصيغة الجمع فى القرآن المدنى سبع مرات.

٥- سورة المطففين:- هذه السورة مكية فى سبع روايات، ومدنية فى اثنتين فقط[١]، وفسرها الشيخ دروزة وأيضا الشيخ سيد قطب على أنها مكية[٢]، وهى كذلك بالفعل كما يشهد مضمونها وأسلوبها وآياتها القصار، وقد سبق فى الحديث عن أساليب الردع والتهديد-التى هى من السمات البارزة للقرآن المكى- أن رأينا فى مطلع هذه السورة نموذجا واضحا لحشد معظم هذه الأساليب أو حشد أدواتها فى السياق الواحد مثل: (ويل) و(كلا) و(أهوال القيامة) و(التكرار)، ويضاف إلى ذلك ورود كلمة (أساطير) فى هذه السورة، وقد سبق أن تحدثت عن صلة هذه الكلمة بالفترة المكية، وعن غلبة ورودها أيضا فى سور هذه الفترة.

ولقد ورد فى بعض أسباب النزول أن الآيات الأولى من هذه السورة – المتعلقة بالكيل والتطفيف – مدنية. قيل: إن أهل المدينة كانوا من أخبث الناس كَيْلاً، فلما قدم رسول الله ﷺ إليها أنزل الله هذه الآيات[٣] ومعنى ذلك أن آيات السورة من أوَّلها إلى قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ (الآيه: ٥) قد نزلت بالمدينة، وأنَّ الآيات التى بعدها من أول قوله تعالى: ﴿**كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ**﴾ إلى آخر السورة قد نزلت قبلها فى مكة، وهذا كلام لا يَصْمُد أمام أى دليل، إذ تظهر فيه السورة مقلوبة، ينزل آخرها قبل أولها، ويُتْلى آخرها منقطعا عما قبله مع أنه يقتضيه ويرتبط به تماما.

فمثل هذا القول لا تَسْنِدُه رواياتٌ يُوثَقُ بها، وإلا ما وردت أغلب رويات – كما أشرت – تنص على مكية السورة، ولا أرى شيئا يقف وراءه غير شغف البعض بإيجاد سبب لنزول كل آية، ولو كان ذلك على حساب وقار النص الكريم الذى يُقَطَّع وَيُوَزَّعُ – تبعا لهذا الشغف – من أوله أو من وسطه أو من آخره كل ذلك سواء!!

يقول الشيخ دروزة عقب ذكره للسبب السابق: (ولا تُفهم حكمه لِوضْع آياتٍ مدنية فى رأس سورة تجمع الروايات على سلكها فى عداد السور المكية، ويؤيد ذلك مضمونها وأسلوبها، وموضوعها من المواضيع التى ذكرت فى سورة مكية على ما ذكرنا آنفا، والذى يتبادر لنا أن الآيات تليت فى موقف ما فى المدينة على سبيل الإنذار والتقريع، فَأُدِىَّ ذلك إلى الالتباس، وهو ما نرجحه فى كثير من الآيات التى يروى أنها مدنية ووردت فى سور مكية[٤]، وَيُبْدى الشيخ سيد قطب أيضا دهشته لِلتَّصَدِّى للمطففين بهذا الأسلوب فى سورة مكية مع أنَّ عادة القرآن المكى هى الاهتمام بأصول العقيدة الكلية وبتكوين الحاسة الأخلاقية فى عمومها... دون هذا التصدى لمسألة بذاتها من مسائل الأخلاق والمعاملات كمسألة التطفيف فى الكيل والميزان، لكنه لم يَحِدْ عن مكية السورة كلها، وأخذ يجتهد فى فهم هذا المطلع، فكان من اجتهاداته أنه يدل على أن الإسلام كان يواجه فى البيئة المكية حالة صارخة من هذا التطفيف يزاولها الكبراء المُسْتَغْلون الذين يحتكرون التجارات الواسعة ويسيطرون على قوافل رحلتى الشتاء والصيف، ويلفت – رحمه الله – إلى أن تَصَدِّى الإسلام لهذه

---

(١) ذكرهما الخازن فى تفسيره ٧/ ٢١٨.

(٢) ينظر: التفسير الحديث ٥/ ٥٠٧، محاسن التأويل ١٧/ ٦٠٩١، فى ظلال القرآن ٦/ ٣٨٥٤.

(٣) السبب: إسناده حسن أخرجه النسائى فى النفسير ٦٧٤، ابن ماجه فى سننه رقم ٢٢٢٣، والحاكم فى المستدرك ٢/ ٣٣ وصححه الحاكم ووافقه الذهبى، والطبرانى فى الكبير برقم ١٢٠٤١، وابن حيان فى صحيحه برقم ٤٩١٩، والبيهقى فى السنن ٢/ ٣٢، والبغوى فى تفسيره ٥/ ٢٢١، وابن كثير فى تفسيره ٤/ ٤٨٣.

(٤) ينظر: التفسير الحديث ٥/ ٥٠٨: ٥٠٩.

الحالة يَشِى بطبيعته وشمول منهجه للحياة الواقعية وإقامتها على الأساس الأخلاقى العميق على الرغم من أنه لم يكن قد تَسَلَّم بعد زمام الحياة الإجتماعية لينظمها وفق شريعته بقوة القانون والسلطان[١].

وهذا الكلام من صاحب الظلال كلام وجيه لا يناقضه أيضا رأى آخر، ويُرَجِّحُه كون هذه السورة فى كثير من الروايات من آخر القرآن المكى نزولا إن لم تكن هى آخِرُهُ على الإطلاق، وهو أن يكون مطلعها هذا نوعا من الإرهاص لما سوف يحدث بعد الهجرة من مواجهة الانحرافات العملية والعلمية فى الحياة، والحكم فيها بمقتضى الشرع المحمىِّ بسلطان الدولة، بل لا يبعد أن تكون هذه السورة قد نزلت بعد وصول بعض المهاجرين الأوائل إلى المدينة من هؤلاء الذين سبقوا الرسول ﷺ كمصعب بن عمير وغيره، فكأنها – والحال كذلك – بمثابة بلاغ إلهى مُرْسَلٍ من مكة إلى المدينة، أو لعل البعض من هؤلاء السابقين قد حَمَل هذا البلاغ معه بالفعل قبل هجرة الرسول ﷺ ، وهذا مَحْض اجتهاد والله تعالى أعلى وأعلم.

٦- سورة العاديات: ورد فى جميع الروايات التى رجعت إليها أن هذه السورة مكية، غير أن الإمام السيوطى – خلال نظراته الخاصة فى السور المختلف عليها – ذكر أن فيها قولين[٢]، وَرَجَّح هو مدنيتها مُسْتَنِداً إلى رواية عن ابن عباس تقول بأن رسول الله ﷺ كان قد بعث خيلا فلبثت شهراً لا يأتيه منها خير فنزلت (والعاديات) [٣] وكما يبدو من الرواية السابقة يظهر أن موضع الشبهة فى مكية هذه السورة هو ذكر الخيل العاديات المغيرات فى بدايتها، على اعتبار أنه لم يكن غزو أو قتال قبل الهجرة وإنما كان بعدها كما هو معلوم.

مع أن هذا الاعتبار – فى الحقيقة – لا يمنع من افتتاح سورة مكية بهذا الذى افتتحت به سورة العاديات، لأنه لا يتضمن أى أمر مُبَاشِرٍ أو غَيْر مباشر بالقتال، وإنما هو مَجَرَّد قسم بأحد الأشياء التى لها قدرها عند الله وعند المخاطبين، على شاكلة كثير ممَّا أقسم به الله تعالى فى فواتح العديد من السور المكية، ولا يَبْعُد أيضا أن يكون هذا الافتتاح بمثابة بذرة من بذور الجهاد المبكرة التى أراد القرآن أن يضعها فى نفوس الجماعة المؤمنة بالمرحلة المكية لتَنْمُو على مهل حتى يأتى موعد نُضْجِها وإثمارها فى المرحلة المدنية.

وعلى أى حال، فإن الأرجح من جهة الرواية، ومن جهة طبيعة السورة نفسها أنها مكية، وهكذا يراها الشيخ دروزة[٤] وكذلك الشيخ سيد قطب الذى يفسرها باعتبارها مكية، ويبدو مطلعها لديه متفاعلا تماما مع موضوعها، وموظفا لأجلها ولأجل جوها المكى كله، ومن ذلك قوله: (ويجرى سياق هذه السورة فى لمسات سريعة عنيفة مثيرة، ينتقل من إحداها إلى الأخرى قَفْزاً وركضا ووثبا، فى خفة وسرعة وانطلاق، حتى ينتهى إلى آخر فقرة فيها فَيَسْتَفِزُّ عندها اللفظ والظل والموضوع والإيقاع! كما يصل الراكض إلى نهاية المطاف)[٥] وكذلك قوله – رحمه الله – فى ثنايا تأمله العميق لجو السورة وإيحاءاتها: (والإيقاع الموسيقى فيه خشونةٍ ودمدمة وفرقعة تناسب الجو الصاخب المعفر الذى تنشئه القبور المبعثرة، والصدور المحصَّل ما فيها بشدة وقوة، كما تناسب الجحود والكنود، والأثرة والشح الشديد... فلما أراد لهذا كله إطار مناسبا، اختاره من الجو الصاخب المعفر كذلك، تثيره الخيل العادية فى جريها، الصاخبة بأصواتها، القادحة بحوافرها المغيرة فجاءة مع الصباح، المثيرة للنقع والغبار، الداخلة فى وسط العدو على غير انتظار – فكان الإطار من الصورة والصورة من الإطار)[٦]

٧- سورة الإخلاص: ورد فى ثمان من الروايات أن هذه السور مكية، وواحدة فقط أنها مدنية[٧]، وَيُعَدُّ الإمام السيوطى من من القلائل الذين يرجحون مدنيتها فيقول: (فيها قولان لحديثين فى سبب نزولها متعارضين، وجمع بعضهم بينهما بتكرر نزولها، ثم طهر لى ترجيح أنها مدنية) [٨]

هذا مع أن رأى الجمهور على أنها مكية، وهناك حديث رواه الإمام أحمد يذكر أن المشركين قالوا للنبى ﷺ : يامحمد انسب لنا ربك، فأنزل الله تعالى: ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ...**﴾ إى آخر السورة، وقد رواه أيضا بألفاظ متقاربة كل من الترمذى

---

(١) ينظر: فى ظلال القرآن ٦/ ٣٨٥٥.
(٢) ممن ذكرهما: الخازن فى تفسيره ٧/ ٢٨٢.
(٣) ينظر: الإتقان ١/ ١٨.
(٤) ينظر: النفسير الحديث ٧/٢.
(٥) ينظر: فى ظلال القرآن ٦/ ٣٩٥٧.
(٦) ينظر: فى ظلال القرآن ٦/ ٣٩٥٧.
(٧) ذكرهما الخازن فى تفسيره ٧/ ٣١٩.
(٨) الإتقان ١/ ١٩، وكذا القاسمى فى محاسن التأويل ١٧/ ٦٢٩٤.

والطبرى وابن جرير وابن ماجه وابن أبى حاتم والحافظ أبو يعلى[١]، وقد روى ابن جرير أيضا – فى تفسيره لهذه السورة – حديثاً آخر يذكر أن اليهود بالمدينة هم الذين وجهوا إلى الرسول ﷺ هذا القول الذى نزلت على إثره السورة، ولعل هذا الحديث والذى قبله هما الحديثان المتعارضان اللذان يقصدهما الإمام السيوطى، ولعله اعتمد فى رأيه على الحديث الثانى[٢] الثانى[٢]

أما من جهة خصائص السورة نفسها، فإنها تُرَجِّحُ مَكِّيَّتها أيضا ترجيحاً واضحا، وبخاصة أنها تَتَمَحَّض كلها لأهم قضية فى الفترة المكية، وهى قضية التوحيد وتصحيح المفاهيم الفاسدة بشأن ذات الله وصفاته، ولعله لمكانتها الخاصة فى هذه القضية قَرَّرَ الرسول ﷺ فى حديثه أنها تعدل ثلث القرآن، كما ذكر لها فضائل أخرى متعددة[٣]

وبعد الدراسة لما سبق من السور المختلف عليها، فإن سور القرآن المكى تكون سبعا وثمانين سورة، وهى كل ماعدا ما سيأتى من السور، وأن سور القرآن المدنى تكون سبعا وعشرين – حسبما أرى وأرجح هى: ١- البقرة ٢- الأنفال ٣- آل عمران ٤- الأحزاب ٥- الممتحنة ٦- النساء ٧- الزلزلة ٨- الفلق ٩- الناس[٤] ١٠- الحديد ١١- محمد ١٢- الطلاق ١٣- البينة ١٤- الحشر١٥- النور ١٦- الحج ١٧- المنافقون ١٨- المجادلة ١٩- الحجرات ٢٠- التحريم ٢١- التغابن ٢٢- الصف ٢٣- الجمعة ٢٤- الفتح ٢٥- المائدة ٢٦- التوبة ٢٧- النصر.

المطلب الثالث: الآيات المستثناه

سوف يدور حول النقطتين التاليتين:

الأولى: مجمل القضية **الثانية:** أدلة تطبيقيه

القضية الأولى: مجمل القضية:

المقصود بالآيات المستثناه تلك التى تكون مدنية فى سور مكية، أو التى تكون مكية فى سور مدنية، وهى قضية عليها خلاف بشأن تحديد انتماء السورة إلى القرآن المكى أو إلى القرآن المدنى، وأيضا بشأن آثار هذه القضية فى ميدان التفسير وفهم تاريخ النزول وكيفياته.

أما الآيات المدنية فى السور المكية – كما وردت فى أقوال العلماء – فإنها تفوق كثيرا النوع الثانى الذى يقابلها وهو الآيات المكية فى السور المدنية، فمن خلال المعلومات الملحقة بعناوين سور المصحف يظهر أن المنصوص عليه من الآيات المدنية فى السور المكية يبلغ مائة وثمانية وأربعين آية تقريبا، بينما المنصوص عليه من الآيات المكية فى السور المدنية لا يزيد عن ثمانى آيات.

والمُطَّلع على (الإتقان) ورواياته يجد العدد الأكبر من ذلك فى كلا النوعين، وربما يصل إلى المائتين فى النوع الأول وإلى العشرين أو أكثر فى النوع الثانى[٥]

وبعد مراجعة هذه الآيات كلها فى سياقاتها التى وردت بها تَبَيَّن لى أن هذه القضية مشحونة بكثير من التَّزَيُّدات، حتى لتكاد تنتهى إلى لا شئ، أو إلى نطاق ضيق جدا على أفضل الفروض، فلو كان الأمر فيها يرجع إلى روايات موثوق بها لحملت على العين والرأس، لكنَّ الأمر يَرْجع فيها إلى ما سبق ذِكْره فى القضية السابقة، وما سبق ذكره أيضا (عن طرق العلم بالمكى والمدنى) فى نهاية المبحث الأول، وهو الاعتماد على الإجتهاد الخاص الذى تلجئ إليه كثرة الروايات واختلافها، بل تضَارُبَها الواضح أيضا فى بعض الأحيان.

يوضح ذلك ما ذهب إليه الشيخ "دروزة" حيث عَرَّج تَفْصيلا فى (التفسير الحديث) على كل هذه الآيات المستثناه المنصوص عليها فى المصحف، غير أنه أجمل رأيه فيها فى كتابه: (القرآن والملحدون) حيث قال: [وعدد الآيات المكية فى السور المدنية (سبع) [٦] ومعظم الروايات غير وثيقة، وفَحْوى الآيات وسياقها يُثيران الشك القوى فى صحتها، وكل ما يمكن حسب ترجيحنا أن يكون صحيحا من الآيات المدنية فى السور المكية هو آيات سورة الأعراف (١٦٣-١٧٠) فى حق

---

(١) السبب: حسن أخرجه الترمذى فى سننه برقم ٣٣٦٤، ٣٣٦٥ وقال بأن الثانى أصح من الأول، وأحمد فى المسند ٥/ ١٣٤، والحاكم فى المستدرك ٢/ ٥٤٠ وصححه ووافقه الذهبى، والبغوى فى تفسيره ٥/ ٣٢٩، وابن كثير ٤/ ٥٦٥: ٥٦٦.

(٢) ينظر: جامع البيان ٤٤٧/٣٠ رقم ٢٩٦١٧، ٢٩٦١٨ طبع: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

(٣) ينظر: معالم التنزيل ٥/ ٣٣٠: ٣٣١، تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٦٦: ٥٧٠.

(٤) وضعت سورتى الفلق والناس فى هذا المكان على الترتيب التقريبى حيث لم أعثر على ترتيب واضح فى الرواية الوحيدة التى عدتهما مدنيتين، وهى رواية أبى جعفر النحاس بإسناده عن مجاهد عن ابن عباس. ينظر: الإتقان ١/ ١٢: ١٣.

(٥) ينظر: الإتقان ١/ ١٩.

(٦) سأزيد على الإحصاء الذى أجريته آيه واحدة فى النوع الأول، وآيه واحدة فى النوع الثانى.

بنى إسرائيل... ثم الآيتان الأخيرتان من سورتى الشعراء والمزمل... أما ما عدا ذلك فلا يَثْبُت على تمحيص، سواء من ناحية الفحوى أم من ناحية السياق فضلا عن سند الروايات...] [1].

وأيضا الشيخ سيد قطب الذى تَتَبَّعْتُ تَعَرُّضَه لهذه الآيات المستثناة فى (الظلال) فوجدت أنه لا يُسَلِّم باستثنائها، بل يُفَنِّد أمْرها فى كثير من الأحيان، ولم يقر منها سوى آيات سورة الأعراف التى أشار إليها الشيخ دروزة فى كلامه السابق. ولما كان مجموع ما أقره الشيخ دروزة يبلغ عشر آيات، وكان ما أقره الشيخ سيد قطب عدداً أقل منه، فَسَأُقر عدداً أقل من الإثنين، وهو خمس آيات فقط، إحداهما الآية الأخيرة من سورة المزمل، والأربع الأخُر هى الآيات الأخيرة من سورة الماعون.

النقطة الثانية: أدلة تطبيقية:

سأعرض لبعض الشواهد التطبيقية[2] تبعا للأقسام التالية:

القسم الأول:

١- هناك ثمانى آيات هى كل ورد فى السور المدنية على أنها آيات مكية، وهى الآيات من (٣٠ إلى ٣٦) فى سورة الأنفال، والآيتان الأخيرتان من سورة التوبة.

ومن ناحية النَّظَرِيَّة البحتة، فإن إلحاق بعض المدنى بالمكى أمر محتمل أو مقبول على اعتبار أن اللاحق هو الذى يتبع السابق أو أن السابق متبوع لِلاحقِ. وقد كان مطلع السور ينزل أولا بالفعل وربما ظلت مفتوحة بعده لسنوات حتى تكتمل[3] – أما العكس، وهو إلحاق المكى بالمدنى أو السابق باللاحق فأمر غير مَنْطِقِّى، إلا أن المَشْغُوفين بوضع العناوين وتقسيم الأقسام أَبَوْا إلاَّ إجازة هذا النوع أيضا، ولعل مصادمتهم للمنطق هى التى ضَيَّقَت عليهم، فلم يستطيعوا أن يأتوا له بغير شواهد قليلة، من أشهرها هذه الآيات من سورتى الأنفال والتوبة.

أما آيات سورة الأنفال (٣٠- ٣٦) فإنهم ظنوا من مدلولاتها أنها مكية، بينما الحقيقة ان هذه المدلولات وثيقة الصلة بموضوع السورة المتعلق أساساً بغزوة بدر وما تَمَّ فيها من النصر العظيم للمؤمنين فى أوَّل جولة كبرى بينهم وبين المشركين، ففى سياق جَوِّ هذا النصر الذى تعبق به السورة يُوَجِّه الله سبحانه النصيحة للمؤمنين بالتقوى والاستجابة له ولرسوله حتى لا يَدْخُلهم الزَّهْو ولا يُلْهيهم النصر ومغانمه عن منهج ربهم، ثم يُذَكِّر الله رسوله بدءاً من الآية الثلاثين – بالعهد السالف حين كان أعداؤه الذين نَصَرَه الله عليهم يمكرون به ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه، وبهذه المناسبة يتحدث عن بعض ضلالاتهم وحماقاتهم السابقة وسعيهم الخاسر بإنفاق أموالهم للصَّدِّ عن سبيل الله... كل ذلك حتى نهاية الآيه السادسة والثلاثين، وبعد ذلك ذكر مصيرهم وما ينتظرهم من عذاب جهنم، ثم رَغَّبَهم أيضا وَوَعَدهم بالمغفرة إن تابوا ودخلوا فى دين الله: ﴿**قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ**﴾ (الأنفال: ٣٨)، فهذه الآيات إذاً قِطْعَةٌ طَبِيعَّيةٌ تماماً من سياقها ومن موضوع سيرتها.

وأما الآيتان الأخيرتان من سورة التوبه، فليس فيهما أيضا ما يدعوا لِنِسْبتهما إلى الفترة المكية ﴿ لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ (١٢٨: ١٢٩) ويبدو أن هناك أمرين شُبِّها على القائلين بمكيتهما: **أولهما:** فى الآية الأولى ﴿**رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ** ﴾، **والثانى** قوله: فى الآية الثانية: ﴿**فَإِن تَوَلَّوْاْ**﴾.

أما القول الأول: فإنه قد يوحى بأن القرآن يخاطب به قريشا فى مكة ليعطفهم إلى الرسول ﷺ على اعتبار أنه منهم وحريص عليهم، غير أن الصيغة ليس فيها ما يدل على تخصيص قريش دون غيرهم، أو تخصيص المشركين دون المؤمنين، بل الحقيقة هى العكس، وهى أن الآية خطاب للمؤمنين خاصة دون غيرهم، بدليل قوله سبحانه فى آخرها: ﴿**بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾، وقوله قبل ذلك: ﴿**عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم** ﴾ شَبِيهٌ بقوله فى موضع آخر﴿ **لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ**﴾ (الحجرات: ٧)، فهو يعبر أيضا عن شَغَفِهِ ﷺ بأصحابه وَحِرْصِهِ عليهم، وهو نَصٌّ مدنىٌّ كذلك، وبدليل قوله أيضا فى سورة آل عمران: ﴿**لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ**﴾ (الآيه:

---

(1) ينظر: هذا الرأى بتوسع فى: القرآن الملحدون ص ٣١٠- ٣١١ طبع: المكتب الإسلامى ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.

(2) لضيق المقام فليس بمستطاع هنا عرض الحجج مع كل آيه من الآيات المستثناة على حدة، ومع ذلك تعرضت لبعضها تبعا للأقسام الثلاثة التى أشرت إليها، **وَأَوَّلُها** يَتَعَّلق بأهمِّ الشواهد الدالّة على المبالغات الظاهرة التى تقف وراء تحديد كثير من الآيات المستثناة، **وثانيهما:** يتعلق ببعض الشواهد التى تقف وراءها شُبَهٌ قوية بالفعل تحتاج إلى تفنيد، **وثالثها:** يتعلق بالشواهد التى اتفقت فيها مع الشيخين (دروزة) و(سيد قطب).

(3) ينظر: الإتقان ١٤/١.

١٦٤)، ولعل ذلك مما دَعَمَ أمراً لَفَتَنى – أو تَدَعَّم أيضا بهذا الأمر – وهو أن القرآن حين ربط الرسول بالعرب عموما قال (منهم) ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ**﴾ (الجمعة: ٢)، وحين ربطه بالمؤمنين خصوصا قال: ﴿**مِّنْ أَنفُسِهِمْ**﴾ فى الآية السابقة و ﴿**مِّنْ أَنفُسِكُمْ**﴾ فى الآية مناط الحديث، ولا شك أن الصيغة الثانية أعمق تعبيرا عن قوة الوشائج والالتصاق من الصيغة الأولى، وهو ما يناسب طبيعة العلاقة التى تربط المؤمنين بعضهم ببعض وتجعل منهم – كما ورد فى الحديث – جسدا واحدا إذا اشتكى منه عضوا تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى[١].

وأما القول الثانى: فإن (التولى) الذى ذكر فيه، لا يشترط قَصْرُه على محاربة الحق أو رَفْضِهِ من الأصل، بل يمكن أن يعبر أيضا عن النكوص أو الردة بعد الإيمان، ومن ثم فإنه قد ذكر فى سياق مخاطبة المؤمنين فى القرآن كما ذكر فى سياق مخاطبة الكافرين، ومن ذلك قوله تعالى للمؤمنين فى سورة الممتحنة: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**﴾ (الآيه: ٦)، وقوله لهم فى سورة التغابن:﴿ **وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ**﴾ (الآيه: ١٢).

هذا إلى جانب أنَّ ختام سورة التوبة بهاتين الآيتين مما يناسب موضوعاتها وقضاياها أيضاتمام المناسبة، وهى موضوعات وقضايا متعددة أبرزها التحديد الحاسم لموقف الدولة الإسلامية من (جماعة الكفار) (أهل الكتاب) فى آخر مراحل الدعوة، وشَنّ الحملات الشديدة على المنافقين وفضح أسرارهم، وفيما بين هذه الجولات والحملات يتوجه القرآن من آن لآخر إلى المؤمنين الراسخين أو غير الراسخين على حد سواء – ليقدم لهم الدروس النافعة تحذيرا أو تثبيتا أو تشجيعا أو تقويما... الخ، ومما جاء من ذلك فى خواتيم السورة: ﴿**سَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاء بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ**﴾ (الآيه: ٩٥)، ﴿**إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ**﴾ (الآيه: ١١١)، ﴿**مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ**﴾ (الآيه: ١١٣)، ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾ (الآيه: ١١٩)، ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ**﴾ (الآيه: ١٢٣)، وهكذا إلى أن ينتهى السياق نهاية طبيعية بهاتين الآيتين اللتين تمثلان أنْسَبَ ختامٍ لجولات متعددة يراد من وراءها فى النهاية تحصين جماعة المؤمنين وإعدادهم خير إعداد لمواجهة الكافرين والمنافقين، وإنه لَمِمَّا يحفز المؤمنين إلى هذه الغاية أن يدركوا مِنَّة الله عليهم بهذا الرسول العظيم الذى أخرجهم من الظلمات إلى النور، وأن يَعْلَمُوا أمْراً آخر لا يقل أهمية عن ذلك، وهو أن إقدامهم أو توليهم أمر يعود أثره عليهم، دون أن يؤثر بشئ فى مُلْك الله ولا فى مَنْزلةِ رسوله: ﴿فَ**إِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**﴾ (الآيه: ١٢٩).

٢-ورد فى المصحف – مع عنوان سورة يوسف – أن هذه السورة مكية[٢] إلا الآيات (١، ٢، ٣، ٧) فمدنية، وهذا كلام غير مُسْتَسَاغ أن تَنْزل السورة كلها بمكة، ثم يَنْزل مَطْلعها الذى يرتبط بما بعده ارتباطا وثيقا بالمدينة، فَإنَّ من يَنْظُر فى الآية الثالثة من هذا المَطْلَع التى تقول: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ (يوسف: ٣) وفى الآية التى بعدها مباشرة التى تقول: ﴿**إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً**﴾ يجد الترابط واضحاً جدا: آية تهيئ النفس لاستقبال القصة، ثم تبدأ القصة من التى بعدها مباشرة: ﴿**إِذْ قَالَ يُوسُفُ**﴾ أى: بداية هذه القصة حين قال يوسف.... إلى آخره، **بل إن** المَطْلَعَ مكىٌّ خالص إنَّهُ يبدأ بالحروف المقطعة وَذِكْر الكتاب وَرِفْعَة بيانه على ما هو معلوم من تَحَدِّى العرب بهذا البيان فى الفترة المكية: ﴿**الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ. إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ (يوسف: ١- ٢).

أما القول باستثناء الآية السابعة من هذه السورة فإنه لا يقل عما سبق، فالآية التى بعدها تقول: ﴿**إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا...**﴾ الخ (يوسف: ٨) والاية السابعة تقول:﴿**لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ**﴾ فكيف تنفصل هذه عن تلك؟ وما الحكمة – فى نظر القائلين باستثنائها- مِنْ قَطْعِها عن سياقها بمكة، ثم وَضْعِها فيه بعد ذلك بالمدينة.

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم فى كتاب: البر والصلة والآداب. باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم ٨/ ٣٨٤ رقم ٢٥٨٦، والبيهقى فى السنن الكبرى ٣/ ٣٥٣.

(٢) ذكر الخازن فى تفسيره ٣/ ٢٦٠ أنها مكية بالإجماع.

٣-ورد مع عنوان سورة مريم أنها كلها مكية[١] إلا الآيتين (٥٨) و(٧١)، وهذا أيضا أمر غريب وعجيب، فالآيات السابقة على الآية (٥٨) تَتَحَدَّث عن سير طائفة من الأنبياء الكرام كيحيى وعيسى وإبراهيم وإسماعيل وغيرهم، ثم أعْقَب ذلك قوله تعالى فى هذه الآية: ﴿**أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً**﴾ (مريم: ٥٨)، ثم جاء بعد هذه الآية مباشرة: (**فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً**) (مريم: ٥٩)، وَصِلَةُ الآية بما قبلها وَاضِحةٌ وَوَثِيقةٌ تماما، ولا يستطيع القائلون باستثنائها أن يُوَضِّحوا الحكمة فى نَزْعِها من سياقها لِتَنْزِل بالمدينة بعد أن سبقها هذه السياق بمكة فَضْلاً عن أنها من آيات السُّجَدات القرآنية التى هى سِمَةٌ مميزة أيضا من سمات السور المكية.

وكذلك الشأن فى الآيه (٧١)، فقد سبقها حديث عن الْعُتَاة والمكَذِّبين الذين سيحشرهم الله مع شياطينهم فى النار، حتى قال الله سبحانه: ﴿**ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيّاً**﴾ (مريم: ٧٠)، ثم جاءت الآية المذكورة بعد ذلك مباشرة: ﴿ **وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً**﴾ (مريم: ٧١)، وجاء بعد هذه: ﴿**ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً**﴾ (مريم: ٧٢)، فالكلام مترابط أيضا ولا مُسَوَّغ واضحاً لفصل بعضه عن بعض.

٤- ورد أيضا أن سورة (القلم) مكية[٢] إلا الآيات من (١٧) إلى (٣٣) ومن (٤٨) إلى (٥٠) فمدنية، فهذه عشرون آية تماما قد استثنيت من هذه السورة، بعضها من وسطها، وبعضها مما قبل نهايتها.

والآيات التى من وسطها هى التى تستغرق قصة أصحاب الجنة كلها:﴿**إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ**﴾ إلى آخر القصة، أما الآيات التى من أواخرها فهى التى يُتَوَجَّه فيها النصح إلى الرسول ﷺ بالصبر فى طريق الدعوة، وألاَّ يكون ﴿**كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ**﴾، وأى قارئ للقرآن له إلمام متواضع بجَوِّ البيئة المكية وَجَوّ البيئة المدنية لا يشعر إلا بأن الأنسب لمثل هذه الآيات هو جو البيئة الأولى بالفعل، وَبأنَّ تنزيلها فى هذه البيئة هو الأمر الطبيعى.

فقصة أصحاب الجنة – فى ظاهرها- قصة بُخْل وشُحٍّ، لكنها فى حقيقتها قصة الاستسلام للدنيا، والإقبال على النعمة دون تَذَكُّر المنعم، وقد كان من آفات الكفار ومن أسباب ضلالهم فى هذه البيئة، وفى كل بيئة.

أما هذه النصيحة التى توجهت للرسول ﷺ وربطها بصاحب الحوت، فالأمر فى ذلك واضح أيضا، من الواقع الذى كان يعانيه ﷺ مع هؤلاء الكفار، ومن الواقع المعلوم من ربط دعوته دائما فى الفترة المكية بدعوات الأنبياء السابقين عِظَةً وعِبْرةً لقومه من جهة وتثبيتاً له وتَسْرِيةً عنه من جهة أخرى، وعلى ذلك فلا داعى لاستثناء هذه الآيات كلها.

القسم الثانى:

سَأَتَعَرَّضُ فى هذا القسم لبعض الشواهد التى تَضَمَّنَت مدلولاتٍ أو توجيهاتٍ تشبه شَبَهاً كبيراً بعض مدلولات القرآن المكى وتوجيهاته، بينما هى – لمن تَأَمَّلها – مكية فى حقيقة الأمر، وأبْرَز هذه الشواهد ثلاثة أُوَضِّحُ أمرها بشئ من الإجمال على النحو التالى:

١- ورد بالمصحف فى عنوان سورة (النحل) أنها مكية إلا الآيات الثلاث الأخيرة منها فمدنية، إلاَّ أنَّ الإمام السيوطى قد ذكر رواية أخرى تَزْعم بأن المكى من هذه السورة من مطلعها إلى الآية (٤٠) ثم ما بعد هذه الآية مدنى إلى آخر السورة التى تبلغ مائة وثمانية وعشرون آية[٣].

وهذه السورة يبدو عليها – بوجه عام – طابع القرآن المكى فى موضوعاتها وطرائقها التعبيرية، إلا أن هذا القَدْر المستثنى فى رواية الإمام السيوطى قد تَضَمَّن بَعْض شُبَه تَخْرُج بها عن هذا الطابع وأهمها:

أ- قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي اللّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ**﴾ (الآيه: ٤١)، وموضع الشُّبْهة فى هذه الآية هو حديثها عن﴿**الَّذِينَ هَاجَرُواْ**﴾ وذلك ليس بشئ لأنَّ الهجرة حَالَة نَفْسية وَوَاقعيَّةٌ لم تفارق الدعوة التى تَسَلَّط عليها أعداؤها منذ وقت مبكر، وقد كانت هناك هجرة إلى الحبشة – كما هو معلوم – قبل الهجرة إلى المدينة، وسورة (النحل) من أواخر سور العهد المكى نزولا[٤] أى أنها نزلت بالتأكيد بعد هجرة الحبشة – التى وقعت فى السنة الخامسة – وبعد صُنُوفٍ كثيرةٍ من الإيذاء والابتلاء اللَّذَيْن تَعرَّض لهما المسلمون.

---

(١) ذكر الخازن فى تفسيره ٤/ ٢٣٨ أنها مكية.

(٢) ذكر الخازن فى تفسيره ٧/ ١٢٨ أنها مكية كلها.

(٣) ينظر: الإتقان ١/ ٢٠.

(٤) حيث إنها السورة السبعون فى تاريخ النزول، بين السور المكية التى تبلغ سبعا وثمانيين كما سبق ترجيحه من قبل.

ب- الآيات من (٩٠ إلى ٩٥) تضمنت عدة توجيهات يُوهِم بعضها أنه نزل بالمدينة، كما فى قوله تعالى: ﴿**وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ. وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**﴾ (الآيتان: ٩١- ٩٢)، فَرُبَّما ظَنَّ البَعْضُ أو تَوَهَّم أن هاتين الآيتين تتحدثان عن المنافقين الذين من أشهر صفاتهم نَقْض العهود والتدليس والتَّستُّر فى الأيْمَان الكاذبة، غير أنهما لا تخرجان عن دائرة كل الآيات المُتَعَلّقة بالتربية النَّفْسية والخلقية فى الفترة المكية كما سبق فى الحديث عنها فى المبحث الثانى، وإذا كان الصحابة ﷺ قد قهروا ظلام الجاهلية ودخلوا فى الإسلام فى هذه الفترة، وذلك يُعَدُّ من أعظم أنتصارات النفس البشرية، فإن ذلك لا يعنى – فى الوقت نفسه – أن هؤلاء الصحابة قد تَحَوَّلوا من بشر إلى ملائكة، أو تَخَلَّصوا من كل آثار الجاهلية فى جميع الأحيان، ويصدق ذلك أخبار كثيرة فى السنة، يَظْهر فيها الرسول ﷺ وهو يواجه هذه الآثار كلما ظهرت فى بعض المناسبات أو التصرفات، لا فى الفترة المكية وحدها، بل فى الفترة المدنية كذلك[١].

جـ- جاء فى قوله تعالى: ﴿**مَن كَفَرَ بِاللّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَـكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ (الآية: ١٠٦)، فما أظهره وتحلى به الصحابة فى الفترة المكية من استمساك عظيم بعقيدتهم رغم ما صب عليهم من اضطهاد وتعذيب، يكاد يَمْنَع أى خاطرٍ يَرِدُ على البال بأن أحدا منهم قد ارْتَدَّ بعد إيمانه فى هذه الفترة، ولم يَرِدْ عن المُفَسِّرين بالفعل فى سبب نزول هذه الآية أى رواية تُحَدِّد شَخْصا بعَيْنه قد ارتد أو أشخاصا معينين قد ارتدوا وشرحوا بالكفر صدرا على هذا العهد[٢] ومع ذلك فإن نزولها فيه ليس بغريب، بل هو الأمر المتوقع حسب جو الفتنة التى تَعَرَّض لها المسلمون وقت نزولها وقَبْله فتنة الاضطهاد والتجويع والتعذيب، وفتنة الشقاق مع الأهل والعشيرة والقبيلة، وفتنة الإغراء بالمنافع والمصالح والشهوات...الخ، فلا يَسْتَبْعد أن تُؤَثِّر الفتنة فى بعض المؤمنين بالفعل كيفما كانت صورة هذا التأثير وكيفما كانت درجته.

ولعل مما يصدق هذا الكلام هذه الآيات التى تلت هذه الآية مباشرة إلى قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَاهَدُواْ وَصَبَرُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الآيه: ١١٠)، فهذه الآية تُصَرِّح بوقوع الفتنة وبسقوط البعض بسببها، بدليل ما جاء فى آخرها وهو مغفرة الله ورحمته لمن هاجر وجاهد بعد هذا السقوط[٣]، ومن كلام الإمام ابن كثير فى هذه الآية قوله: (هؤلاء صِنْفٌ آخر كانوا مستضعفين بمكة مهانين فى قومهم فوافقوهم على الفتنة، ثم إنهم أمكنهم الخلاص بالهجرة، فتركوا بلادهم وأهليهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله وغفرانه، وانتظموا فى سلك المؤمنين وجاهدوا معهم الكافرين وصبروا، فأخبر تعالى أنه من بعدها أى تلك الفعلة وهى الإجابة إلى الفتنة لغفور لهم رحيم بهم يوم معادهم...)[٤]

وقد ذكرت من قبل أنه كانت هناك هجرتان مُبَكِّرتان إلى الحبشة، وأن سورة (النحل) – على الراجح – قد نزلت بعدهما، ومن ثم فإن هذه الآية تتعلق بهما، وتهيئ النفوس أيضا للهجرة الكبرى إلى المدينة.

د- قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ**﴾ (الآية: ١١٥) والشبهة آتية من جهة المضمون التشريعى للآية الذى يشتهر به القرآن المدنى دون القرآن المكى، وقد سبق فى المطلب الرابع من المبحث الثانى أن تحدثت عن آيات التشريع فى الفترة المكية، وكيف أن هذه الفترة لا يمكن بحال أن تستغنى عن نظام تشريعى من نوع ما يتنزل به القرآن ويُوَجِّه إليه بالطريقة المناسبة، ومن ثم فلا مُسَوّغ لنفى مثل هذه الآيات عن القرآن المكى. ومن يطلب مزيد بيان من خلال هذه الآية، فسيجد سياقها كله، بدءا من الآية (١١٤) إلى آخر الآية (١١٨) نَوْعاً من التعقيب

---

(١) من ذلك مثلا: قوله لأبى ذر – حين قال لأحد الصحابة: يا ابن السوداء -: (إنك امرؤ فيك جاهلية)، وقوله: (أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم) حين نشبت فتنة بين الأوس والخزرج وَهمُّوا بالاقتتال، وموقفه من بعض أصحابه الذين قالوا له فى إحدى الغزوات =- حين رأوا شجرة يُعَظمها الكفار ويُعَلّقون عليهم أسلحتهم -: اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. أخرجه البخارى فى كتاب: الإيمان باب: المعاصى من أمر الجاهلية... فتح البارى ١/ ١٠٦ رقم ٣٠، ومسلم فى كتاب الإيمان باب: إطعام المملوك مما يأكل... ٦/ ١٤٦ رقم ١٦٦١، وأبو داود ٤/ ٥١٥٧، والترمذى برقم ٢١٨٠ وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجة ٢/ ٣٦٩٠.

(٢) تعددت الروايات التى يرويها المفسرون فى سبب نزول هذه الآيه ينظر فى ذلك: معالم التنزيل ٣/ ٩٨، تفسير القرآن العظيم ٢/ ٥٨٧، والتفسير الحديث ٥/ ١٨٨، وفى ظلال القرآن ٤/ ٢٨٨١: ٢٨٨٢ وغيرهم، ولم يَذْكروا أو يُحَدِّدوا شخصا بعينه إلى جانب أنهم لم يَرْتَدُّوا ارتداداً حقيقياً عن الإيمان. يراجع فى ذلك: التفسير الحديث ٥/ ١٨٧: ١٨٨.

(٣) ينظر: معالم التنزيل ٣/٩٩.

(٤) ينظر: تفسير القرآن العظيم ٢/ ٥٨٨.

على بعض التشريعات التى سبق بيانها فى سورة (الأنعام) السابقة فى التنزيل على سورة (النحل)[1] ففى سورة (الأنعام) جاء قوله تعالى:﴿ **قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَو الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ**﴾ (الآيتان: ١٤٥ – ١٤٦)، والسياق هنا فى سورة (النحل) يقول: ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ حَلاَلاً طَيِّباً وَاشْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الآيتان: ١١٤- ١١٥) حتى يقول سبحانه: ﴿**وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾ (الآية: ١١٨) فهذا السياق يذكر بما سبق بيانه من المطاعم المحرمة فى سورة الأنعام، ويقول فى صراحة: ﴿**وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ...**﴾ وهو هذا الذى سبق فى الآية (١٤٦) من هذه السورة.

وإذا عَلِمْنا أن آيتى سورة الأنعام السابقتين (١٤٥- ١٤٦) مما لم يقل بمدنيته أحد[2] وإذا كان الارتباط بينهما وبين سياق آية النحل واضحا مصرَّحاً به، فإن ذلك مما يُقَوِّى أو يُؤَكِّد مَكِّيَّة هذه الآية.

هـ - ورد قبل ختام السورة قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ**﴾ (الآية: ١٢٦)، فقد قرر البعض – دون تردد – مدنية هذه الاية، بسبب ما ورد فيها من توجيه المؤمنين إلى رَدِّ العقاب بالمثل، على اعتبار أن الصدام المسلح مع الكفار لم يقع إلا فى المرحلة المدنية.

لكن الأمر – فى الحقيقة – على خلاف ذلك، فقد سبق أن نزول هذه السورة كان بعد كثير من الإيذاء والابتلاء الذى تعرض له المسلمون فى المرحلة المكية، وصحيح أنهم كانوا مأمورين فى هذه المرحلة بالصفح والصبر، لكن ذلك لا يمنع – حين يشتد البلاء وحين تتاح الفرصة للانتقام فى بعض الأحيان – من تفكير فى تغليظ الرد أو مضاعفته بأقصى ما يمكن، وهم بشر متفارتون بالطبع فى مشاعرهم وطاقاتهم وقدراتهم على الاحتمال، كما كان منهم السادة أيضا ذوو المكانة الذين يَصْعُب عليهم امتصاص الأذى فى كل مكان، فإذا ما حدث مثل هذا التفكير أوْهَمَّ بعضهم بإنفاذه، فلا بد أن تنزل مثل هذه الآية التى تَوَجِّه إلى الانضباط والعدل مهما كانت الأحوال.

والحق أن هذه الآية قد حملت فى نفس لفظها ما يدل على مكيتها، حين جاء فى آخرها: ﴿**وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ**﴾، فهى قد وَجَّهَت إلى رَدِّ العدوان بالمِثْل من باب تعليم العَدْل والإنصاف، ثم رَدَّت المؤمنين إلى منهجهم الأصيل فى هذه الفترة، وهو الكف والصبر، وأن التمسك بهذا المنهج لا يزال هو الأفضل والأولى، ولو كانت الآية مدنية ما ختمت بهذه الصورة، فما معنى الصبر بعد أن أصبح للمسلين دولة؟! وما معناه إذا كانت المعارك مُحْتَدِمة فِعْلاً بين الطرفين؟!. بل إن السياق الذى يحف بالآية كلها قبلها وبعدها، يشهد أيضا بما قلته، وأرى ضرورة قراءته مجموعاً على النحو التالى: ﴿**ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ. وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ. وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللّهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ. إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ**﴾ (الآيات: ١٢٥- ١٢٨)، فهذا السياق يحمل بوضُوح روح الوحى المكى، الذى كثيرا ما يبدو مُوَجِّهاً وَمُوَاسيا وُمبَشِّرا للرسول ﷺ فى مواجهة إعراض الكفار وَتَعَنُّتهم، فلا يَجِدْ فى دعوته عن سبيل الحكمة والموعظة الحسنة مهما كان هذا التَّعَنُّت، لأنَّ الذى يتلمس الهداية لا يمنعه عنها شئ، والمُصِرُّ على الضلال لا يُجْدى معه أى شىء، وليضبط عواطفه وانفعالاته هو ومن معه، وليلزموا سبيل الصبر والتقوى والإحسان، وليعلموا أن نهاية هذا السبيل هو النصر المؤكد على عدوهم، وإن ذلك سنة كتبها الله ﷻ ولا يخلفها، وهى أنه ﴿**مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ**﴾

وإذا كنت قد أعْفَيتُ نفسى من الخوض فى الروايات المتضاربة التى اعْتُمِد عليها فى تحديد المكى والمدنى، فَلعلَّ الحديث عن آية (النحل) هذه يكون فرصة لِسَوْق أحَد نماذِجها الواضحة، فهناك روايةٌ ذَكَرَها محمد بن إسحاق بإسناده عن عطاء بن يسار تقول: نزلت سورة النحل بمكة، وهى مكية إلا ثلاث آيات من آخرها نزلت بالمدينة بعد أُحُدٍ حين قتل حمزة ﷺ وَمُثِّلَ به، فقال رسول الله ﷺ (لئن أظهرنى الله عليهم لأُمَثِّلَنَّ بثلاثين رجلا منهم) : فلما سمع المسلمون ذلك قالوا:(والله لئن أظهرنا الله عليهم لَنُمَثِّلَن بهم مثله لم يمثلها أحد من العرب بأحد قط)، فأنزل الله: ﴿**وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ**

---

(1) يراجع ترتيب السور المكية الذى أثْبَتُّهُ فى المطلب الأول من هذا المبحث.

(2) ينظر: الإتقان ١/ ١٩.

مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ إلى آخر السورة[1]، وعقب ابن كثير على ما سبق بقوله: وهذا مرسل وفيه رجل مبهم لم يسم، وقد ذكر رواية أخرى قريبة من الرواية السابقة، إلا أنه جاء فى آخرها: (أما والله على ذلك لأمثلن بسبعين كمثلتك فتنزل جبريل عليه السلام على محمد ﷺ بهذه السورة وقرأ:﴿ **وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾** إلى آخر الآية، فَكَفَّر رسول الله ﷺ عن يمينه وأمسك عن ذلك، وعَقَّبَ ابن كثير أيضا على هذه الرواية بقوله: وهذا إسناد فيه ضعف لأن صالحا هو ابن بشير المرى ضعيف عند الأئمة، وقال البخارى هو منكر الحديث، وهناك رواية أخرى عن ابن زيد تقول: كانوا قد أمروا بالصفح عن المشركين فأسلم رجال ذو منعة فقالوا يا رسول الله لو أذن لنا لا نتصرنا من هؤلاء الكلاب فنزلت هذه الآية[2].

وواضح أن هذه الرواية هى التى تقرر مكية هذه الآيات الأخيرة من سورة النحل، وقد ذكرها ابن كثير فى مقدمة ما ذكره من روايات دون أن يَقْدَح فى إسنادها بشئ.

٢- ورد فى المصحف – روايات أخرى – أن سورة (العنكبوت) كلها مكية إلا مطلعها من الآية (١) إلى الآية (١١) وقد أبدى الشيخ دروزة حيرته بشأن هذه الآيات وإن انتهى إلى أنها مكية[3]، وهى أيضا من أشَدّ ما حَيَّرَتْنى فى قضية الآيات المستثناة قبل أن أطْمَئن إلى أنها مكية كبقية السورة.

والشبهتان الأساسيتان فى أمر هذه الآيات، تتعلق إحْدَاهُمَا بذكر (الجهاد) فيها، وتتعلق الثانية بذكر (المنافقين) **أمَّا التى تَتَعَلَّق بالجهاد**[4] فَأمْرُها يسير فى ضوء ما سبق معرفته عن عدم امتناع ذكر الجهاد فى المرحلة المكية، وعن مدلوله المقصود فى هذه المرحلة، **اما التى تتعلق بالمنافقين**، فهى موضع الإشكال الحقيقى بسبب حركة النفاق الواضحة التى لم تظهر إلا فى العهد المدنى، وأوضح ما يُمَثِّل هذه الشبهة فى مطلع السورة قوله تعالى: ﴿**أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ. وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾** (الآيتان: ٢- ٣)، وكذلك قوله سبحانه: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ. وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾** (الآيتان: ١٠- ١١).

ففى هذه الآيات حديث واضح عن الصادقين والكاذبين، وعن الذين يقعون فى فتنة الناس فيجعلونها كعذاب الله ثم عند النصر يقولون للمؤمنين الصادقين: ﴿**إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ**﴾، ثم صَرَّحَت الآيات فى النهاية بما يدل على أن الصنفين اللذين نتحدث عنهما هم المؤمنون والمنافقون.

ومن ينظر فى مضمون هذه الآيات يصل ويطمئن إلى أنه لا يمنع من مكيتها، وذلك للأسباب التالية:

أ- الفارق الحقيقى بين النفاق كحركة عملية واقعية، والنفاق كحالة نفسية داخلية يمكن أن تعترى الشخص – لأسباب مخصوصة – فى لحظات أو أوقات محددة ثم تختفى.

ب- الفارق الحقيقى أيضا بين النفاق كظاهرة جماعية تتمثل بوضوح فى طائفة مخصوصة من الناس، والنفاق كحالة فردية نادرة تتمثل فى شخص أو أكثر دون أن تصل بأى حال إلى مستوى هذه الظاهرة.

جـ- الفارق الحقيقى كذلك بين الحديث عن الشئ كحقيقة مطلقة لها وجودها فى الحياة، والحديث عنه كواقع محدد فى زمن محدد من هذه الحياة.

د- بناءاً على ما سبق، فإن الآيات قد تضمنت حديثا مطلقا عن نوع معين من الناس اقتضاه سياقها الذى يدور حول جو الفتنة وآثارها، دون أن يتضمن أى شئ يدل على وجود هذا النوع كظاهرة حقيقية فى أرض الواقع.

هـ- جاء هذا الحديث عن هذا النوع من الناس فى سورة (العنكبوت) فى موضعه تماما، من جهة كونها من أواخر السور المكية نزولا إن لم تكن آخرها إطلاقا، لا ينازعها فى ذلك إلا سورة (المطففين) على خلاف بين الروايات[5] فهى من هذه الناحية كأنها نوع من التمهيد الذى يُهَيِّئ مَيْدان المعركة لمواجهة حركة النفاق الحقيقية التى ستظهر عما قريب بعد الهجرة، إن لم تكن هذه الحركة قد نبتت بعض بذورها بالفعل فى المدينة قبل هذه الهجرة منذ تمت بيعتا

---

(١) السبب ذكره: البيهقى فى دلائل النبوه ٣/ ٣٣٧، والدار قطنى فى سننه ٤/ ١١٦ كتاب السير. طبع: دار المعرفة بيروت، والطبرانى فى المعجم الكبير ١١/ ٦٢ طبع: مكتبة العلوم والحكم.

(٢) تراجع الروايات السابقة فى تفسير ابن كثير ٢/ ٥٩٢، وقد ذكرها البغوى فى تفسيره ٣/ ١٠١ دون تعليق.

(٣) ينظر: التفسير الحديث ٥/ ٤٦٨ – ٤٧١.

(٤) وهى التى قوله تعالى: ﴿**وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ**﴾ (العنكبوت: ٦).

(٥) يراجع: الإتقان ١/ ١٣ وما بعدها.

العقبة الأولى والثانية، وانتشر الإسلام على إثرهما هناك حتى أوشك أن يدخل كل بيت، حسبما هو مشهور فى السيرة.

يضاف إلى ما سبق أمارات أخرى فى مَطْلَع هذه السورة تُعَضِّد مكيتها، أهمها ما يلى:

أ- افتتاحه بالحروف المقطعة (الم) التى هى من السمات الأسلوبية الغالبة فى فواتح السورة المكية. **ب-** تضمنه لأسلوب الاستفهام التَّعَجبى أو التقريرى فى الآيتين الثانية والرابعة، وهو أحد الأساليب الإنشائية أيضا فى هذه السور. **جـ-** تضمنه لقوله تعالى: ﴿**وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ (الآية: ٨) فهذه الوصية[١] مما ركز عليها القرآن فى المرحلة المكية لأمر هام، وهو ضرورة إقامة التوازن فى هذه المرحلة بين الدخول فى الدين الجديد وعدم الإساءة إلى الوالدين اللذين قد يبقيان على الكفر أو يُصَادِمَان هذا الدين، فَكِلا الأمرين واجب عظيم لا يجوز تركه، ولايجوز فى الوقت نفسه إقامته على حساب الآخر، وَمِمَّا يُعَضِّد أيضا مكية هذه الوصية فى سورة العنكبوت، ومكية مطلعها بالتالى ما ورد عن سبب نزولها فى مصادر عدة، وهو ما حدث بمناسبة إسلام سعد بن أبى وقاص ﷺ وقد كان إسلامه بمكة بالطبع – إذ قالت له أمه: أليس الله قد أمرك بالبر؟ والله لا أطعم طعاما ولا أشرب شرابا حتى أموت أو تَكْفُر، قيل: فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاها، فنزلت: ﴿**وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً...**﴾ الخ الآية[٢]

٣- هناك خمس آيات قيل إنها مدنية فى خمس من السور المكية وهى: (٩٤) يونس، (١٧) هود، (١٩٧) الشعراء، (٦) سبأ، (١٠) الأحقاف.

ومن يتأمل هذه الآيات يَتَبَيَّن له أن الذى يجمع بينها شبهة واحدة، وهى ذكر أى شئ فيما يتصل بأهل الكتاب أو علمهم أو علمائهم، على اعتبار أنهم كانوا بالمدينة أساسا ولم يكونوا بمكة، وهى شبهة قوية فى ظاهرها، لكنها ضعيفة جدا أولا أصل لها فى الحقيقة وذلك لسببين:

أولهما: أن تَصَوُّر انعزال البيئة المكية تماما عمَّا حولها قبل الهجرة أمر لايمكن قبوله، وقد أشرت فى موضع سابق إلى الوجود الملموس لأهل الكتاب فى شِبْهَ الجزيرة العربية قبل الإسلام، وإن زادت كثافتهم فى مناطق منها دون مناطق أخرى، ولا يمكن لدعوة سماوية كذلك أن تنقطع صلتها فى أيَّة مرحلة من مراحلها بالدعوات السماوية الأخرى، كل ما هناك أن هذه الصلة تَأْخُذ صُورا متنوعة حسب طبيعة الدعوة واهتماماتها فى كل مرحلة.

وقد كان من أبرز هذه الصور فى المرحلة المكية ثلاث: **إحداها** تترتب على استعانة المشركين بأهل الكتاب لتزويدهم بشئ من العلم أو الجدال الذى يحاولون استخدامه للصد عن الدعوة أو إحراج صاحبها ﷺ. **والثانية** تترتب على إحالة القرآن نفسه المشركين إلى أهل الكتاب ليسألوهم عن حقيقة دعوته، وحفزه المخلصين من هؤلاء لبيان وجه الحق فى هذه الدعوة. **والثالثة** تترتب على اهتمام القرآن فى المرحلة المكية بقضية العقيدة وتصحيحها، التى يدخل فى إطارها – بالطبع – ما نتج عن تحريف بعض الديانات السماوية السابقة، وقد مَرَّ أيضا طَرَفٌ من هذه الصور فيما مضى من هذا البحث[٣].

وإليك مثالا بارزاً من سورة (يونس) يُوَضِّح ما أقول: فمن قضايا هذه السورة، حديثها عن موقف المشركين من الدعوة وتكذيبهم بها، على شاكلة ما يَرِد فى كثير من السور المكية، وفى سياق هذا الحديث عَرَضَ القرآن لبعض أنباء الطغاة والمكذبين السابقين، ومنهم قوم نوح وملؤه، ثم فى نهاية الحديث عن إغراق فرعون وجنوده قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُواْ حَتَّى جَاءهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**﴾ (الآية: ٩٣)، وبعد ذلك مباشرة جاءت هذه الآية التى هى موضع الشاهد: ﴿فإن **كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ**﴾ (الآية: ٩٤). **فقد قيل**: إن هذه الآية مدنية، لمجرد أن قيل فيها: ﴿**فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ**﴾ فهل هذا السؤال مطلوب فى المدينة بعد انتصار الدعوة وتمكنها أم مطلوب فى مكة وقت اضطهادها والتكذيب بها؟! إنَّ الآية جزء طبيعى جدا من قضايا سورتها كلها ومن سياقها أيضا الذى يحيط بها.

ويبدو أن الذى قال بمدنيتها رأى أنه من الأَوْجَه أن يضيف إليها آيتين أخريين بعدها، قال أيضا إنهما مدنيتان، وإليك هاتين الآيتين مع آية بعدهما حتى يَتَّضِحَ تماما أنه لا مُسَوِّغَ لهذا القول: ﴿**وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِ اللّهِ فَتَكُونَ مِنَ**

---

(١) لقد تكررت هذه الوصية بالفعل فى القرآن الكريم حوالى عشر مرات، كلها فى السور المكية إلا مرتين فقط فى السور المدنية.

(٢) السبب: أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب: فضائل الصحابة. باب: فى فضل سعد بن أبى وقاص ٨/ ١٩٧: ١٩٨ رقم ١٧٤٨، والترمذى فى سنة كتاب: التفسير. باب: ومن سورة العنكبوت ٥/ ١٨٣ رقم ٣١٨٩ وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأبو داود فى الجهاد برقم ٢٧٤٠، وأحمد فى السند ١٥٤١، ١٥٧١، ١٦١٧، والبيهقى فى السنن الكبرى ٩/ ٢٦، والواحدى فى تفسيره الوسيط ٣/ ٤١٤، والبغوى فى معالم التنزيل ٣/ ٥٥١.

(٣) يراجع: المطلب الثانى من المبحث الأول وبخاصة الحاشيتان ٢، ٣ ص١٣.

الْخَاسِرِينَ. إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ. وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ (الآيات: ٩٥-٩٧)، فلو ضُمَّت الآيات كلها بعضها إلى بعض، أو لو قُرئ السياق كله معاً لوُجِدَ قِطْعة واحدة لا يمكن فَصْل شئ منها عن غيره، ولَوُجِد أيضا أن سورته، بل مرحلته كلها تقتضيه، فالأمر فى اقتضاء السورة نفسها وقت تنزيلها واقتضاء المرحلة كلها لهذه الآيات، وليس فى ترابط السياق فقط.

وهكذا الأمر فيما ورد فى سائر السور الأخرى، ففى سورة (هود) جاء قوله تعالى: ﴿**أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً أُوْلَـئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ**﴾ (الآية: ١٧)، وفى سورة (الشعراء) جاءت الآية (١٩٧) فى هذا السياق: ﴿**وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ. أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاء بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ. فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ**﴾ (الآيات: ١٩٦- ١٩٩)، وفى سورة (سبأ): ﴿**وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ**﴾ (الآية: ٦)، وفى سورة (الأحقاف): ﴿**قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾ (الآية: ١٠)،

فمضمون هذه الآيات – حتى لو قُرِئَت بعيدا عن سياقها – يفوح برائحة المرحلة المكية وروحها، بل يخاطب أهلها مباشرة أو يجادلهم، فى نفس القضية التى أشرت إليها فى مثال سورة (يونس).

القسم الثالث

تنقسم شواهده إلى مجموعتين اثنتين:

المجموعة الأولى: تتعلق بالآيات التى اتفق الشيخان (دروزة) و (سيد قطب) على استثنائها فى تفسيريهما للقرآن الكريم[1]، وهى ثمانى آيات من (١٦٣- ١٧٠) من سورة (الأعراف).

ومن ينظر فى هذه الآيات يمكن أن يَعْتَقد بدايةً أنها مدنية، لتطرُّقها إلى بعض التفاصيل الشبيهة بما ورد فى القرآن المدنى عن تاريخ اليهود ومثالبهم، وابتدائها بسؤال طُلِبَ من الرسول ﷺ أن يُوَجِّهَهُ إليهم: ﴿**وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ**﴾ (الآية: ١٦٣)، ومع ذلك لا أُرَجِّحُ مدنية هذه الآيات، بل أراها مكية كبقية السورة، وذلك لسببين:

أولهما: أن ما جاء فى هذه الآيات من التفاصيل بشأن اليهود ليست بالغريبة عن سياقها ولا عن سورتها، وذلك لتردُّد قصة موسى عليه السلام وبنى إسرائيل من زوايا معينة فى سور قرآنية كثيرة تعد سورة الأعراف من أبرزها ومن أكثرها توسعا فى هذه القصة، فقد تضمنت هذه السورة – فى حوالى أربعين آية – أخبارا متنوعة عن بعض الأمم والأنبياء السابقين، ثم أخذت فى قصة موسى وبنى إسرائيل فاستغرق منها وحدها ما يقرب من سبعين آية من: (١٠٣- ١٧١) أو ما يَقْرَب من ثلث السورة كلها، ولو كانت هناك سورة يمكن أو تستحق أن تسمى باسم موسى عليه السلام كما سميت بعض السور بأسماء أنبياء آخرين، لكانت سورة الأعراف من أوْلى السور بهذه التسمية، لما تضمنته من إسهاب وتفصيل فى هذه القصة.

وقد أصاب الإمام السيوطى حين قال فى سياق حديثه عن أسماء السور:

(وقد كان أوْلى سورة أن تسمى به – أى بموسى- سورة طه أو سورة القصص أو سورة الأعراف لبسط قصته فى الثلاث ما لم يبسط فى غيرها)[2]، وعلى ذلك فليس بغريب أن تمتد هذه السورة إلى مثل هذه التفاصيل، وأنْ تَرِد هذه الآيات الثمان امتداد الستين آية قبلها فى موضوعها.

ثانيهما: أن توجيهه الرسول ﷺ لسؤال اليهود فى بداية هذه الآيات لا يعنى بالضرورة أن الرسول تلقاه بعد الهجرة ليوجِّهَهُ إليهم وهو معهم بالمدينة، ولا يُشَكِّل شيئا بصدد الترجيح لمكية هذه الآيات، لأن السؤال أو الإستفهام قد يَخْرج عن غرضه الأصلى إلى أغراض أخرى يراد به التعجيز أو إظهار تَيَقُّن المتكلم من كلامه، ونحو ذلك مما هو معلوم من حقائق البلاغة، فالمقصود فى كثير من الأحيان أن يسمعوا الآيات فقط من أى طريق كى يَتَحَقَّق الغرض من مواجهتها لهم فيما تواجههم بشأنه، وليس المعنى أن يتوجه إليهم بالفعل ليسألهم كلما طُلِبَ منه.

وفى سورة (يونس) جاء قوله تعالى: ﴿**فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ**﴾ (فى الآية: ٩٤) التى سبق التأكيد على مكيتها، وجاء أيضا فى سورة (الإسراء) قوله سبحانه: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَونُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً**﴾ (الآية: ١٠١) وهذه السورة مكية بالتأكيد، كما أن هذه الآية ممَّا لم يُدْخِلْه أحَد فى الآيات المستثناة.

المجموعة الثانية: وتتعلق بالآية الأخيرة من سورة (الشعراء) المنصوص على أنها مع الآيات الثلاث التى قبلها مدنية، ومن الواضح أن موضع الشبهة إنَّما هو فى الآية الأخيرة، وأنها هى التى جَرَّتْ إلى القول بمدنية الآيات الثلاث السابقة عليها، وهذه الآيات الأربع هى: ﴿**وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ. أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ. وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ. إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ**﴾ (الآيات: ٢٢٤- ٢٢٧)، فكأنَّ الآية الأخيرة يقصد بها الشعراء المسلمون فى المدينة، الذين كانوا يَرُدُّون على هجاء المشركين وإساءاتهم للإسلام ولرسوله كحسَّان وغيره، لأنهم مُعْتَدىً عليهم ويَنْتَصِرُونَ لدينهم من بعد ما ظلموا.

لهذه الشبهة السابقة رأى الشيخ دروزة أن ما قبل هذه الآية مكى، وأنها وحدها هى المدنية[3].

والذى أميلُ إليه أن لآيات الأربع كلها مكية، وأنها خاتمة طبيعية لسياقها السابق عليها، فمعلوم مدى الصراع الذى دارت رحاه فى المرحلة المكية بين القرآن والمشركين حول إثبات صِدْقِه وحول مَطَاعنهم فيه، والتى منها أنه شعر وأنه وحى من الشيطان، والسياق المشار إليه يُرَكِّزُ على هذه الحقيقة بالفعل، بَدْءاً من قوله تعالى: ﴿**وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ. نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ. عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ**﴾ (الآيات: ١٩٢- ١٩٤) وما بعدها حتى قوله تعالى: ﴿**وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ. وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ**﴾ (الآيتان: ٢١٠- ٢١١) وحتى قوله سبحانه: ﴿**هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ. تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ. يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ. وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ**﴾ (الأيات: ٢٢١- ٢٢٤)

---

(١) ينظر: التفسير الحديث ٢/ ٥٢٠، فى ظلال القرآن ٣/ ١٣٨٦.

(٢) الاتقان: ١/ ٧٤.

(٣) ينظر: التفسير الحديث: ٣/ ٢٧٦- ٢٧٧.

إلى آخر السورة، فكان من الطبيعى أن تَردَ الآية الأخيرة ختاما لهذا السياق وفى نفس وقت تنزله، لِتُقَيِّدَ الإطلاق السابق عليها، ولئَلَّا يَظُنَّ شعراء الجاهلية أن باب التوبة والإيمان قد أُغْلِق فى وجوههم تماما، وأن جميع الشعراء قد كُتبت عليهم الغواية والضلالة، فإن الحق – كما ورد فى الآيات – أن الشعراء كغيرهم من أى فئة فيهم الصالح والطالح وإن غلبت الغواية على كثير منهم، لذلك فلا مجال للظَّن بأن المستثنى فى هذه الآيات يمكن أن يستغنى عن المستثنى منه، أو أن يتأخر عنه حتى يَنْزل فى المرحلة المدنية.

أما قوله تعالى فى الآية الأخيرة: ﴿**وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا** ﴾ فَهُو نَوْع من التفريع الذى تقضية المناسبة، لأن الأمر فى الاستثناء بهذه الآية لا يقتصر على مجرد شعراء مؤمنين صالحين، بل شعراء متفاعلين أيضا يجب عليهم أن يَرُدُّوا ويَنْتَصروا لدينهم وأنفسهم فى غير تجاوز، عملا بالمبادئ التى أرساها القرآن على هذا العهد ومنها مبدأ رفض الظلم مع الاستعداد للرد، ومما يدل على ذلك ما جاء فى سياق الحديث عن المؤمنين قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ. وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ. وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ. إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ. وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ**﴾ (الشورى: ٣٩- ٤٣)، وهذه الآيات تُشْبه مع شئ من التفصيل قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ**﴾ (النحل: ١٢٦)، فهو يُقِرُّ حَقَّ الرد بالمثل من حيث المبدأ، مع الترغيب فى الأَوْلى وهو الصبر أيضاً تَبَعا لأحوال الواقع الذى كان فيه المسلمون من ضعف واضطهاد على العهد المكى، فَضْلاً عن كَوْن التَّحَلِّ بالصبر فى حد ذاته من شِيَم النُّفُوس الرفيعة، وقد سَبَق الرَّدُّ على القائلين بمدنية آية (النحل) هذه، وَرَجَّحْت مكيتها، ولعل هذه الآية الأخيرة من سورة (الشورى) ممَّا يُقَوِّى هذا الترجيح أيضا، ولعلها مع آية (النحل) بالتالى مِمَّا يُقَوِّى مكية الآية الأخيرة من سورة (الشعراء).

الخاتمة

الحمد لله على توفيقه وإحسانه والشكر له سبحانه على ما يَسَّر لى من إتمام هذا البحث، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد: فلقد أَمْضَيْتُ فى إعداد هذا البحث شهوراً عديدة كان هو شُغْلى الشاغل، والآن وقد وفق الله ﷻ إلى إتمامه وإنجازه أحب أن أشير إلى أن من حق البحث على أن أسجل النتائج التى انتهى إليها وهى على النحو التالى:

١- إن الاصطلاح الراجح فى تعريف المكى والمدنى، والذى دَرَج عليه أهل العلم هو أن المكى ما نزل قبل هجرة النبى ﷺ إلى المدينة، حتى ولو نزل بغير مكة، والمدنى ما نزل بعد الهجرة، وإن نزل بمكة.

٢- أنَّ علم المكى والمدنى بدأ بشكل روايات يتناقلها الصحابة والتابعون، وعندما بدأ التأليف كان من ضمن العلوم التى أفردت بتأليف مستقبل.

٣- أن هناك أسباباً عدة أدت إلى الاختلاف فى المكى والمدنى، وأهمها عدم التنصيص من النبى ﷺ على هذا الأمر.

٤- أن فوائد معرفة المكى والمدنى لا يمكن أن يَسْتَغْنى عنها من أراد الخوض فى مجال علوم الشريعة على وجه العموم، وفى مجال التفسير وعلوم القرآن على وجه الخصوص.

٥- أن المكى من القرآن له كغيره من الفنون قواعد تضبطه وَتُؤَصِّلُه.

٦- أن المكى من القرآن له ضوابط وخصائص تميزه عن المدنى منه، وبعض تلك الضوابط والخصائص قد يُبْنىَ على الغالب.

٧- أن وُجُودَ آيةٍ أو آياتٍ مكية فى سور مدنية، ضَرْبٌ من ضروب الإعجاز القرآنى، وذلك أنه لا يوجد تنافر فى آيات السورة، وليس هناك فارق بينهما، رغم تباعد زمان النزول، وصدق الله العظيم القائل: ﴿**أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً**﴾ (النساء: ٨٢). هذا ما تيسر لى من النتائج فى هذا البحث[1] وها أنذا أُمْسِك بعنان القلم وقد طُوِّف بساحل كتاب الله المجيد، ولسان الضَعِيف يقول: إن مثلى ومثل هذا البحث كَمَنْ رَامَ دُرَرَ البحر المحيط بيديه القاصرتين، فاجْتَهَد وحاول، ولقد يراها بَعْيْنَيْه لصفاء الماء وَرِقَتِه، ولكن أَنَّى له أن يصل إليها بِجُهْده، أو يُدْرِك غَوْرَها بعاجل فكره، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العلمين، وﷺ وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) الذى خصصته فى القرآن المكى، والذى أسأل الله بحوله وقوته أن أكمل الحلقة بدراسة فى القسم الثانى وهو (خصائص الخطاب القرآنى فى العهد المدنى) إن قدر الله لى البقاء والبقاء.

أهم المصادر والمراجع

بعد القرآن الكريم

١- أسباب النزول للواحدى، تحقيق السيد أحمد صقر، طبع: دار القبلة ١٤٠٤هـ.
٢- أعلام الفكر والأدب فى فلسطين، ليعقوب العودات، عمال المطابع التعاونية عام ١٩٧٦م.
٣- الإتقان فى علوم القرآن، لشيخ الإسلام جلال الدين السيوطى، طبع: دار عالم المعرفة.
٤- الإصابة فى تمييز الصحابة، لابن حجر، نشر: دار الفكر بيروت، وأيضا طبع: دار صادر بيروت.
٥- الأعلام، للزركلى، دار العلم للملايين بيروت ط٥ ١٩٨٠م.
٦- الانتصار، للقرآن للقاضى أبى بكر محمد بن الطيب الباقلانى، تقديم وتحقيق: عمر حسن القيام، طبع: مؤسسة الرسالة.
٧- البداية والنهاية، للحافظ ابن كثير، نشر: دار الكتب العلمية بيروت، بدون.
٨- البرهان فى علوم القرآن، للإمام بدر الدين الزركشى، تحقيق أ.د زكى محمد أبو سريع، طبع: دار الحضارة للنشر والتوزيع.
٩- التحرير والتنوير، للشيخ ابن عاشور، طبع: دار سحنون.
١٠- التفسير الحديث، لمحمد عزة دروزة، طبع: دار الغرب الإسلامى.
١١- التفسير الكبير، للعلامة فخر الدين الرازى، طبع: دار الغد العربى.
١٢- التكملة لوفيات النقلة، لزكى الدين عبد العظيم بن عبد القوى المنذرى ت ٦٥٦هـ، تحقيق د/ بشار عواد، مطبعة الآداب فى النجف ١٣١٩هـ - ١٩٧٥م.
١٣- الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبى، طبع: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
١٤- الدرر الكامنة، لابن حجر، حيدر آباد الهند، ط١ ١٩٤٨م.
١٥- السنن الكبرى، للبيهقى ت ٤٥٨هـ، طبع: دار الفكر.
١٦- الصحاح، لإسماعيل بن حماد الجوهرى ت ٣٩٣، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، طبع: دار العلم للملايين بيروت.
١٧- الصحاح للجوهرى، إعداد وتصنيف نديم مرعشلى، وأسامة مرعشلى، طبع: دار الحضارة العربية بيروت.
١٨- العجاب فى بيان الأسباب، لشهاب الدين أبى الفضل أحمد بن على المعروف بابن حجر العسقلانى، تحقيق: عبد الحكيم محمد الأنيس، طبع: دار ابن الجوزى ط١ شعبان ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
١٩- الفرقان بين الحق والباطل، لابن تيمية، مكتبة البيان دمشق ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
٢٠- الفقية والمتفقه، لأحمد بن على بن ثابت الخطيب البغدادى ت ٤٦٣هـ، تصحيح وتعليق: الشيخ إسماعيل الأنصارى، نشر: دار إحياء السنة النبوية ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.
٢١- القرآن والملحدون، محمد عزة دروزة، طبع: المكتب الإسلامى ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.
٢٢- الكاشف فى معرفة من له رواية فى الكتب الستة، للإمام الذهبى ت ٧٤٨هـ، طبع: دار الكتب الحديثة، وطبع: دار الكتب العلمية بيروت.
٢٣- المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز، للقاضى أبى محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسى ت ٥٤٦هـ، تحقيق: عادل عبد الموجود وغيره، طبع: دار الكتب العلمية بيروت لبنان.
٢٤- المدخل لدراسة القرآن، للأستاذ الدكتور محمد محمد أبى شهبه، دار اللواء للنشر والتوزيع الرياض.

٢٥- المستدرك على الصحيحين، للإمام أبى عبد الله الحاكم النيسابورى، طبع: دار الكتب العلمية ١٤١٤هـ.
٢٦- المسند، للإمام أحمد بن حنبل ت ٢٤١هـ، دار المعارف بمصر، وأيضا طبع: المكتب الإسلامى بيروت.
٢٧- المعجم الكبير، للطبرانى ت ٣٦٠هـ، طبع: مكتبة العلوم والحكم.
٢٨- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، إعداد: محمد فؤاد عبد الباقى، طبع: دار الحديث.
٢٩- الموطأ، للإمام مالك، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقى، طبع: دار إحياء التراث العربى.
٣٠- الناسخ والمنسوخ فى كتاب الله واختلاف العلماء فى ذلك، لأبى جعفر بن محمد بن إسماعيل النحاس ت ٣٢٨هـ، تحقيق: دكتور سليمان بن إبراهيم اللاحم، نشر: مؤسسة الرسالة، ط١ ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
٣١- بصائر ذوى التميز فى لطائف الكتاب العزيز، للفيروز آبادى ت ٨١٧هـ، نشر: دار الكتب العلمية بيروت.
٣٢- تاريخ بغداد، لأبى بكر أحمد بن على المشهور بالخطيب البغدادى ت ٤٦٢هـ، نشر: دار الكتاب العربى بيروت، بدون.
٣٣- ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة، للطاهر أحمد الزاوى، طبع: عيسى البابى الحلبى.
٣٤- تفسير أبداع البيان لجميع آى القرآن، للشيخ محمد بدر الدين بن الملا درويش التلوى، طبع: دار النيل.
٣٥- تفسير النسقى، للإمام أبى البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسقى، طبع: دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابى الحلبى.
٣٦- تفسير الخازن، لعلاء الدين على بن محمد بن إبراهيم البغدادى الشهير بالخازن، طبع ونشر: مكتبة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر.
٣٧- تفسير القرآن للإمام ابن كثير، طبع ونشر: مكتبة التراث الإسلامى سوريا حلب.
٣٨- تفسير الكشاف، للإمام الزمخشرى، طبع: دار عالم المعرفة.
٣٩- تفسير المظهرى، للقاضى ثناء الله المظهرى، طبع: دار إحياء التراث العربى.
٤٠- جامع البيان، للإمام ابن جرير الطبرى، طبع: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
٤١- سنن أبى داود، طبع: دار الكتاب العربى بيروت.
٤٢- سنن الدارقطنى، طبع: دار المعرفة بيروت.
٤٣- سير أعلام النبلاء، لمحمد بن أحمد بن عثمان الذهبى ت ٧٤٨هـ، تحقيق شعيب الأرنؤوط وزملاؤه، نشر: مؤسسة الرسالة ط٧ ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
٤٤- شجرة النور الذكية فى طبقات المالكية، محمد بن مخلوف، نشر: دار الكتاب العربى بيروت.
٤٥- شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، لعبد الحى بن عماد الحنبلى ت ١٠٨٩هـ، نشر: المكتب التجارى للطباعة والنشر بيروت، وأيضا مكتبة القدسى القاهرة.
٤٦- شرح السنة، لحسين بن مسعود البغوى ت ٥١٦هـ، تحقيق: زهير الشاويش، وشعيب الأرنؤط، نشر: المكتب الإسلامى بيروت، ط٢ ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
٤٧- شرح العقيدة الطحاوية لابن أبى العز الحنفى، طبع: مكتبة الدعوة الإسلامية، نشر: المكتب الإسلامى.
٤٨- شرح المفصل، لابن يعيش، طبع: عالم الكتب بيروت.
٤٩- صحيح ابن حبان للإمام ابن حبان، تحقيق شعيب الأرنؤط، طبع: مؤسسة الرسالة بيروت ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

٥٠- صحيح ابن خزيمة، للإمام محمد بن إسحاق بن خزيمة ت ٣١١هـ، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمى، طبع: المكتب الإسلامى.
٥١- صحيح مسلم، بشرح النووى طبع: دار الحديث القاهرة.
٥٢- طبقات المفسرين، لشمس الدين محمد على الداودى ت ٩٤٥هـ، نشر: دار الكتب العلمية بيروت.
٥٣- فتح البارى، بشرح صحيح البخارى، للحافظ ابن حجر العسقلانى، طبع: دار الريان.
٥٤- فى ظلال القرآن، للشيخ سيد قطب، طبع: دار الشروق.
٥٥- لسان العرب، لابن منظور ت ٧١١هـ، طبع: دار لسان العرب بيروت، وأيضا صادر بيروت بدون.
٥٦- مباحث فى علوم القرآن، للشيخ مناع القطان، طبع: دار العلم للملايين، وأيضا طبع: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع بالرياض.
٥٧- مجمع البيان، للطبرسى، طبع: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
٥٨- محاسن التأويل، للقاسمى، تصحيح وترقيم وتخريج وتعليق: محمد فؤاد عبد الباقى، طبع: عيسى البابى الحلبى.
٥٩- مختصر سيرة الرسول ﷺ لابن عبد الوهاب، تحقيق: محمد حامد الفقى، طبع: مكتبة السنة المحمدية.
٦٠- معالم التنزيل للإمام البغوى، تحقيق: عبد الرزاق المهدى، طبع: دار إحياء التراث العربى.
٦١- معجم الأدوات والضمائر فى القرآن الكريم، للدكتور إسماعيل أحمد عمايرة، والدكتور عبد الحميد مصطفى السيد، طبع: مؤسسة الرسالة.
٦٢- مناهل العرفان فى علوم القرآن، للشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى، طبع: عيسى البابى الحلبى وشركاه.
٦٣- واقفنا المعاصر، محمد قطب، طبع: مؤسسة المدينة جده ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.

الفهـــــرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٣
المبحث الأول: مراجعات تأصيلية	١٠
المطلب الأول: حول المصطلح	١٠
المطلب الثانى: مباحث المكى والمدنى	١٢
المطلب الثالث: أهمية دراسة المكى والمدنى	٢٧
المطلب الرابع: طرق العلم بالمكى والمدنى	٣٢
المبحث الثانى: الخصائص الموضوعية للقرآن المكى	٣٥
تمهيد.....	٣٥
المطلب الأول: الخصائص المتعلقة ببناء العقيدة	٣٦
المطلب الثانى: الخصائص المتعلقة بأسلوب الدعوة	٣٩
المطلب الثالث: الخصائص المتعلقة بالجانب الأخلاقى	٤٣
المطلب الرابع: الخصائص المتعلقة بالجانب التشريعى	٤٦
المبحث الثالث: الخصائص الأسلوبية للقرآن المكى	٤٩
تمهيد:	٤٩
المطلب الأول: تَحَدُّد البناء وقوة الإيقاع	٥٠
المطلب الثانى: تكثيف اللغة التصويرية	٥٤
المطلب الثالث: صيغ وتعبيرات مكية	٦٢
المبحث الرابع: ضوابط السور المكية	٧٦
تمهيد	٧٦
المطلب الأول: ضوابط قديمة.....	٧٧
المطلب الثانى: ضوابط إضافية مطلقة.....	٨٢
المطلب الثالث: ضوابط إضافية غالبة.....	٩٩
المبحث **الخامس**: تحديد المكى والمدنى	١٢٤
المطلب الأول: المتفق عليه من السور	١٢٤
المطلب الثانى: المختلف عليه من السور	١٢٩
المطلب الثالث: الآيات المستثناة	١٤٤
الخاتمة:	١٧٠
المصادر والمراجع:	١٧٢
الفهرس:	١٧٨